

عَقِيدَةُ الْمُؤْمِنِينَ



أَبُو بَكْرُ الْجَزَائِرِيِّ

دارُ العَقِيدَةِ

مكتبة العلوم
والحكم

عَقِيدَةُ الْمُؤْمَرِينَ

تَأَلَّفَ

أَبُو بَكْرُ الْجَزَائِرِيِّ

الواعظ بالمسجد النبوي الشريف

التوزيع

دار الحقيقة

القاهرة

الناشر

مكتبة العلوم والحكم

السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذى خلق السموات والأرض، وجعل الظلمات والنور، خلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، شرف آدم أبا البشر بخلقه بيديه، ونفخ فيه من روحه، وكرم ذريته، فصورهم فى الأرحام فى أجمل صورة وخلقهم فى أحسن تقويم. ورزقهم من الطيبات، وفضلهم على كثير من المخلوقات، وزودهم بالعقل ليعرفوه، وأمدهم بالنعم ليذكروه، ويشكروه.

أنزل الكتب، واصطفى من الملائكة رسلاً، ومن الناس، لإبلاغ عباده شرائعه من الدين، ليعبدوه ويوحده، فتكمل بذلك آدميتهم، وتشرف به إنسانيتهم ويتأهلوا لكرامة الدار الآخرة، والسعادة الدائمة فيها، حيث كتب لهم ذلك وقدره تقديراً، فسبحانه من رب رحيم، وإله عظيم، لا إله غيره، ولا رب سواه.

والصلاة والسلام التامان، الأكملان، الدائمان، والمتلازمان على محمد حبيب الله، وخاتم رسله وأنبيائه، صفوة الخلق وخيرتهم، وإمام الأنبياء وسيدهم، صاحب لواء الحمد، والمقام المحمود، والحوض المورود، وسيد كل مولود، وعلى إخوانه الأنبياء والمرسلين، وآل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته البررة الراشدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فإنه - نظراً لأهمية العقيدة الإسلامية فى حياة الفرد المسلم وضرورة خلوها من الشك، وسلامتها من شوائب الشرك: ونقائها من كدورات⁽¹⁾ الخرافات. ونظراً إلى الهزات العنيفة القوية التى تتعرض لها العقيدة الإسلامية فى هذه الأيام من جراء طغيان المادة من جهة، ومن طفرة العلوم الكونية المادية من جهة أخرى، نظراً إلى هذا وذاك فقد رأيت أن الحاجة جد

(1) الكدورات: جمع كدورة. وهى الكدر الذى هو ضد الصفاء.

ماسة إلى وضع كتاب مناسب فى عقيدة المؤمن على ضوء كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، على أن يكون سهل العبارة، قريب الإشارة، حججه قوية، وأدلته قطعية، مضاءً بضياء الأدلة السمعية الدينية الشرعية، مناراً بأنوار الحجج العقلية النظرية القياسية.

كما رأيت أنى أقترب من شاطئ نهاية حياتى، وأتقدم بسرعة نحو باب مماتى، ورجوت ربى أن لا يأتينى أجلى إلا بعد أن تقضى لُباناتى⁽¹⁾ فى وضع الكتاب المطلوب، وتركه بعدى صدقة جارية، وحسنة سارية، يصلنى من بركتها ما يزيد فى نعيمى إن كنت من المنعمين، أو ما يخفف عنى عذابى إن كنت من المعذَّبين.

واستعنت بالله تعالى على وضع الكتاب المرغوب، وأخذت فى الجمع والتأليف، وفى التحرير والتحرير، ولم يمض طویل زمن حتى تمَّ وضعُ كتاب فى عقيدة المؤمن على ضوء الكتاب والسنة وجاء كما أملت، سهل العبارة، قريب الإشارة، حججه قوية، وأدلته قطعية.

غير أن كثرة الأعمال، وانشغال البال، قد حالت - مع الأسف - دون التنقيح، وإن لم تحل دون التصحيح؛ فمعدرة إلى الإخوة القارئین إن رأوا تقديم ما حقه التأخير، أو تأخير ما حقه التقديم، أو زيادة كلمة فى جملة، أو نقصها من أخرى: فأخلّ ذلك بجمال التركيب، أو حسن الترتيب فأفقد الكلام طلاه، والأسلوب حلاه.

هذا، والكتاب لو لم أكن جامعاً، ومؤلفه لقلت فيه ما يرغّب فى اقتنائه ويبيح النفس على شرائه. وهذا أراه غير مانع من أن أقول فيه كلمة تقويم، لا تعظيم ولا تفخيم، تحدد معالمه، وتظهر محاسنه وتبين ما فيه من خصائص، وما له من مميزات. وهل فى ذكر ذلك من بأس إذا كان يحمل الإخوة المؤمنين على قراءة الكتاب، واعتقاد ما فيه من الحق والصواب؟ لا سيما وأنى ما كتبتهم إلا لهم، وما جمعتهم وألفته إلا لعلمى بحاجتهم الأكيدة إليه، وافتقارهم الشديد إلى مثله؛ إذ هم يعيشون فى زمن أصبح من الصعب فيه قراءة كتب الأولين، والاستفادة منها، وذلك لعوامل كثيرة من أهمها ما يلى:-

(1) اللبنة بالضم: الحاجة.

أولاً: ضعف الملكة العلمية التى يتأتى بها القارئ أن يفهم ما يقرأه، ويستفيد منه ما هو فى حاجة إليه من تصحيح معتقد، أو فهم حكم، أو تحقيق مطلب.

ثانياً: قلة العلماء الدارسين لكتب الأولين، المحققين لها، العالمين بما فيها، الذين يرجع إليهم الطالب اليوم فيما خفى عنه منها، أو أشكل عليه فيها.

ثالثاً: انعدام الهمم العوالى (إلا ما شاء الله)، تلك الهمم التى كانت تحمل أصحابها على الصبر فى الطلب، وعلى المثابرة فى الدرس حتى يلين الصلب، ويسهل الصعب، فتتكشف مخدّرات المعانى، وتتجلى شمس العلوم والمعارف.

رابعاً: ما طبع به العصر اليوم أهله من حُب العجلة والعاجلة، والرغبة عن الأجلة⁽¹⁾ والآجلة. والعلم من شروط اكتسابه، والحصول عليه الصبر والأناة والرغبة فيما عند الله.

هذه بعض العوامل التى جعلت الحاجة إلى مثل هذا الكتاب الذى نقدّم له: حاجة ماسّة، والعمل فى تأليفه وإخراجه من الأعمال الصالحة النافعة⁽²⁾

والآن، فإلى كلمة تقويم⁽³⁾ الكتاب حيث أقول:

إنّ هذا الكتاب الذى سمّيته «عقيدة المؤمن» هو - بحق - حاو لعقيدة المؤمن، مشتمل على أصولها، جامع لفروعها، لم يترك من أصول العقيدة ما يخلُّ بها، ولم يغفل من فروعها ما يضعفها أو يوهنها، فقد اشتمل على الإيمان بالله تعالى وأدلتة ومراتب المؤمنين فيه، وعلى توحيد الله تعالى، وأقسامه، وعلى الشرك وأنواعه ومظاهره، وعلى بيان الوسيلة والتوسل، والشفاعة والاستشفاع، وعلى أولياء الرحمن وكراماتهم، وأولياء الشيطان ومهاناتهم، وعلى

(1) الأجلة: المتأخرة. قال صاحب القاموس المحيط: أجل كفرح فهو أجل وأجيل: تأخر. والعاجلة: الدنيا، والآجلة: الآخرة.

(2) أى المتعدى نفعها إلى غير عاملها.

(3) أى بيان قيمة الكتاب المعنوية، ومن اللحن الشائع قولهم: تقييم كذا بمعنى تقويمه.

الإيمان بالملائكة، وأدلة وجودهم: العقلية والسمعية، وعلى بيان مراتبهم وأعمالهم وأحوالهم ومادة خلقهم، وعلى ذكر الجن ومادة خلقهم، وعلى ذكر أحوالهم وأعمالهم، ومآلهم، وعلى ذكر الشياطين وما جُبلوا عليه، وما يحفظ الإنسان منهم، وينجيه من كيدهم. وعلى الإيمان بالكتب الإلهية المنزلة، ومن نزلت عليهم، وأدلة ثبوتها، وبيان عددها، وأسمائهم، وناسخها، ومنسوخها، وعلى الإيمان بالرسول (عليهم الصلاة والسلام)، وبيان عددهم وأسمائهم، وأسماء أممهم، وبيان ديارهم وأزمنتهم، وعلى أعاظمهم وهم أولو العزم، وعلى أدلة الوحي وثبوتها بالأدلة العقلية والسمعية، وحاجة الناس إلى الوحي الإلهي، وعدم استغنائهم عنه بحال من الأحوال. وعلى المعاد، والبعث، والجزاء، وإمكان ذلك، ووجوب الإيمان به، وعلى كيفية البعث وأحوال الناس فيه، وما يجري عليهم، ويطرأ لهم: من وزن أعمالهم وعبورهم على الصراط، ونجاة الناجين، وهلاك الهالكين، وعلى ذكر دار السلام، وما فيها من نعيم مقيم، وعلى ذكر دار البوار وما فيها من جحيم وحميم، وعلى الإيمان بالقدر، وأدلة وجوب الإيمان به العقلية القياسية، والدينية الشرعية، وعلى ذكر الجبر والاختيار، والإرادة المشيئة، والهداية والإضلال، والحسنة والسيئة. وعلى خاتمة في بيان ثمرات هذه العقيدة، وفائدتها المقصودة منها، والمتوخاة فيها.

ومن خصائص هذا الكتاب: احتواؤه على كل أجزاء العقيدة الإسلامية، وبحثها بالتفصيل، ومن مميزات: جمعه - في إثبات مسائله - بين الدليلين العقلي والسمعي، وكتابته بروح العصر.

والله أسأل أن ينفع به من يقرأه ويدرسه، وأن لا يحرمني أجر ما بذلت فيه من جهد، هو من فضل ربي على وإكرامه لي. والحمد لله رب العالمين.

حاجة الإنسان إلى العقيدة وضرورتها له

ما هو الإنسان ؟

الإنسان هو هذا الكائن الحي المنتصب القامة، البادى البشرة، ذو العقل والتفكير والأخلاق الفاضلة، والعواطف الجياشة، والإحساسات الصادقة، والمنطق السليم، والكلام الفصيح المبين. ابتداءً الله تعالى خلقه من طين، ثم جعل ذريته من سلالة من ماء مهين؛ إذ خلق آدم من طين يديه، ونفخ فيه من روحه، وخلق منه أنثاه حواء، وعلمه الأسماء، وأسجد له ملائكة السماء، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس أبى. ونهاه عن الأكل من الشجرة فنسى، فأكل منها، فعصى وغوى، وتلقى كلمات منه تعالى، فقالها فتاب عليه وهذاه، وأهبطه إلى الأرض خليفة فيها بعد أن هيأها له، وسخر له كل ما فيها.

هذا هو الإنسان في معتقدنا، وهو - أى معتقدنا هذا في الإنسان - مُستقى من وحى السماء لا مجال فيه للقياس ولا للنظر والاستدلال؛ إذ مثله لا يعلم بغير الوحي أبداً. وهذه حقوقه عندنا: حرمة دمه، وماله، وعرضه، واحترام مشاعره وعواطفه وأخلاقه، والاعتراف بحرياته الشخصية ما لم يخل بكرامته، ومصالح الهيئة الاجتماعية التي هو أحد أفرادها، وجزء من أجزائها.

وأدلة عقيدتنا هذه - في الإنسان - هي إخبار خالقه عنه، وعن كيفية خلقه وتنشئته، والواصلة إلينا من طريق يحيل العقل البشري تكذيبها وإنكارها وهي أقواله تعالى، في كتابه الكريم: القرآن العظيم، إذ قال تعالى في خلق آدم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: 26). وقال عنه أيضاً: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (ص: 71، 72).

وقال عنه أيضاً: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ (السجدة: 7).

وقال في خلق ذريته: ﴿ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾ (السجدة: 8).

وقال في خلق الإنسان الذي هو ابن آدم: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ (الإنسان: 2).

وقال في خلقه أيضاً: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: 12 - 14).

وقال في خلق المرأة الأولى حواء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: 1).

وقال عنها أيضاً: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (الأعراف: 189).

وقال في تعليمه - آدم - الأسماء والبيان: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة: 31).

وقال: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ (الرحمن: 1-4).

وقال في خلقه - آدم - يديه وتسويته له، وإسجاد ملائكته له: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (ص: 71-76).

وقال في نهيه - آدم - عن الأكل من الشجرة التي أكل منها بتغريير من الشيطان فعصى وغوى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَى وَلَمْ نُجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (١٢٢) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ (طه: 115-123).

وقال تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة: 37).

وقال في بيان هذه الكلمات من سورة الأعراف: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف: 23).

وأقوال رسوله ﷺ التي تلقاها وحياً من ربه سبحانه وتعالى، فقد روى مسلمٌ في صحيحه عنه ﷺ قوله: «خَلَقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخَلَقَ الْجَانُ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخَلَقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»⁽¹⁾ يعنى ﷺ وخلق آدم من طين، كما بين ذلك في القرآن الكريم، وقال ﷺ في رواية

(1) متن مسلم (8/226).

البخارى ومسلم: «يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فيقولون: أَلَا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ؟! فَيَأْتُونَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فيقولون: أَنْتَ أَبُو الْبَشَرِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ... إلخ⁽¹⁾»... والشاهد منه في قوله ﷺ: «خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ». فلو لم يكن خلقه خلقاً مباشراً، وإنما كان كخلق سائر الناس لما كان لذكر اليد والخلق أى ميزة، أو فضيلة على خلق غيره من بنى آدم. وقال ﷺ -في رواية البخارى ومسلم وأحمد واللفظ له-: «احتج آدم وموسى فقال موسى: يا آدم أنت الذى خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه أغويت الناس وأخرجتهم من الجنة. قال: فقال آدم: وأنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه تلومنى على عمل أعمله قدره الله على قبل أن يخلق السموات والأرض بأربعين سنة! قال: قال: فحج آدم موسى⁽²⁾».

وقال ﷺ -في رواية أحمد وأبى داود والترمذى وصححها-: «إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن وبين ذلك، والخبيث والطيب وبين ذلك⁽³⁾».

وقال ﷺ -في رواية البخارى-: «خلق الله آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلكم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يحيونك؛ فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم. فقالوا: عليك السلام ورحمة الله، فزادوه ورحمة الله، فكل من يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن⁽⁴⁾».

وقال ﷺ -في رواية مسلم-: «خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها، ولا تقوم الساعة إلا فى يوم الجمعة⁽⁵⁾».

وبعد: فهذه الأقوال الإلهية، والأحاديث النبوية كلها قاضية بخلق آدم عليه السلام خلقاً مباشراً. خلقه الله تعالى بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه الأسماء كلها، وجعل طوله ستين ذراعاً، وأسكنه جنته، ثم أخرجه منها لما أكل من الشجرة فعصى وغوى، وأهبطه إلى الأرض هو وزوجه حواء التى خلقها الله منه بالأمر الإلهي، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون.

(1) اللؤلؤ والمرجان (1/ 49 / 50).

(2) اللؤلؤ والمرجان (3/ 311)، مسلم (8/ 49)، وكذا أبو داود (2/ 528)، والفتح الرباني (1/ 127)، وألفاظهم متقاربة.

(3) أبو داود (2/ 525)، والترمذى فى تفسير سورة البقرة، وأحمد فى (5/ 338).

(4) البخارى (8/ 62)، وعلى صورته أى على صورة آدم التى خلقه بها كما فى آخر الحديث.

(5) مسلم (3/ 6).

ومن آدم وحواء وبطريق التناسل والخلق التدريجي خلق الله ذريته في كمالهم وجمالهم فصحاء عُقلاء سادة في الأرض، قد سخر الله لهم كل ما فيها ليتفعلوا به في حياتهم الدنيا، وبعث فيهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب تكميلاً لأدميتهم وإسعاداً لهم في حياتهم، وإعداداً لهم بواسطة تركية نفوسهم، وتطهير أرواحهم للسعادة الأخروية في الملكوت الأعلى بعد موتهم وانقضاء آجالهم.

هذا هو الإنسان المكرم في معتقد المؤمنين أجمعين. وأما الإنسان في معتقد الملحدين الكافرين فهو متحول عن خلية هبطت من بعض الكواكب إلى الأرض ثم نمت فيها، فكانت حيواناً رديئاً في أبسط شكل، ثم تغيرت الأرض بفعل بعض المؤثرات الطبيعية، فاضطر هذا الحيوان المخلوق لتغيير شكل معيشتة، فتبع ذلك تغير في صفاته، ثم استحال مع طول الزمن وكثرة المؤثرات (1) المختلفة إلى أحوال فارق فيها جنسه الأول، ثم ارتقى إلى قرد على مبدأ النشوء والارتقاء الذي فتنوا به، ثم مرت عليه ملايين السنين فارتقى إلى حيوان آخر، هو بين القرد والإنسان بواسطة بينهما، ثم انقرض هذا الحيوان بواسطة بدليل عدم العثور عليه في آثار الأحياء. ولعل انقراضه كان على مبدأ الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح - كما يقولون - ومن ذلك الحيوان الواسطة المفقود ارتقى الإنسان إلى ما هو عليه الآن !!

وبنوا معتقدهم هذا في خلق الإنسان، وأنه متحول من القرد، على أساس مجموعة نظريات هي الانتخاب الطبيعي، والبقاء للأصلح، والنشوء والارتقاء، والمطابقة، وعامل الوراثة. وهي في الجملة نظريات صحيحة معلومة بالحس، وهي سنن الله تعالى في الخلق والتكوين لكثير من المخلوقات، فالإنسان ابن آدم يوجد أولاً خلية في نطفة الرجل وماء المرأة، ثم يكون حيواناً منوياً ذكراً أو أنثى، ثم يتلاقح كما هي سنة الله تعالى في اللقاح، ثم يتدرج خلقه من حال إلى حال إلى أن يتم خلقه فيصير بشراً سوياً كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿ (المؤمنون: 13-14).

وكما صح به قول الرسول ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا نُطْفَةً، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَأْتِي إِلَيْهِ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، ثُمَّ يَوْمَرُ بِكُتُبٍ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ: رِزْقُهُ، وَأَجَلُهُ، وَعَمَلُهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ» (2)، وقد سئل رسول الله ﷺ: «بم

(1) لا غرابة في هذا التصور المضحك المزرى، لأنه البديل لهم عن الإيمان بخلق الله تعالى للإنسان، إذ إنهم لو آمنوا بأن الله تعالى خلق آدم خلقاً مباشراً كما ذكر تعالى، لآمنوا بالله وعبدوه، وهم لا يريدون ذلك، فلذا هم مضطرون إلى هذا الافتراء والهراء والتلفيق أعماهم الله ولعنهم.

(2) أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود مطولاً، راجع للؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (3/ 207 - 208)، طبعة عيسى الحلبي وشركاه.

يكون الشبه في الولد؟ فقال: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد له وإذا سبق ماء المرأة نزع الولد» رواه البخاري⁽¹⁾. وهو إشارة إلى عامل الوراثة.

وعجمة التمر تلقى في الأرض نواة لا حياة فيها، ثم تنفلق عن غصن أخضر. ثم يتدرج خلقها حتى تصبح نخلةً باسقةً لها طلع نضيد رزقاً للعباد. وبالجملة فسنن الله تعالى في الخلق التدريجي في الإنسان والحيوان والنبات ثابتة لا تنكر، وسنته تعالى في انتقال صفات الأصل إلى فرعه ثابتة كذلك، وسنته تعالى في البقاء للأصلح ظاهرة في كثير من الكائنات، ولكن هذه السنن هي من خلق الله وتقديره، وهي خاضعة لإرادته ومشيئته؛ ولذا يخرقها بالمعجزات التي يعطيها لأنبيائه تدليلاً على صدق ما ادعوه من أنهم أنبياءه ورسله، فخلق عيسى عليه السلام كان على خلاف سنة الخلق المعروف في سائر بني آدم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: 59).

وتكلم عيسى في المهد في أسبوع ولادته كان على خلاف سنة الله تعالى في نطق الإنسان الذي لا يتم إلا بعد قطع الطفل مرحلة من حياته. وسلامة إبراهيم من إحراق النار لما يلقي فيها من أجسام قابلة للاحتراق، وأمثلة إبطال الله تعالى لسنته في خلقه متى شاء ذلك كثيرة. والمقصود من هذا: أن ما يسميه الملاحدة بالقوانين الطبيعية ويتخذون منه دليلاً على كفرهم بالله تعالى، ما هو في الواقع إلا سنن الله تعالى التي أودعها في الكون. يوجد بها ويخلق ما يشاء إيجاده وخلقها، وهي خاضعة لله تعالى، متى شاء أمضاها، ثابتة لا تتغير، ولا تتبدل كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: 43). ومتى شاء أوقفها وأبطلها لحكمة منه اقتضت ذلك، وهو العزيز الحكيم.

بيد أن خلق آدم وحواء عليهما السلام كان بالخلق المباشر، ولم يكن أبداً كما تخيل الملاحدة، وتصوروا، لأخبار الله تعالى وأخبار رسله التي يستحيل فيها الكذب، هذا وقد ناقش العلماء المؤمنون هذه النظرية الدارونية التي أصبحت مذهب الملاحدة ومعتقدهم، وأبطلوها نهائياً بنفس المقاييس والنظريات الطبيعية التي أثبتتها الدارونيون بها.

وهذه بعض الاعتراضات التي عورضت بها النظرية الدارونية وأبطلتها:

1 - إذا كانت نظرية النشوء والارتقاء مطردة في كل شيء، فعن أي شيء ترقى الأنعام التي

(1) (في 5/ 88، 4/ 10) متن مسلم بلفظ: (إذا علا ماؤها ماء الرجل شبه الولد أخواله، وإذا علا ماء الرجل ماءها شبه أعمامه) (1/ 173)، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.

هى الإبل والبقر والغنم؟⁽¹⁾، وعن أى شىء ترقى البهائم ذات القوائم الأربع: الخيل والبغال والحمير، والأسد والنمر والفيل والذئب والكلب.

2 - ومضت القرون الطويلة على هذه الحيوانات ولم تترق إلى ما هو أكمل منها؛ إذ الكمال لا حد له، فبقى الفرس فرساً والكلب كلباً، والأسد أسداً، والذئب ذئباً؟ والإنسان إنساناً، منتهياً كل منها إلى ما هو عليه الآن، ومنذ قرون طويلة؟؟؟

3 - لم يبق القرد الأول، وانقرض الحيوان الواسطة الذى ترقى من القرد؟ فلو كانت نظرية البقاء للأصلح، والانتخاب الطبيعى مطردة لانقرض القرد الأول وبقى الحيوان الواسطة الذى ترقى عن الأول؛ لأنه أكمل منه وأصلح، والبقاء للأصلح؟؟ فلم هنا كان البقاء لغير الأصلح. ولم أساء الانتخاب الطبيعى هنا فانتخب الناقص فأبقاه، ولم ينتخب الكامل فأرداه؟

4 - إن مذهبكم المادى قائم على أساس نكران القياس والنظر والاستدلال. فلم تؤمنوا بغير المرئى المحسوس، فلم خالفتموه هنا، وقلتم بالنظر والقياس والاستدلال؛ لأنكم ما شهدتم الخلية الأولى التى زعمتم أنها نزلت من بعض الكواكب. كما أنكم لم تشاهدوا المؤثرات الطبيعية التى زعمتم أنها اقتضت من الحيوان الأول أن يغير أسلوب معيشته حتى ترقى تبعاً لذلك، كما أنكم لم تشاهدوا الحيوان الواسطة وقلتم بمجرد النظر والقياس، وبذلك نقضتم مذهبكم المادى، وخرجتم عنه، فثبت عجزكم، وبطل معتقذك فى النظرية الدارونية التى قال عنها أحد العلماء المؤمنين: «إنها نظرية أبوها الكفر وأمها القذارة...»⁽²⁾.

وأخيراً فقد اعترف كبار أصحاب النظرية الدارونية بعجزهم، وقالوا بالحرف الواحد: إن نظرية النشوء والارتقاء ليست ثابتة علمياً، ولا سبيل إلى إثباتها بالبرهان أبداً، وإنما آمنة بها؛ لأنها البديل الوحيد عن الإيمان بالله !.

وبهذا افتضحت اللعبة، واكتشفت الجريمة، والحمد لله.

(1) يقول الله تعالى من سورة الزمر: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ إلى آية (6) فلننظر كيف عبر تعالى عن خلق الأنعام بلفظ الإنزال ولم يعبر بلفظ الإخراج كما قال فى الثمار: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ من سورة البقرة (22).

(2) قصة الإيمان (193) من فصل: بين دارون والجسر.

(مقارنة)

ولنختم الحديث عن الإنسان بالمقارنة التالية، ليتجلى الفرق بين الإنسان عند المؤمنين، والإنسان عند الملاحدة الداروينيين، فنقول:

الإنسان عند المؤمنين:

خلق في السماء خلقاً مباشراً مستقلاً، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأسجد له ملائكة السماء، خلقه في أحسن تقويم، وخصه بالتكريم بين العالمين. حرم دمه وماله وعرضه إلا بحق، أرسل إليه الرسل، وأنزل عليه الكتب؛ فهيأه بذلك للكمال، وأعد له سعادة الحال والمآل. أخبر عن خلقه وتكوينه وكرامته ومآله وخالقه وأنبيائه الذين أرسلوا إليه.

الإنسان عند الملحدين:

خلق بواسطة النشوء والارتقاء في أقبح صورة، ثم تدرج في ملايين السنين إلى أن أصبح قرداً، ثم ترقى إلى حيوان أرقى من القرد في ملايين أخرى من السنين. أخبر عن خلقه ونشوءه وتكوينه كبار الملاحدة، وشرار الناس، وأكثرهم فساداً وفجوراً، مآله الهلاك والدمار، فلا خلود له ولا بقاء. والآن يا معشر العقلاء، فأى الإنسانين أحق بالتكريم، وأى الإنسانين يجب أن يعترف به الناس أجمعون، إنسان المؤمنين أم إنسان الملاحدة (الداروينيين)؟! إنه من المسخ في العقول، والشذوذ في الفهوم، والانحراف في الفطر: القول بنظرية (الداروينيين) في الإنسان، إنها نظرية فاسدة خبيثة أبوها الكفر وأمها القذارة⁽¹⁾.



(1) نفس المرجع في ص (21).

العقيدة

ما هي العقيدة ؟

العقيدة هي: مجموعة من قضايا الحقِّ البديهية المسلَّمة بالعقل، والسمع، والفطرة، يُعقدُ عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره جازماً بصحتها، قاطعاً بوجودها وثبوتها، لا يرى خلافها أنه يصح أو يكون أبداً.

وذلك كاعتقاد الإنسان بوجود خالقه، وعلمه به، وقدرته عليه، ولقائه به بعد موته ونهاية حياته، ومجازاته إياه على كسبه الاختياري، وعلمه غير الاضطراري. وكاعتقاده بوجوب طاعته فيما بلغه من أوامره ونواهيه من طريق كتبه ورسله طاعة تزكو بها نفسه، وتهذب بها مشاعره، وتكمل بها أخلاقه، وتنظم بها علاقته بين الخلق والحياة.

وكاعتقاده بغنى ربِّه تعالى، وافتقاره هو إليه، وفي كلِّ شأنه حتى في أنفاسه التي يرددها، فباللَّه تعالى حياته، وعليه وحده توكله واعتماده، إذ هو مَحْطُّ رجائه إذا طمع، ومَأْمَنُ خوفه إذا خاف، بحبه يُحبُّ، وببغضه يُبغض.

هو مولاه الذي لا مولى له غيره، ومعبوده الذي لا معبودَ له سواه، لا يرى ربوبيةَ غيره، ولا يعتقد ألوهيةَ سواه.



حاجة الإنسان إلى العقيدة

دعوى استغناء الإنسان عن العقيدة دعوى باطلة، يكذبها الواقع، ويبطلها تاريخ البشرية الطويل؛ إذ واقع البشرية شاهد على أن الإنسان حيثما كان، وفي أى ظرف وُجد؛ وعلى اختلاف أحواله، وتباين ظروفه لا يخلو من عقيدة أبداً، وسواء كانت تلك العقيدة حقاً أو باطلاً، صحيحة أو فاسدة حتى أولئك الذين يدعون اليوم أن العلم قد أغنى عن العقيدة وعن التدين، وأن الإنسان فى عصر الذرة، وغزو الفضاء لم يصبح فى حاجة إلى الإيمان بالله تعالى، وبالغوا فى الكفر والإنكار حتى قالوا: إن الإله لم يخلق الإنسان، وإنما الإنسان هو الذى خلق الإله⁽¹⁾، وهم يريدون بذلك أن الإنسان فى الظروف الصعبة التى كان يعيشها، والمخاوف تتنابه من كل ما حوله من مظاهر الكون؛ إذ هو يخاف المرض، ويخاف الفقر، ويخاف الرعد والبرق، والفيضان والسيول، والعواصف والزلازل، وحتى الحيوانات، اضطر لأجل ذلك إلى الإيمان بقوة غيبية ذات قدرة لا تعجز، وسلطان لا يُغلب ولا يقهر، سماها إلهاً يفرع إليه عند الشدائد، ويتقرب إليه بالعبادات ليدفع عنه الشرور، ويقيه من المهالك، لهذا قالوا: إن الإنسان هو الذى خلق الإله، وليس الإله هو الذى خلق الإنسان، وهو قول مضحك، وجهل فاضح، وكفر صريح، وكذب ممقوت، ومغالطة مكشوفة، وسخف عقول لا حد له !!!!

وتحرير هذه القضية الفاسدة: هو أنهم إن كانوا يعنون بالإله الذى خلقه هو إله الوثنيين الذين اتخذوا أصناماً آلهة، نحتوها بأيديهم، وعبدوها بأهوائهم، فنعم. هذه الآلهة خلقها الإنسان، وليست هى التى خلقت الإنسان. وأما إن كانوا يعنون بالإله الذى خلق الإنسان، الله الذى خلق السموات والأرض وما فيها، وما بينهما، وخلق الإنسان، وكرمه فأنزل عليه كتبه، وبعث إليه رسله، وعرفه بنفسه، وبشرائعه التى بها يتم كماله، وتحقق سعادته، فقولهم مغالطة، وجهل، وسخف، وكذب؛ إذ الإنسان لم يخلق حتى نفسه فضلاً عن أن يخلق غيره، فكيف بالله خالق كل شئ وربّه ومليكه. سبحان الله وتعالى عما يصفون.

(1) هذه العبارة القذرة من قاموس الشيوعية الماركسية عدوة الإنسان.

إن ادعاءهم استغناء الإنسان اليوم عن الإيمان بالله تعالى، لأنه عرف الطبيعة، واكتشف أسرار الكون، فما أصبح يخاف المرض، ولا الفقر، ولا الفيضانات، ولا الزلازل، والجوائح، ولا العاهات، ادعاءً باطل لا وزن له، ولا قيمة أبداً⁽¹⁾؛ إذ الإنسان ما زال يخاف من كل هذه، وجميع وسائله التي يملكها ليدفع بها عن نفسه لم تؤمَّنه بعد، ولن تؤمَّنه أبداً، وكيف؟ والآلام التي يعانها الإنسان اليوم جسمانياً تزداد يوماً بعد يوم، وفي كل أنحاء الوجود البشري، فوباء الكوليرا، وأمراض السرطان، والبرص، والصرع، وغيرها ما زالت تفتك بالآلاف من الناس، وفي كل سنة، والمجاعات تهدد مناطق شاسعة من العالم، والفيضانات تجرف كل سنة القرى العديدة، وتقتل وتشرد الآلاف من الناس، والزلازل من الحين إلى الحين يدمر المدن والقرى، ويودي بحياة الآلاف من البشر، ولم يستطع الإنسان الكافر بالله، والذي يدعى أنه خلق الإله، لم يستطع أن ينجو من هذه الولايات فضلاً عن أن يضع لها حداً، أو يوقف وجودها. بل ازدادت مصائب الإنسان ومحنته، وعظم الخطب واشتد عليه لما كفر بربه، ودينه، فأصبح في تمزُّق شخصي، وهبوط نفسي، وسقوط خلقى كاد يفقد معها طعم حياته ولذة وجوده، لقد غاض ماء الحياة من وجهه فأصبح صفيقاً، عريداً، فاحشياً، متفحشاً، وغار معين الكرامة الآدمية فيه فصار لا غيرة له ولا شهامة ولا كرامة، ولا مروءة. ألف الكذب، والغدر، والخيانة، وتعود الجريمة ومرد⁽²⁾ على النفاق، والتضليل، والخداع فساءت المجتمعات البشرية وهبطت فيه الحياة إلى أبعد حدود الهبوط والسقوط، حتى صاح العقلاء منددين بالكفر والإلحاد، مطالبين بالرجعة إلى الدين والإيمان، بل حتى كبار الملاحدة قد نكسوا على رؤوسهم، وقالوا في وضوح: لا غنى عن الدين، وطالبوا علماء النفس والاجتماع بأن يضعوا لهم ديناً، ولكن بدون الإيمان بالله، وذلك لأن الله يأمر بالعدل، والإحسان، وإيتاء ذى القربى، وينهى عن الفحشاء، والمنكر، والبغى⁽³⁾، وهم لا يريدون عدلاً، ولا معروفاً، ولا إحساناً، كما لا يريدون أن يتخلوا

(1) ادعاء باطل خبر إن الموجود فى أول الكلام وما بينهما اعتراض فلينتبه له.

(2) مرد: أى أقام عليه ولم يتب منه، ولج فيه وأبى غيره.

(3) هذا مقتبس من الآية (90) فى سورة النحل.

عن الظلم، ولا عن الفحش، والمنكر. ولذا فهم يريدون ديناً صناعياً يهذب نفس الإنسان، ويكمل أخلاقه، وبدون ذكر الله فيه، ولا ذكر أمره تعالى أو نهيه: وهيئات هيهات أن ينفع دين صناعي في تقويم الأخلاق، وإصلاح النفوس، وتهذيب المشاعر، وتطهير الأرواح، إن القوم مغرورون، مخدوعون، جهال، ضالون، مضللون، لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم.

والقصد من إيراد هذا الذي ذكرناه، هو تقرير حقيقة علمية ثابتة بكل القوانين العقلية، والشرعية، وهي أن الإنسان دائماً في حاجة إلى الإيمان، والتدين، والعقيدة، وأن الدين ضرورة من ضرورات حياته، وحاجة من حاجات نفسه، فلا غنى له عن الإيمان بربه، وعن عبادته بحال من الأحوال. ومن هنا لم تخلُ أمة وجدت على وجه الأرض ومنذ عهد الإنسان بالحياة من عقيدة ودين⁽¹⁾، ومصدق ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

والمراد من النذير نبي، أو رسول، أو عالم وارث لعلم النبوة ينذر تلك الأمة عاقبة الكفر بالله وبكتبه، ورسله، وشرائعه، ويحذرها من نتائج الشرك بربها، والمعصية له، ولرسله وما يتبع ذلك من انحراف السلوك بالظلم والشر والفساد.



(1) قال بازمالك المؤرخ الإغريقي مقرر الحقيقة التي قررناها وذكرها القرآن الكريم، قال: قد وجدت في التاريخ مدن بلا حصون ولا قصور وبلا سدود ولا قناطر، ولكن لم توجد مدن بلا معابد.

وجه ضرورة الدين للإنسان

الإنسان منذ أن وُجد على هذه الأرض بهبوط أبيه الأول آدم، وأمه حواء عليهما السلام من الجنة دار السلام، وهو في حاجة ماسة وملحة أيضاً إلى قوانين ضابطة تعدّل من غرائزه، وتنظم سلوكه، وتحدّد اتجاهاته، وتهيئته للكمال الذي خلق مستعداً له في كلاً من حياته: الأولى هذه التي يقضيها قصيرة على هذه الأرض، والثانية التي تتم له في عالم غير هذا العالم الأرضي الهابط، وإنما في عالم الطهر والصفاء، في الملكوت الأعلى كما أخبر بذلك ربّه بواسطة كتبه التي أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم.

غير أن تلك القوانين المطلوبة لتعديل غرائزه، وتنظيم سلوكه، وتحديد اتجاهاته في الحياة، لا توجد - وهيئات هياكل أن توجد في تشريع غير رباني، أو سماوي لا دخل لأهل الأرض في وضعه وشرعه، إذ لا يُعرّف الإنسان بعواطفه وأشواقه، ولواعج نفسه، وبأفكاره، وآماله، ومتطلعاته، ولا يقوى على توفيقه مطلوبه من ذلك كله إلا الله خالقه. فهو - إذاً - وحده الذي يحق له أن يضع له من القوانين، والشرائع، والأديان ما يكمله به ويعدّه للكمال والسعادة الأبدية الخالدة.

ولذا كان الدين ضرورياً للإنسان بوضعه الخاص يأكل ويشرب، ويتوقّى الحرّ والبرد، وعليه أن يعمل لإعداد ذلك لنفسه فيوجد بالسنن التي وضعها ربّه طعامه وشرابه، ولباسه، ودواءه، وسكنه ومركوبه. وهذه حال تدعو إلى تعاون أفراده لتوفير ما به تقوم حياتهم، وتستمرّ إلى نهاية أجلها المسمّى.

والإنسان بفطرته يشعرُ بضعفه، وحاجته إلى ربه في إعانته وتوقيفه ورعايته وحفظه، ولذا فهو يطلب التعرف إلى ربه، والتعرف إليه بما يحب من أنواع القرب وضروب الطاعات والعبادات.

والإنسان بمواهبه، وأفكاره، ومشاعره، وأحاسيسه، يطلب دائماً المزيد من السموّ والرفعة في ذلك، حتى لا يريد أن يقف عند حدّ أبداً، فهو إذاً في أحواله الثلاثة التي ذكرنا مفتقرٌ إلى تشريع ديني إلهي يلائم فطرته، وينظم له علاقته فيما بينه وبين أفراد الذين لا يستغنى عن التعاون معهم لتوفير أسباب حياته. وبقائها صالحة في هذا الوجود من مطعم،

ومشرب، وملبس، ومسكن، ومركب، ويمده بعلوم ومعارف عن ربه ولقائه، وعن كيفية عبادته ودعائه، وذكره والتقرب إليه بفعل طاعته، وإتيان محابه، وترك مكارهه، واجتناب مساخطه، كما يمدّه بفيض علمي كامل عن الحياة والكون يعرف به حقيقة الوجود، وعلة الكون والحياة، وأسباب السمو والكمال، والهبوط والنقصان التي تطرأ له في حياته الأولى والآخرة .

وبناءً على كل ما تقدم، فضرورة الإنسان إلى دين إلهي صحيح أشد من ضرورته إلى العناصر الأولية لحفظ حياته من ماء، وغذاء، وهواء، ولا يُنكر هذه الحقيقة، أو يجادل فيها إلا معاند مكابر، لا يؤبه لعناده، ولا يلتفت إلى جداله.

كما أن دعوى العقل في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان إلى ما يصلحه ويسعده، دعوى باطلة ساقطة لا وزن لها ولا واقع، وذلك لأننا رأينا الكثير من الأمم والشعوب لما فقدت هداية الوحي الإلهي لم تُغن عنها هداية العقول شيئاً، فضلت وهلكت، ومما قاله القرآن في هذا الموضوع قوله تعالى من سورة الأحقاف: ﴿وَلَقَدْ مَكَنَّاكُمْ فِيْمَا إِن مَكَنَّاكُمْ فِيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (الأحقاف: 26).

وذلك لأن العقول لا تهدي إلى معرفة كل ما ينفع الإنسان في حياته ليأخذ به. ولا إلى معرفة كل ما يضر الإنسان في حياته كليهما ليتجنبه. وينجو مما يضره إلا في ضوء الشرع الإلهي. ونور وحيه؛ لأن العقول لا تعدو كونها آلة إدراك كحاسة العين التي هي آلة إبصار. والعين قطعاً لا تبصر مهما كانت سليمة وقوية إلا في الضوء والنور، ولا يمكنها أن ترى وتبصر في الظلام أبداً. وفي أي حال من الأحوال العقل مثل العين سواء بسواء. كما أن العين لا تبصر إلا في الضوء والنور، فإن العقل لا يدرك إلا على ضوء الشرع الإلهي ونور وحيه تعالى إلى أنبيائه ورسله. ومن رأى غير هذا فإنه يغالط نفسه ويكابر في شيء من الخطأ ومن الضلال المكابرة فيه؛ لكونه من المحسوس المشاهد.

كما أن دعوى الاكتفاء بالعلم عن الوحي الإلهي الذي تمثله الشرائع الإلهية الصحيحة، السليمة من التحريف، والزيادة، والنقص، والتبديل - كالدين الإسلامى مثلاً - دعوى باطلة قطعاً، ومن وجهين أيضاً:

الأول: أن ما عند الناس من بعض العلوم، والمعارف فى الفنون والأخلاق، والآداب إنما هو - بدون شك - مأخوذ من الوحي الإلهي، إما بالنص اللفظي، أو بالاستنباط. وإنما نسب إلى بعض الأشخاص مغالطة وتضليل لا غير.

والثاني: أن العلم المادى مقصور على نفع الإنسان فى الجانب المادى منه، وهو الجسم ومتطلباته. وأما الجانب الروحى - وهو الأهم قطعاً - فإن العلم المادى لم يخدمه فى شيء، ولم يقدم له أى نفع البتة؛ لأنه لم يكن روحياً مجانساً للروح فيقدم له ما هو فى حاجة إليه.

إن العلوم الإنسانية الخالية من الوحي الإلهي لم تعد الكشف عن بعض الظواهر الكونية المادية فقط. ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (الروم: 7).

فكيف إذاً تستطيع أن تقدم أى خدمة للروح، وهى لم تكسر حجاب المادة بعد، ولم تعرف أى سر عن حقائق الكون وعلله.

وقد اعترف علماؤها بالعجز الكامل عن معرفة العلل والأسرار لأية ظاهرة من ظواهر الكون فقالوا: اسألونا بكيف، لا بماذا؟ يعنون قولوا لنا: كيف وقع الشيء الفلانى؟ فإننا نجيبكم. أما لماذا وقع؟ فإننا لا نعرف الإجابة عنه، ولا نملكها أبداً؛ وذلك لحرمانهم من علوم الوحي الإلهي.

وشىء آخر، أليست العلوم المادية قد بلغت الذروة فى الكمال بعد أن قطعت شوطاً بعيداً فى التطور والشمول فى كل المجالات، ومع هذا الكمال فإن البشرية فى شقاء دائم، ولم تخط يوماً خطوة إلا إلى شقاء آخر أكبر، والواقع يشهد. وكفى به شهيداً؟ ولذا فإنه لا مناص من الاعتراف بالحقيقة والتسليم بها. وهى أن الدين الحق ضرورى للإنسان، لا غنى له عنه بحال من الأحوال. وأن كمال الإنسان وسعادته متوقفان عليه توقف المعلول على علته. والمسبب على سببه.

وليعلم أخيراً، أن الدين الذى نعى ضرورته للإنسان - لتوقف سعادته وكماله عليه فى الدنيا والآخرة - إنما هو الدين الحق الصحيح، الدين الذى شرعه الله، وصحت نسبته إليه تعالى. أما الأديان الباطلة المفتراة كالبودية، والمجوسية، والمحرقة المبدلة كاليهودية، والنصرانية فإنها وإن سُميت أدياناً فإنها خالية من الوحي الإلهى الذى يمثل فيها شرعاً إلهياً متكاملًا يقدم للإنسان كل ما يحتاج إليه لإصلاح جسمه، وروحه، وإسعادهما فى الدنيا، والآخرة. والدليل الواضح لذلك أن أوروبا المتدنية بالنصرانية لم تتقدم حضارياً إلا بعد التمرد والكفر بالدين الذى كانت تعيش عليه زمنًا طويلاً وهو يكبلها ويقيدها. حتى قام رجال منها، وحاربوه، وخرجوا عن قيوده، وكفروا بشرائعه. وبذلك تم لهم الانعتاق من الضلال، والانطلاق من الباطل.

وإن بحثت البشرية الراشدة العاقلة عن دين إلهى صحيح سليم، فإنها واجدته قطعاً وبدون شك فى الإسلام دين البشرية العام، الذى تضمنه كتابه القرآن الكريم، الذى لم ينقص منه حرف منذ أن نزل، ولم يزد فيه آخر. ولم تحرف فيه كلمة عن موضعها منه. ولم تخرج عبارة عن مدلولها قط، بالرغم من مرور ألف وأربعمائة سنة عليه تقريباً.

إن الدين الإسلامى هو الدين الكفيل بإنقاذ البشرية اليوم، والخروج بها من محنتها. محنة المادية العاتية، التى سلبتها - أو كادت - كل معانى آدمية الكريمة، والإنسانية الفاضلة حتى صيرت الإنسان آلة لا فهم لها ولا ذوق، ولا تقدير لها ولا احترام. ..

فإلى الإسلام يا عقلاء الناس؛ فإنه الدواء لدائكم، والهداية لكم من ضلالاتكم؛ فأقبلوا عليه عقيدة، وحكماً ونظاماً، فإنه ينجيكم ويسعدكم.

جربوا، فإن التجربة أكبر برهان !!



الركن الأول من أركان عقيدة المؤمن :

الإيمان بالله رب العالمين

إن المسلك السهل - والسليم في آن واحد - للبحث عن الإيمان بالله تعالى أى عن وجوده تعالى، والتصديق به عز وجل رباً وإلهاً، هو مسلك احترام العقل البشرى، وقبول أحكامه التى يصدرها على الأشياء نفيّاً أو إثباتاً، وجوداً أو عدماً، ومن ذلك: حكمه الواضح الصريح بوجود البارى عز وجل، وبوجوب معرفته وطاعته، والتقرب إليه، والأخذ بهدأيته، والسير فى طريق أوليائه من صالحى عباده.

ولنستمع إليه - العقل - وهو يُورد أدلته، ويقدم شواهد، ويُظهر بيانه، ليصدر بعد ذلك حكمه النهائى فى قضية الإيمان بالله تعالى، وأسمائه وصفاته، ووجوب طاعته وعبادته، والأخذ بهداية وحيه، واتباع شرعه: إنه يقول بمنطقه السليم: إن السماء التى تظلنا، ونشاهدها بحواسنا، ونراها بأم أعيننا، ولا نستطيع عدّها لكثرتها، ولا حدّها لبعدها وعلوها. هذه السماء يقول - العقل -: إنها موجودة فعلاً، ولا سبيل إلى إنكارها بحال من الأحوال، فمن أوجدها؟؟

ويقول: هذه الأرض التى نعيش عليها وهى موجودة فعلاً، ولا معنى لإنكارها أبداً، فمن أوجدها؟؟

ويقول: هذه الكائنات الحية على تباينها، واختلاف أنواعها، من أرقاها وهو الإنسان، إلى أدناها: كالنحلة، والنملة، والعنكبوت، وهى موجودة فعلاً، لها غرائزها، ومداركها الخاصة، وأنظمة حياتها، وطرق معاشها، وحفظ أنواعها إلى آجالها، ولا مجال لإنكار ذلك بحال، فمن أوجدها؟ ومن وهبها حياتها؟ ومن خلق لها أرزاقها، وهداها إلى طلبها، والحصول عليها، والانتفاع بها فى حفظ نوعها واستمرار وجودها؟ إن العقل يقول: ابحثوا عن الموجد، عن الخالق، عن الرزاق، عن المدبر، عن المنظم، عن المسخر، عن خالق الكون، عن واهب الحياة لكل ذى حياة، وعن سالب الحياة من كل من وهبت له، ومتع بها مدة حياته الموقوتة، وفترة عمره المحدود.

ابحثوا، واطلبوا، واستقصوا فى البحث والطلب، واعلموا أنه لا يوجد شىء موجود أو جدّ نفسه بنفسه، ولا كائن كوّن نفسه فى هذه العوالم الموجودة، والكائنات المشاهدة المحسوسة أبداً.

ابحثوا عن خالق، رازق، مدبر، ذى إرادة، وحكمة، وعلم، وقدرة، يخلق، ويرزق، بعلم وقدرة، ويبدع، وينظم، ويدبر بإرادة وحكمة. ابحثوا عنه، ولا تستهينوا بالعقل أو تزدروه، وأنتم تعلمون أن أحدكم إذا فقدّه أصبح مجنوناً، مختل التفكير والتقدير، مسلوب الإرادة والتدبير، يَهْرُفُ بما لا يعرف، ويرمى إلى ما لا يهدف، فتقولوا: إن الموجودات أوجدت نفسها بنفسها، أو

تقولوا: إنها وجدت بدون مُوجد، فإن ذلك مُزِرُّ بكم، مخل بكرامتكم، خارج بكم عن دائرة العقلاء من بنى الناس أجمعين، لأنَّ العقول كلها مطبقة مجمعة على أن الشيء لا يوجد نفسه، كما أنه لا يوجد بغير مُوجد ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: 35). إنكم تقولون أن جميع الكائنات التي تخضع للحس والمشاهدة مادة، والمادة ميتة قطعاً، والميت لا يخلق الحي، وكيف يهب الحياة من هو ميت؟!

وزيادة في التثبيت من هذه الحقيقة - وهى أن الشيء يستحيل أن يخلق نفسه، وأن كل موجود لا بد له من مُوجد - نقول: إنه لما لم نجد للكائنات مُوجداً لها من نفسها اضطررنا إلى الإيمان بوجود إله قوى، قادر، ذى إرادة، وعلم وحكمة، وهو الله الذى أخبرنا بواسطة كتبه التى أنزلها، وأنبيائه الذين أرسلهم أنه رب كل شيء، وخالق كل شيء، وأنه هو بديع السموات والأرض، ومدبر الأمر فيهما، له وحده الخلق والأمر، وهو على كل شيء قدير. وزيادة في التثبيت والتقرير، نهبط إلى عالمنا الأرضى هذا، وننظر إلى الأشياء الموجودة فيه وهى لا تُعدُّ كثرة، هل نجد بينها من يخلق نفسه بنفسه، أو يخلق غيره.

فها هى ذى النباتات على كثرتها، واختلاف أجناسها، وتنوع أفرادها لا تخرج عن سنة وجودها التى سنت لها، واطردت فيها، وهى وجود تربة صالحة، وماء كاف لسقيها، ومناخ طيب صالح للحياة والنماء فيه مع تقدم وجود البذرة الحية بالقوة المكفورة - المغطاة - بالتربة الملائمة لإنباتها، إنَّ النباتات بهذا هى مفتقرة إلى عناصر شتى، وهى البذرة، والتربة، والهواء، والماء، لم تكن لتوجد النباتات لنفسها، فكيف يصح إذاً أن يقال: إنها خلقت نفسها بنفسها، اللهم إنه لا يقول بهذا إلا مجنون أو مغرور يجاحد ويعاند!

وها هى ذى الحيوانات على اختلافها، وكثرة أفرادها، من أرقاها وجوداً وحياة، إلى أهبطها حياةً ووجوداً، لا يوجد بينها حيوان واحد يخلق نفسه بنفسه. وإنما جميعها وكل واحد منها تبعاً لسنة الخلق فيه، والمطرودة فى كل أفرادها، وهى بالنسبة إلى الإنسان الذى هو أرقاها وأفضلها، وجود نطفة من أبوين ذكر وأنثى، واستقرارها فى الرحم المعدة لها، وتطور تلك النطفة من حال إلى حال إلى أن يتم الخلق، ويخرج الإنسان طفلاً صغيراً، ثم ينمو حسب النمو فيه إلى أن يبلغ أشده، فيكتهل ويهرم ويموت، وهو فى كل ذلك الخلق والتطور والنماء والكمال والنقصان والموت والفناء: لا يملك من أمره شيئاً.

فهل يُعقل أن يقال: إن الإنسان خلق نفسه بنفسه. وإذا بطل هذا فى الإنسان، فهل يصح فيما دونه من سائر الحيوان؟ اللهم لا، وإذاً فهل يعقل أن يتم الخلق والإيجاد بدون ما خالق ولا مُوجد؟

اللهم لا، حتى ولو كان المخلوق نحلة، أو الموجود فنجان قهوة، وهل يوجد عاقل في دنيا الناس يرى موجوداً عظيماً كعمارة ضخمة، أو دون ذلك كغيف خبز، ثم ينكر أن يكون له موجود أو جده؟ ويعتذر عن إنكاره وجحوده بأنه لم يرَ موْجده ولم يشاهده، اللهم لا. وإذا، فكيف يعقل الكفر بوجود الله خالق كل شيء لمجرد أنه لم يُرَ فقط؟ مع أن هناك نفس الإنسان التي بين جنبيه، قد آمن كل إنسان بوجودها ولم يرها إنسان قط، وهناك العقل البشري لم ينكره أو يكفر به أحد قط مع أنه لم يُرَ قط. وآمن بكل من النفس والعقل لوجود آثارهما الدالة عليهما. وكم من موجودات آمن الناس بموجودها ولم يروها قط. وذلك لدلالة وجودها على موْجدها؛ إذ العقل يحيل وجود أى شيء بدون موْجد، كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: 35).

والأعجب من هذا، أن الملاحظة بمجرد معرفتهم لسنن الله تعالى في خلق بعض المخلوقات، وإيجاد بعض الموجودات طاروا فرحاً بذلك. واتخذوا منه دليلاً على عدم وجود الخالق سبحانه وتعالى. فقالوا: قد عرفنا كيف تنشأ السحب وتتكون الأمطار. وكيف يخرج الكتكوت «الفروج» من البيضة. فلا حاجة إذاً إلى الإيمان بوجود الله تعالى. وهو سخف عجيب. وحمق مُتَنَاهٍ، وإلا فمتى كانت معرفة سنن الله تعالى في خلق الأشياء وإيجادها دليلاً على عدم وجود الله؟ بل هي بالعكس دالة على وجود الله، وعلمه، وقدرته لو كانوا يعقلون !!.

إن مثلهم في هذا الكفران والنكران، كمثل من قُدِّم له طبق فيه تمر حلو، فأكل حتى شبع. ثم سأل عن صانعه. فقيل له: إنه الله. فأمن به لوجود أثر وجوده وهو صنعه. ثم قدر له أن زار بستان النخل ووقف على كيفية غرس النخل وتربيته، وتأبير طلعه. فعاد فأنكر أن يكون التمر من صنع الله تعالى؛ لأنه رأى كيف ينشأ النخل. وكيف تتم تربيته وإصلاحه حتى يثمر ثمراً حلواً. وتناسى أن الذى صنع التمر، هو الله الذى أوجد البذرة، والتراب، والماء، والهواء، وأوجد الفلاح، وأوجد له قدرة، ووهبه علماً حتى فلاح الأرض وغرس البذرة، وسقاها، ورباها، وأبرها لما أطلعت. ورعاها حتى أصبحت ثمراً حلواً.

فهذا مثل منكرى الخالق عز وجل من الملاحظة الذين أنكروا وجود الله لمجرد معرفتهم لبعض ظواهر الكون، وإذا قيل لهم: لقد عرفتم قوانين الكون، وسننه، فمن وضع تلك القوانين، ومن سنَّ تلك السنن في الكون، والتي بواسطتها يتم خلق الأشياء وإيجادها؟؟ قالوا فراراً من الإيمان بالله عز وجل حتى لا يعبدوه - قالوا: الطبيعة؛ ولو أن الطبيعة نطقت، وقالت لهم: اعبدونى، لكفروا بها، وأنكروها، كما كفروا بالله، وأنكروا وجوده، وهو يناديهم فى كتابه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 21).

ومما يدل على أنَّ الملاحظة ما كفروا بالله إلا فراراً من عبادته، والتزام شرائعه، أن الإيمان بالله تعالى خالقاً للكون، مدبراً له: ليس بأصعب ولا أبعد في الاستحالة من الإيمان بالطبيعة الميتة، العمياء، الصماء خالقاً مبدعاً، كما قال أحد علماء الكون: لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه لكان يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وينتهي الأمر إلى التسليم بوجود إله، ولكنه إله عجيب؛ لأنه غيبي ومادي في آن واحد. ثم قال: «إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه، ومدبره، ومديره، بدلاً من أن أتبنى مثل تلك الخزعبلات» يعني قول الملاحظة: إن الطبيعة، والضرورة، والصدفة هي التي أوجدت الكون، ووهبت الحياة، ووضعت السنن والقوانين؛ وهو أمر عجب، وجهل مركب، وفساد عقول لا حد له.

ولنناقش الآن كلمات: الطبيعة، والضرورة، والصدفة التي ينسب إليها الملاحظة خلق العالم وإدارته وتديره. فنقول:

ما هي الطبيعة ؟

إن الطبيعة هي: المادة، وعناصر تكوينها من البرودة، والحرارة، والرطوبة، واليبوسة، والمواد المركبة منها، وهي الذرات المكونة من النوى المشتملة كل نواة منه على بروتون، ونيوترون، وإلكترون. هل هذه العناصر من النوى، والذرة، والخصائص المشتملة عليها المادة، أوجدت نفسها، فكونت ما يُسمى بالطبيعة؟ اللهم، لا؛ إذ هو تخيله العقول، ولا تقبله أبداً. إن معنى هذا الهراء: أن الطبيعة أوجدت نفسها أولاً، ثم أوجدت غيرها من الموجودات! إن المادة المركبة من عناصرها، والمودع فيها خواصها، وطباعها مفتقرة إلى من يوجد عناصرها، ويودع فيها خواصها، وحينئذ فهي حادثة مخلوقة، فكيف يصح أن تكون إلهاً، خالقاً، يُنسب إليها الخلق، والتكوين والإبداع والتنظيم؟ سبحانه اللهم، هذا ضلال في العقول مبين.

إن العقول السليمة قد حكمت بحدوث المادة المركبة من عناصر عدة؛ إذ كل مركب حادث، وكل حادث مفتقر إلى محدث أحدثه قطعاً. كما قضى بذلك قانون العلّة المسلم به من جميع العقلاء.

إن وجود مادة، وحركة لها - وهي طاقتها - معلول، فلا بد له إذا من علة اقتضت وجوده، وهو الإله الأزلي، الذي ليس بمادة؛ إذ لو كان غير أزلي لكان مُحَدَّثاً، ولو كان مُحَدَّثاً لكان مادّة، والمادة ميتة فكيف تخلق الأحياء؟ ومن بديهاات العقول أن فاقد الشيء لا يعطيه، وسواء كان نفساً كالحياة، أو خسيساً كالموت والعدم. وبما يقضى على هذه الفرية الدجلية، التلصصية، التي اغتر بها أهل الغفلة عن ذكر الله تعالى، وتلاوة كتابه حتى أصبحت شبهة عقلية تضطرب

لها قلوبهم، وهى نسبة الخلق والإيجاد إلى المادة - أن يقال: إن الإبداع الموجود فى الكون كله علويه وسفليه، من الذرة إلى المجرة ؛ شاهدٌ حقٌ، وقاضى عدل باستحالة صدورهِ عن الطبيعة العمياء الميتة، أو عن الصدفة البعيدة عن كل حكمة، الخالية من كل إرادة، وعلم وتدبير.

ما هى الصدفة ؟

إنهم يعنون بالصدفة، أن الأشياء تم تكوينها على ما هى عليه من الجمال، والإبداع والنظام بطريق الموافقة لا بطريق القصد، والإرادة، والتدبير، بحيث لم يكن هناك قصد، ولا إرادة، ولا تدبير. وهى قضية، القولُ بها مخجلٌ، والنظرُ فيها لهوٌ وباطل.

و خلاصة هذه الأضحوكة والأعجوبة معاً: أنه بمرور الزمن الطويل الذى لا يتكلمون فيه إلا بالأرقام الهائلة كمئات الملايين تضليلاً وتدجيلاً، فيقولون مثلاً: عناصر الذرة تلاءمت وتناسبت بمرور ملايين السنين، والحياة وجدت خلية على الأرض، و بمرور ملايين السنين كانت الحياة على هذه الصورة من الجمال والكمال، وليس وراء ذلك إرادة هادفة، ولا تدبير، وإنما هى صدف وموافقات تم بواسطتها الكون والحياة، وقد أقاموا نظريتهم هذه على أساس من الافتراضات الوهمية، والقياسات الفاسدة التى لا يقبلون مثلها لو قالها غيرهم ؛ ولأنهم يدعون أنهم لا يؤمنون بغير المحسوس المشاهد غير أنهم هنا خرجوا عن مبدئهم، وقالوا بالفرض والقياس تأييداً لثرهاتهم، وأباطيلهم، وضلال عقولهم فى القول بالصدفة، وأنها علة الحياة، وأداة التكوين والإيجاد، كل ذلك هروباً من الإيمان بالله عز وجل، الذى لم ينكروه، ويكفروا به إلا تخلصاً من الطاعة والنظام.

هذا، وقد ذكر العلماء لإبطال فرية الصدفة فى الخلق والإبداع أمثلة عديدة قضوا بها على هذه النظرية الميتة العمياء، القائمة على أساس الوهم، والخيال اللاشعورى، منها قولهم: إن مثل من يقول: الإبداع الموجود وجدَ بطريق الصدفة لا غير، وليس ثمَّ من إرادة لأحد، وإنما هى الصدفة والتلقائية فقط كمثّل من يقول: إن داراً للطباعة بها صندوق من الحروف يكفى لتصنيف كتاب، فأصاب الدار هزة من زلزال عنيف، فتساقطت تلك الحروف على بعضها، فكونت بالصدفة كتاباً ذا أبواب وفصول علمية مختلفة، وفى مواضع شتى، كمثّل من يقول: إن رجلاً أعمى غرّزت له إبرة فى لوحة، وأعطى ألف إبرة، وقيل له: ارم هذه الإبرة واحدة بعد الثانية لتدخل الأولى فى ثقب الإبرة المغروزة فى اللوحة، وتدخل الثانية فى عين الإبرة الأولى، والثالثة فى عين الثانية، وهكذا بطريق الصدفة حتى تدخل كل الإبر فى بعضها بعضاً، والرجل

-كما علمنا- أعمى لا يبصر شيئاً، فهل عاقل يصدق بصحة هاتين العمليتين ؟ اللهم لا ؛ لأن هذا من قبيل المستحيل الذى لا تقبله العقول ولا تقره، وإذا فكيف يصدق أن الكون كله بما فيه من إبداع وتنظيم فى كل ذرة من ذراته، تم بطريق الصدفة والتلقائية.

اللهم إن مخلوقاً يصدق بهذه الترهات لمجنون قطعاً لا تصح نسبته إلى العقلاء، ولا يذكر فى عدادهم أبداً. وكالصدفة عند الملاحظة الضرورة.

ما هى الضرورة ؟

إن الضرورة معناها: أن التنوعات الموجودة حصلت بطريق الضرورة، فحاجة الزرافة إلى تناول غذائها من أشجار عالية هى التى جعلت عنقها يطول، وحاجة السمكة الملحة إلى السباح فى الماء هى التى أوجدت زعانفها التى تساعد على السباحة، إلى غير ذلك من الهراء والتعسف العجيب، والمنطق السقيم. وما قالوا بهذه الترهات والأباطيل إلا إمعاناً فى الهروب من مواجهة الحقيقة، وهى الإيمان بالله الصانع الحكيم، الذى لا إله إلا هو ولا رب سواه، وإلا فما يسمونه بالضرورة إنما هو العناية الإلهية بمخلوقاته، أو لم يروها فى ذات الولد وكيف تدر اللبن لمولودها بمجرد أن تضعه؟!، وفى ولدها الذى كان فى بطنها يتغذى بواسطة الأنبوب المتصل بسرته؟، ولما انفصل عنها وخرج من بطنها وحملت له الغذاء فى ضرعها، وهذى الله ذلك المولود إلى معرفة امتصاص حلقة الثدي ليتغذى باللبن إلى أن يصبح قادراً على التغذى بالحبوب والفواكه، والخضر. أو لم يروا إلى ذكور الحيوانات كيف تأتى إنثاتها مدفوعة إلى ذلك بما أودع الله فيها من غريزة إتيان الجنس لتحبل الأنثى ذات اللبن، فتوفر للإنسان لحماً، ولبناً، وجبناً، وسمناً، هو فى حاجة إلى مثلها لاستكمال غذائه الذى هو عنصر نمائه وحياته إلى أجله. أو لم يروا إلى ذبابة لقاح التين، كيف تخرج من حبتها بعد نضجها لتدخل فى التينة فتلقحها، ثم تخرج منها لتدخل فى أخرى فتلقحها، كل ذلك ليتوفر للإنسان فاكهة من ألد الفواكه، وأكثرها نفعاً له ؟ !. أو لم يروا إلى الرياح كيف تثير السحاب، وهو الضباب الناتج عن تبخر الرطوبات فى الأرض، ومياه الأنهار، والبحار، وكيف ييسط الله تعالى ذلك السحاب فى السماء على نسب ومقادير خاصة، فيتكثف فى طبقات الجو، ويصبح يحمل كميات من الماء عذبة صافية ثم يمطر حيث يأذن الله تعالى، فتحيى به الأرض بعد موتها ؛ فتخرج للإنسان غذاءه من الحبوب، والفواكه، والخضر. فليقولوا لنا: أين الضرورة فى إيجاد اللبن فى الضرع؟ وأين الضرورة فى لقاح الحيوان ؟ وأين الضرورة فى تلقيح ذباب التين لأنثاه حتى يكون التين؟ وأين الضرورة فى عملية التبخر والتكثف، وإثارة الرياح للسحب، ونزول المطر بالمقادير والكميات المحدودة، والأوقات المحدودة، وفى إنبات الأرض وخروج الثمرات المختلفة، أين وجه الضرورة فى ذلك ؟؟

إنه لا ضرورة، وإنما هي عناية الله الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى. ونختم هذا الجزء من البحث بالحجة العقلية التالية: إن النبات، والحيوان، والإنسان هذه الثلاثة سلك الماديين بحدوثها، وبأن الإنسان أحدثها عهداً بالحياة، فيقال لهم: من أحدثها؟ والجواب لا يخلو من افتراض ثلاثة حلول:

الأول: أن نقول: إن الله هو الذى أحدثها.

والثاني: أن تكون حدثت بواسطة ذرات المادة، وأجزائها، وعناصرها عن إرادة وقصد، وعناية، بمعنى أن العناصر المادية فكرت ودبرت واتفقت على صنع المخلوقات على ما هي عليه من صور وأشكال.

والثالث: أن تكون وجدت من طريق الصدفة بمعنى أن الذرات تلاقت، وتجمعت على نسب وأوضاع مخصوصة بطريق الصدفة، فتكونت هذه المخلوقات بما فيها الحيوان والإنسان.

فأى الفروض أولى بالصحة والقبول؟ أما الثانى: فالملاحظة يردونه، ولا يقولون به؛ لأنه ينسب للمادة قصداً وإرادة، وهم لا يقولون بالقصد والإرادة أبداً. وأما الثالث: فهو محال عقلاً؛ لبطلان قانون الصدفة وفساده كما علم، وتقدم. فلم يبق إلا الافتراض الأول، وهو أن الله تعالى هو الذى خلقها بطريق السنن المطردة، التى وضعها لخلق كل المخلوقات، وإيجاد هذا العالم وبذلك وجب الكفر بآلهة الملاحدة الثلاثة التى هى الطبيعة، والصدفة، والضرورة، ووجب الإيمان بالله الخالق، المدبر، الحكيم، العليم.

والآن ولما ثبت بالبراهين العقلية وجود الله تعالى، ووجب الإيمان به رباً وإلهاً؛ فإنه ينبغي التعرف إليه سبحانه وتعالى.

معرفة الله جل جلاله

ومراتب المؤمنين فيها

إن للمعرفة بالله تعالى مراتب يترقى فيها المؤمنون به عز وجل حتى يبلغوا الكمال فى معرفة ربهم سبحانه وتعالى وبقدر معرفتهم له جل وعز تكون تقواهم له، وخشيتهم منه، ومحبتهم، وطاعتهم له، وتقربهم إليه، وتوسلهم.

فالمرتبة الأولى: من مراتب المعرفة بالله عز وجل هى مرتبة علماء الكونيات الذين يحصلون على إيمانهم بالله، ومعرفتهم له بواسطة النظر والاستدلال بالخلق فى الكونيات، والإبداع فيها، فيؤمنون بخالق ذى قُدرة وإرادة، وعلم، ويعرفونه بتلك الصفات من القدرة، والإرادة، والعلم، والحكمة، والتدبير. غير أنهم يجهلون من أسمائه تعالى وصفاته ما به تعظم

محبتهم له، وخشيتهم منه، وطلبُ التقربِ إليه، والمنزلة عنده، وذلك لعدم إيمانهم بكتابه ورسوله (1)؛ إذ به تتم المعرفة الحقّة لله سبحانه وتعالى.

وهؤلاء قد ينفعهم إيمانهم في الحياة الدنيا بقدر ما أثمر لهم من تعظيم الله تعالى، ومحبة فيه، وقد ينفعهم في الآخرة بتخفيف العذاب عنهم.

والمرتبة الثانية: من مراتب معرفة الله عز وجل هي مرتبة أهل الإيمان التقليدي الحاصل لهم عن طريق الشعور الفطري، واستفاضة الأخبار بوجود الله تعالى وشهرتها، ومرتبة هؤلاء في معرفتهم بالله تعالى أضعف مراتب المعرفة، وصاحبها أقل المؤمنين تقوى لله عز وجل، ومحبة له، وخشية منه، وأولئك كعوام المؤمنين من أتباع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والمرتبة الثالثة: هي معرفة المؤمنين من أهل الشرائع الإلهية، وهي مرتبة عالية في معرفة الله تعالى والإيمان به، حيث عرف أهلها الله تعالى بطريق أخباره عز وجل، وأخبار العارفين به. والمبلغين عنه، كما عرفوه عز وجل بواسطة الشواهد والبراهين التي أقامها سبحانه وتعالى لمعرفة، وبواسطة الأدلة والأعلام التي نصبها لذلك، فهؤلاء المؤمنون أكثر الناس محبة لله، وطاعة له، وخشية منه، وهم المعنيون بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: 28).

والمرتبة الرابعة: هي مرتبة معرفة الأنبياء والمرسلين بالله تعالى، وهي مرتبة أعلى من سابقتها، وأتم وأكمل من كل مراتب المعرفة بالله عز وجل والإيمان به وحبه وخشيته وطاعته، والاستقامة على منهجه، وتحقيقاً للعبودية، وأداءً لحقوق الربوبية والألوهية؛ لأن أهلها جمعوا بين صفاء الفطرة، وسلامتها من التلوّث بالآثام قبل نبوتهم، ورسالتهم، وبعد اصطفتائهم للرسالات؛ وتشريفهم بحملها وإبلاغها لمن أرسلوا إليهم، وبين المعرفة المكتسبة بالنظر والاستدلال بالبراهين العقلية، وبين العلم اليقيني؛ لتلقيهم عن الله تعالى وحياً، ولما أظهره على أيديهم من عظيم المعجزات، وخوارق العادات ولما خصهم به من معارف به، وبأسمائه وصفاته ما كانوا به أكمل المؤمنين إيماناً، وأقواهم يقيناً، وأكثرهم له تعالى محبةً وطاعة. وأشدّهم له تقوى وخشية. كما قال إمامهم وخاتمهم محمد ﷺ وهو يخاطب أكمل الناس إيماناً بالله ومعرفةً له بعد الأنبياء والمرسلين - وهم صحابته رضوان الله عليهم -: «فوالله إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية» (2).

(1) المراد من الكتاب هنا القرآن الكريم. ومن الرسول محمد ﷺ.

(2) رواه البخاري ومسلم. اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (3/ 111).

الطريقة الأولى إلى معرفة الله سبحانه وتعالى الهداية العقلية

إن العقل السليم إذا أصدر حكماً على شيء ما من الأشياء المحسوسة أو المعقولة ؛ فإن حكمه لا ينتقض أبداً بخلاف حكم غيره مما طريقه الحواس ، أو العادات ، أو الاستقراء ؛ فإنه كثيراً ما ينتقض ، فالعين المبصرة قد تصدر حكماً ما على مرئى من المرئيات بأنه ثابت أو متحرك فتخطئ في الحكم . والأذن السامعة قد تصدر حكماً ما على مسموع بأنه صوت إنسان ، أو حيوان ، فيتبين خلاف ما حكمت به ، وكذا الذوق ، أو الشم ؛ فقد يحكم الذوق بأن طعم كذا من المأكولات حلو أو مُر . ويتبين الأمر بخلاف ذلك . ويحكم الشم بأن رائحة كذا طيبة أو كريهة . ويظهر خطأ الحكم .

وأما حكم العادات القائم على التجارب : فإن الخطأ فيه أكثر ، وأكثر منه خطأ حكم الاستقراء والتتبع ؛ لأن الإنسان مهما أوتي من قوة لا يستطيع أن يحيط علماً بالأشياء كلها . فلذا كان الخطأ أكثر في أحكام الذين يبنون أحكامهم على التجارب والملاحظات والقياسات والافتراضات . أما أحكام العقل : فإنها متى ثبتت سلامة العقل وصحته لا تنتقض أبداً ، وسواء كانت واجبة ، أو جائزة أو مستحيلة .

ومن أمثلة ذلك حكم العقل في الواجب : أن كل معلول لابد له من علة . وحكمه في الجائز : أن يسكن المتحرك أو يتحرك الساكن ، متى وُجدت علة الحركة أو السكون . وحكمه في المستحيل : أن القائم ليس بقاعد .

وهذه العصمة لحكم العقل السليم من الخطأ تتناول أحكامه الضرورية والنظرية على حد سواء . ومن أحكام العقل الضرورية : أن الواحد نصف الاثنين ، وأن الرجل غير المرأة ، وأن المملوء من الأوعية غير الفارغ ؛ إذ هذه الأحكام تدرك بغير تأمل ، ولا نظر أو استدلال .

ومن أحكام العقل النظرية : أن الثلاثة ثمن الأربعة والعشرين ، وأن الواحد نصف سدس الاثنى عشر ، وأن العالم حادث ، وأن المعلول لابد له من علة ؛ إذ هذه الأحكام العقلية لا تدرك إلا بالنظر وبالتأمل ، ومع هذا فإن الخطأ لا يتطرق إليها أبداً .

ومن هنا ، كانت الهداية العقلية أحد طريقى الإيمان بالله ومعرفة سبحانه وتعالى ، فلنذكر هنا جملة من أحكام العقل وقوانينه القاضية بوجود الله تعالى ، والهداية إلى معرفته عز وجل . ومن ذلك :

١- قانون العلة:

لقد ركز في فطرة كل إنسان عاقل أن كل متغير من جسم أو حال أو صفة، لا بد له من سبب تغير به، ولا يخرج شيء عن هذا القانون بحال من الأحوال؛ إذ كل من يرى آنية موصوعة، أو آلة مصنوعة يحكم على الفور بعقله أن لنية واصعها في مكانها الذي هي موصوعة فيه، وأن للة صانعاً صنعها حتماً، ويجعل من المحال أن تكون الآنية قد وُضعت في مكانها بلا واصع وصعها فيه، وأن الآلة قد صُنعت بلا صانع صنعها.

ويؤثر من الإنسان بهذا إيماناً راسخاً، ولا يستطيع أحد أن يقنعه بخلافه أبداً، وذلك لأن العقل حكم بأن كل آلة لا بد لها من صانع، وأن كل متغير من الأشياء من صفة إلى صفة، أو من مكان إلى مكان لا بد له من علة تغير سببها. وهذا القانون أو الحكم العقلي يسرى على العالم كله بجميع أجزائه، من المادة والحركة والتنوعات - أي أنواع المخلوقات - في وجوده وتغيره، فلا بد لوجوده من علة، ولا بد لتغيره من سبب أثر فيه، فهو يتغير من حال إلى حال لأجله. ولا بد أن تكون العلة التي اقتضت وجوده وتغيره علة كافية، وإلا لما تم لها هذا الإيجاد والتغير.

وبالنظر إلى مظاهر الإبداع، والقصد، والتنظيم، والتنسيق، والإحكام في الخلق والإيجاد، والتدبير في التصريف أثناء التغير والتبديل؛ فإن العلة التي اقتضت وجود العالم وسائر المخلوقات فيه، لا بد وأن تكون ذات قدرة، وإرادة، وعلم وحكمة؛ إذ لا بد من الكفاية فيها، وإلا لما تم هذا الخلق، والإبداع، والتنظيم، والإتقان، والتدبير الحكيم، ومحال أن تكون العلة الكافية هي الطبيعة لعدم القصد لها، والإرادة، والعلم، والحكمة، كما لا تكون (الصدفة) لاستحالة ذلك مع وجود الإبداع المدهش للعقل، والتنظيم المحير له، والموافقات يستحيل بها تجمع المادة، وتوافقها حتى يتم الخلق، والإبداع، والتنظيم. كما لا تكون - ولن تكون - الضرورة، إذ نظرية الضرورة سخر منها كل ذى عقل صحيح، ومجها كل صاحب ذوق سليم.

ولم يبق أن تكون تلك العلة الكافية التي اقتضت وجود العالم وتنوعاته إلا الله سبحانه وتعالى وهكذا أصدر العقل السليم حكمه الصحيح الذي لا ينقض أبداً بوجود الله ذى الأسماء الحسنى، والصفات العليا، فأمن به المؤمنون، وعرفوه بواسطة هذا الحكم العقلي السليم الصحيح والذي لا يُنقض أبداً.

٢- قانون الوجوب:

إن قانون الوجوب هو أحد طرق الاستدلال العقلي على وجود الله تعالى ووجوب الإيمان به، والتعرف إليه، ووجوب طاعته والتقرب إليه. وحقيقة هذا القانون هو أن يقال: إن الموجودات من هذه الحوادث التي يحويها العالم العلوي والسفلي من كل الموجودات من جماد، ونبات،

وحیوان، وإنسان، إما أن يكون وجودها واجباً، أو مستحيلاً، أو جائزاً، ولا يخلو أمرها من واحد من هذه الثلاثة بحال من الأحوال لقضاء العقل الصحيح بهذا، وتسليم جميع العقلاء به.

وحقيقة الواجب: أنه ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً لا يقبل. وحقيقة المستحيل - وهو نقيض الواجب - أنه ما أوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً لا يصح.

وحقيقة الجائز - ويقال له: الممكن أيضاً - أنه ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً لا يصح أو لا يقبل. وبناء على هذا فهل وجود الكائنات واجبٌ أو مستحيل أو جائز؟

والجواب: أن وجود الكائنات ليس بواجب؛ إذ تصور عدم وقوعها لا يوجب تناقضاً عقلياً، كما أنه ليس مستحيلاً؛ إذ تصور وقوعها لا يوجب تناقضاً عقلياً، وكيف وهي موجودة فعلاً؟ إذاً، فإذا لم يكن وجود الكائنات واجباً، ولا مستحيلاً تعين أن يكون جائزاً؛ إذ الأحكام ثلاثة فقط، وإذا تعين أن يكون وجود الممكنات جائزاً لا غير، فإننا نقول: ما دامت الكائنات جائزة الوجود ممكنة فقط - وقد وجدت فعلاً - فما الذي اقتضى وجودها ورجحه على عدمه؟ والجواب أن نقول: إنه لا بد من علة اقتضت الوجود؛ إذ تصور وجود معلول بدون علة مستحيل، لإيجابه تناقضاً عقلياً لا يقبل. وإذا فما هي هذه العلة التي اقتضت وجود الكائنات؟ وكون هذه العلة التي اقتضت وجود الكائنات هي الطبيعة باطل؛ لأن الترجيح لا يكون إلا عن قصد وإرادة، والطبيعة لا إرادة لها ولا قصد كما يعترف بذلك القائلون بها. وكونها الصدفة باطل، لما تقدم من استحالة ذلك لوجود الإبداع، والتناسق، والتآلف، والوزن الدقيق، ولأن الموافقات لا تتم إلا بعقل جبار، وإرادة عظيمة، وتدبير وحكمة، وكونها الضرورة باطل بل من أبطل الباطل؛ لأن الضرورة ليست إلا وهماً من أوهام الخيال ولا قائل بها البتة، وقد بينا أنها عناية الله تعالى بمخلوقاته، تلك العناية الإلهية التي أعطت كل مخلوق خلقه، وهدته إلى ما يكمل به وجوده وتحفظ به حياته إلى أجله الذي حدد له. إذاً، فإنه لم يبق من علة لوجود الكائنات اقتضت وجودها، ورجحته على خلافه إلا أن يكون الله جلّ جلاله، هو الذي اقتضى وجودها ورجحه، فكان الكون على ما هو عليه من إبداع وتنظيم. ومظاهر القدرة، والعلم، والتدبير، والإحكام، والإتقان كلها دالة على علم الله، وقدرته، وكمال تدبيره، وعظيم حكمته. بهذا عرف الله جلّ جلاله، وآمن به المؤمنون، وأحبوه، وعبدوه، وتقرّبوا إليه.

٣ - قانون الحدود:

لقد ثبت اليوم - وبدون شك - حدوث سائر الكائنات الحية، ومن أقربها عهداً بالحدوث الإنسان، كما قرر هذا علماء الكون وطبقات الأرض. وبهذا ثبت حدوث العالم بأسره قطعاً ويقيناً؛ لأن الشيء الواحد لا يكون قديماً وحديثاً في آن واحد، كما لا يكون بعضه قديماً، والبعض

الآخر حديثاً؛ إذ القول بهذا يوجب تناقضاً عقلياً لا يصح، ولا يُقبل في قضايا العقول السليمة. وإذا سلّمنا بحدوث العالم كله - وهو مُسلّم حتى من الطبيعيين أنفسهم - فإنّه لا انفكاك حيثئذ من التسليم بوجود علة كافية لإحداثه؛ إذ وجود معلول - وهو الحدوث بدون علة - يوجب تناقضاً عقلياً لا يصح؛ لإطباق العقول السليمة على رفضه، وعدم قبوله.

هذا، وما في العالم الحديث من إبداع، ونظام، وتدبير يوجب عقلاً أن تكون العلة التي ترتب عليها حدوث العالم علة كافية، ذات قدرة وعلم، وإرادة وقصد، وحكمة وتدبير، كما يوجب أن تكون العلة واجبة الوجود لذاتها، بحيث لا يُتصور افتقارها إلى علة أخرى لئلا يلزم الدّور والتسلسل وهما محالان في حكم العقول.

وأخيراً فالعلة الكافية التي وجب عقلاً أن تكون، ووجب أن تكون واجبة الوجود هي الله الخالق، المدبر، الحكيم، ذو الأسماء الحسنى، والصفات العليا، رب العالمين، وإله الأوّلين والآخرين.

وبهذا القانون الخاص - قانون الحدوث - ثبت وجودُ الله تعالى عقلاً، ووجب الإيمان به ربّاً وإلهاً، وتعيّنت عبادته بفعل ما يحب، وترك ما يكره؛ طلباً لرضاه، والسعادة في جواره الكريم يوم لقائه بعد فناء هذا العالم الحادث وانقضائه.

٤ - قانون النظام:

إن التأمل في الكون كله علويه وسفليه يكشف عن حقيقة كبرى، لا مجال لإنكارها، أو تجاهلها والإغضاء عنها، أو الغض من شأنها، ألا وهي هذا النظام الدقيق العجيب، الذي رُبّطت به أجزاء الكون كله من الذرة إلى المجرة، هذا النظام المدهش، المحير للعقول، الذي يُحيل العقل البشري السليم أن يكون ناجماً عن صدفة وتلقائية، أو عن تفاعلات كيميائية، أو يكون نتيجة للحركة المستمرة للمادة منذ ملايين السنين كما يزعم الخياليون، والمغرورون، المخدوعون؛ إنه لمن أمحل المحال، وأبطل الباطل أن يصدر هذا النظام الشامل للخلق كله عن ذى إرادة، وقصد، وعلم، وحكمة، وتدبير، إن نظرة إلى السماء، إلى خلقها، وتكوينها، إلى الأحكام والإتقان فيها، إلى أبعادها، إلى سعتها، إلى عدد نجومها، ومواقعها، إلى الأفلاك الدائرة فيها، إلى ضوء شمسها، ونور قمرها. هذه النظرة الفاحصة الشاملة تُرى الإنسان العاقل من مظاهر القدرة، والعلم، والإرادة، والقصد، والتصميم ما يجزم معه ببطلان هراء الماديين، وترهات الملحدّين؛ ويسلم بوجود إله عظيم متصف بصفات الربوبية، ونعوت الألوهية.

وأى نظرة فاحصة دقيقة إلى الأرض، إلى خلقها وتكوينها، إلى محيطاتها، وأنهارها، إلى جبالها ووهادها، إلى مرتفعاتها وسهولها، إلى النباتات والأشجار، إلى التنوع في الحيوانات،

وإلى الاختلاف فى أجناس البشر لوناً ولساناً، تقف بالناظر عند حقيقة لا يستطيع إنكارها، ولا إخفاءها وجحودها، وهى أن وراء هذا الخلق والإبداع خالقاً، مبدعاً، عليمًا، حكيمًا، وهو الله الذى لا إله إلا هو، ولا رب سواه. قال تعالى فى هذا المعنى من سورة «ق»:

﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿ (الآيات: 6-8).

إن نظرة عابرة فقط إلى النور، والحلّك، وهذا الهواء المشترك، إلى اتلاف الهواء، إلى عناصر الماء، إلى النوعية، والزّوجية فى كل شىء فيها، وعليها، تكفى فى إقناع ذى العقل بوجود إله ذى قصد وإرادة، وحكمة وتديبر، وقدرة لا تُحد، وعلم لا يُحيط به أحدٌ، ألا وهو الله العزيز الحكيم، الله الذى أوجبت العقول السليمة وجوده، ودلت كل ذرة فى الكون على علمه، وقدرته، وتديبره، وحكمته.

٥ - قانون العناية بالإنسان:

قبل عرض قانون «العناية» الذى هو أحد القوانين العقلية الموجبة للإيمان بالله تعالى، والمعرفة به سبحانه وتعالى، نذكر قاعدة عامة فى الكون كله، قد تخفى على غير المتأملين فى الكون، والدارسين له، وهى أنه لا مجال فى الكون للباطل، ولا محلّ فيه للعبث بحال من الأحوال؛ بل الكون كله قائم على أساس العدل والحق، والنظام والإحكام. ولا يوجد جزء واحد من أجزائه خلواً من فائدة مقصودة منه، أو حكمة متوخاة فيه. وهذه الحقيقة الكونية تظهر بوضوح لكل من تأمل الكون، ونظر فى حقائقه. وقد قرّر هذه الحقيقة وأكّدها كتابُ الله القرآن الكريم فى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (الدخان: 38-39).

وفى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿ (ص: 27).

ومثل هذه الحقيقة الكونية فى وضوحها وثبوتها قانونُ العناية الذى نعرضه الآن برهاناً عقلياً على وجود الله تعالى، وطريقاً من طرق معرفته عز وجل. وقانون العناية هذا يتألف من حقيقتين:

الأولى: خلو الكون كله من أية ظاهرة للعبث، والباطل فيه.

والثانية: أن الكون كله، وبجميع أجزائه مُسَخَّرٌ لخدمة نوع واحد من بين سائر أنواعه، فمن أعظم كائن فيه، إلى أصغر كائن وأحقره، الكل يخدم ذلك النوع، وهى حقيقة مذهشة للغاية، أن يكون هذا الكون الفخم الهائل بكل ما فيه من أجرامه السماوية، ومخلوقاته الأرضية، الجميع مسخر تسخيراً خاصاً لخدمة نوع واحد من بين سائر المخلوقات التى حواها الكون، وانتظمها هذا

الوجود المادى القائم على أساس الحق والعدل، والخالى من جنس اللعب والعبث كما سبق بيانه. وهذا النوع المسخر له الكون كله، هو الإنسان وحده، والمثل الذى يوضح هذه الحقيقة التى تبدو غريبة بادئ ذى بدء عجيبة هو: أن يأمر أحد الملوك العظماء ببناء قصر فخم، كبير، فيبنى على أحسن طراز، ويُجمل بأحسن أنواع التجميل، ويزود بكل أسباب الراحة، والارتفاق، بحيث يصبح آية فى باب القصور الملكية فى دنيا الناس متعة وجمالاً، ثم يُنزل به ضيفاً كريماً عليه، ويقول له: لقد بنينا لك هذا القصر لتعيش طوال حياتك متمتعاً بكل ما فيه من خيرات ونعيم. فالملك هو الله، والقصر هو الكون، والضيف هو الإنسان، وهذه الحقيقة قد قررها القرآن أيضاً وأكدها كالحقيقة الأولى، وذلك فى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْرِي الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الجن: ١٢-١٣).

ولنستعرض الآن بعض مظاهر العناية بالإنسان فى الكون:

١- فى السماء:

إن فى السماء الدنيا كواكب كثيرة، ونجوماً عديدة، وفيها الشمس والقمر، والأرض أكثر تعلقاً بهما من غيرهما من سائر الأجرام السماوية، فبالنجوم المشرقة، والكواكب المنيرة ازدانت السماء الدنيا التى هى سقف لهذه الدار التى يسكنها الإنسان ويعمرها، وبالقمر المنير ذى المنازل والتقدير استنار غالب ليل الإنسان، وبه يعرف عدد السنين والحساب، وبالشمس المضيئة أشرق النهار على الإنسان، وبها عرف ليله، وميز نهاره، ومنها استمدت أرضه دفئها، وحرارتها، وطاقتها المودعة فيها، ولولا الشمس لتجمدت الأرض، ولما كانت صالحة للحياة. وفى السماء تتجمع السحب وتتراكم، ومنها تنزل الأمطار مياهاً عذبة، بها حياة الإنسان وسعاده. وفى السماء - فى علوها وارتفاعها، وكثرة أجرامها، ومجراتها، وكواكبها، ونجومها، وشموسها، وأقمارها - آيات عظام تهدى الإنسان إلى معرفة ربه، وتبين له قدرته عليه، وتُرِيه سوابغ نعمه به.

٢- فى الأرض:

إن فى الأرض البحار، والأنهار، والمعادن، والجبال، والسهول، والتلال، فيها الأحياء المائية، والحيوانات البرية ذات المنافع العديدة، والفوائد الجمّة الكثيرة، وبها الأشجار المظلمة والمثمرة، وبها الزروع، والنباتات التى هى أرزاق وأقوات، وكلها مسخرة للإنسان مُعْطَاةً له، لم يكن فيها شئ لغيره، ولا يخرج منها شئ عن منفعتة وفائدته بحال من الأحوال.

وبعد هذا الذى أجملناه فى تقرير كون الوجود كله من أرض وسماء قد وضع مسخراً لخدمة الإنسان، وذلك دليل على وجود خالق للكون والإنسان معاً، وهو الله تعالى الذى خلق الكون أولاً، ثم خلق الإنسان وسخر له كل ما خلق فى الكون ؛ عناية به، وكرامة له، نذكر ظاهرة كونية واحدة من ظواهر العناية بالإنسان لنزيد بها قانون العناية تأكيداً وتوضيحاً، وهى ظاهرة اللقاح فى النبات والحيوان. وهى ظاهرة مسلّمة من كل العقلاء. فالنباتات كلها فيها الذكر، وفيها الأنثى، ويجرى اللقاح بينها حسب سنّة ثابتة وقانون مرسوم لا يُخالف، وذلك ليتوفر للإنسان غذاؤه من الحبوب، والفواكه، والخضر التى هى العنصر الهام فى غذائه الذى هو قوام حياته. وظاهرة اللقاح فى الحيوان أبين وأوضح، فالتيس مثلاً يطلب أنثاه مندفعاً إليها، ويجرى وراءها، له صوت عجيب، حتى إذا أتم لقاحها، وفرغ منها اعتزلها اعتزالاً كلياً إلى أن تضع حملها، وترضعه، ويكاد يستغنى عنها، ثم يعاودها التيس مرة أخرى، ويجد من غريزته المودعة فيه دافعاً قوياً نحوها لا يملك التخلّى عنه ولا السيطرة عليه حتى يتم مهمته التى هى لها.

ولتساءل، لم يتم هذا ؟ ولصالح من ؟ إنه يتم من أجل الإنسان ولصالح الإنسان فقط ؛ إذ بهذا يتوفر له قسط آخر مهم من غذائه الذى هو اللبن والجبن، واللحم، كما يتوفر له كساؤه، وفراشه وغطاؤه.

وأخيراً، هذه العناية بالإنسان، المتجلية فى الظواهر الكونية، كلها إن لم تدل على وجود خالق للكون ذى إرادة، واختيار، وعلم، وقدرة، وقصد، وحكمة، خلق الإنسان وسخر له الكون كله - كما هو مشاهد محسوس - فإنه لم يبق شىء يدل على آخر فى الحياة أبداً، فلا الرماد يدل على النار، ولا النوى تدل على التمر، ولا الكلام يدل على الإنسان، ولا الحركة تدل على الحياة، وحينئذ: فعلى العقل العفاء، وعلى الدنيا السلام.

الطريقة الثانية

إلى معرفة الله سبحانه وتعالى

الهداية الدينية

قد سبق أن ذكرنا أن طريقة الهداية الدينية تجمع بين الاستدلاليين: القياس العقلى، والدينى الشرعى ؛ فهى أعظم طريقتى الهداية إلى معرفة الله تعالى والإيمان به عز وجل، وهى التى تبعث المهتدى بها إلى العمل، المزكى للنفس، والمهيئ له لسعادة الدارين، بخلاف الهداية العقلية وحدها - وهى الطريقة الأولى من طريقتى الهداية - فإنها، وإن أنقذت صاحبها من التمزق

الشخصي، والقلق النفسى، والخيرة الفكرية، فإنها لا تزكى نفسه، ولا تُقَوِّمُ أخلاقه، ولا تهيئه لسعادة الدنيا والآخرة، كما أنها لا تخرجه من دائرة الكفر الموجب للعذاب الأخرى، والخلود فيه. وهذا عرض سريع لطريق الهداية الدينية المفضية - بمن أخذ بها - إلى معرفة الله تعالى معرفة سليمة تبعث على الاستقامة، وتعد للسعادة والكمال، فى الحال والمآل. وقبل الشروع فى الكلام، نذكر أن هناك حقيقتين ثابتتين ينبغى أن تكونا منطلق التعرف إلى الله تعالى، والتعريف به سبحانه وتعالى، هما:

الأولى: أنه لا يعرف الله كمنه سبحانه وتعالى، ولا يعرف بالله مثل الله جل جلاله وعظم سلطانه.

والثانية: أن مصدر معرفة الله تعالى، هو كتابه ورسوله؛ فقد تعرف الله تعالى إلى عباده فى كتابه بما لا مزيد عليه. كما أن الرسول ﷺ لم يألُ جهداً فى التعريف بربه عز وجل، بالحديث عنه وبذكر أسمائه وصفاته حتى عرف المؤمنون ربهم معرفة أثمرت لهم محبته وطاعته، ويحسن أن نبه هنا إلى أن للتعريف بالله عز وجل فى الكتاب طرقاً مختلفة، وأساليب متنوعة. منها: أن يخاطب عباده كافة، مؤمنهم وكافرهم، ويتعرف إليهم فيأمرهم وينهاهم.

ومنها: أن يتعرف إلى أنبيائه ورسله عليهم السلام فيناديهم، ويخاطبهم ويوحى إليهم.

ومنها: أن يتعرف إلى عباده المؤمنين به وبرسله، فيخاطبهم، يأمرهم وينهاهم، يعدهم ويشرهم، ينذرهم ويحذرهم.

ومنها: إرساله تعالى الرسل، وإنزاله عليهم الكتب، وتأيدهم بالمعجزات والخوارق التى يعجز عنها البشر عادة، ولا يقدرُونَ على مثلها، لكونها لا تخضع للسنن الكونية. وهذا تفصيل ذلك:

أولاً: خطابه عز وجل لكافة عباده فى قوله من سورة البقرة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الآيتان: 21، 22).

فقد اشتملت هاتان الآيتان على نداء الله تعالى للعباد، وأمرهم بعبادته، ونهيهم عن الشرك به وعبادته. كما اشتملتا على التعريف به تعالى رباً خالقاً، مدبراً رازقاً. خلق البشرية كلها، وجعل لها الأرض فراشاً، والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً، فأخرج لها به من الثمرات رزقها، وما به قوام حياتها. كما اشتملت الآيتان على دليلين عقليين:

(الأول): دليل الحدوث.

(الثانى): دليل العناية. وقد سبق بيان كل منهما فى بحث الهداية العقلية، فليرجع إليهما.

وفى قوله سبحانه من سورة النساء: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء: 1).

ففى هذا النداء الإلهى، يأمر الله تعالى البشرية كلها بتقواه، وهى عدم الخروج عن طاعته بترك أمره، أو بفعل نهيه، ويذكرهم بأنه ربهم أى خالقهم، ورازقهم، ومدبر أمرهم، كما ذكرهم بأصل نشأتهم. فاشتمل هذا النداء الكريم على التعريف بالله تعالى بوصفه الخالق، كما اشتمل على دليل عقلى، وهو دليل الحدوث.

وفى قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسْخَرَاتٌ بِأَمْرِهِ لَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأعراف: 54).

ففى هذا الإخبار الإلهى تعريف بالله سبحانه وتعالى بوصفه الرب الذى خلق الكون كله، علويه وسفليه، وهو يدبر أمره من فوق عرشه. وكما انفرد بالخلق والتدبير انفرد بالأمر والعبادة والتشريع.

كما فى هذا الخبر القرآنى دليل عقلى على إثبات وجود الله تعالى، وهو دليل العلة الكافية؛ إذ الخلق والتدبير مشاهدان فى الكون لكل ذى عينين فلا بد إذاً من خالق مدبر للكون. ونفيه مستحيل، لما يوجب من التناقض العقلى.

وفى قوله عز وجل من سورة فاطر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (فاطر: 3).

ففى هذا النداء تعرف الله تعالى إلى الناس بأنه وكى نعمتهم - نعمة الخلق والرزق - وطلب منهم أن يذكروا ذلك ليذكروه بعبادته وحده. لكونه لا يستحق العبادة سواه، وعجبهم من انصرافهم عنه، وهو ربهم الذى لا رب لهم غيره. فاشتمل هذا النداء الكريم على دليلين عقليين، هما: دليل الحدوث، ودليل العناية.

وفى قوله تعالى من سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات: 13).

فاشتمل هذا النداء الإلهى على التعريف به تعالى بوصفه الخالق، والمدبر ذا العلم، والخبرة التامة، فمن مظاهر تدبيره للناس، أن جعل حياتهم اجتماعية ليلم التعاون بينهم على تحقيق سعادتهم، ولو شاء لجعلهم يعيشون على غط حياة البهائم والحيوانات، فلا أسرة، ولا قبيلة، ولا شعب، وحينئذ لا مناص من أن يعيشوا عيش الحيوانات، فلا مدنية، ولا حضارة، بل ولا إنسانية ولا كرامة آدمية. كما اشتملت الآية على دليل الحدوث، والعناية أيضاً.

وفى قوله من سورة لقمان عليه السلام: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ (١١) هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوِنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴿﴾ (لقمان: 10-11).

ففى هذا الخبر الإلهى تعريفٌ بالله تعالى بصفات الكمال التى انفرد بها دون غيره. وهى خلق السموات خلقاً محكماً بما أودع فيها من قانون «الجاذبية» فتماسكت أجرامها، ولم تحتاج إلى ما يدعمها من وسائل الدعم التى عرفها الناس -كالأعمدة ونحوها- وإلقاؤه تعالى الجبال فى الأرض لحفظ توازنها حتى لا تضطرب بأهلها ولا تميل بهم فيهلكوا. ونشره تعالى آلاف الدواب المختلفة نوعاً، وشكلاً وخاصية. وفوائد نشره فى الأرض التى هى كالمائدة الكبرى للإنسان، وكالفندق العظيم للإقامة والسكن. وإنزاله عز وجل المطر من طبقات الجو السامية. وإنباته النباتات المختلفة التى هى أصل غذاء تلك الدواب التى بثها فى الأرض. كما اشتمل آخر الخبر المذكور على تحدٍ صريح لأولئك الذين يؤلهون غيره تعالى من مخلوقاته بأن يشيروا إلى شىء ما قد خلقته آلهتهم الباطلة المزعومة. كما اشتمل الخبر أيضاً على الأدلة العقلية التالية: دليل الحدوث، ودليل العناية، ودليل النظام، ودليل الوجوب.

وفى قوله تعالى من سورة الزمر: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ (٥) خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَى تُصْرَفُونَ ﴿﴾ (الآيتان: 5، 6).

ففى هاتين الآيتين من كتابه تعالى يتعرف سبحانه وتعالى إلى عباده من خلال صفاته العليا، وهى كونه الخالق، القوى القادر، المدبر، العزيز، الغفار، كما يتعرف إليهم بنعمه عليهم فى خلقهم، وجعل الأرض مناسبة لحياتهم فيها باختلاف الليل والنهار عليها، وبوجود الشمس والقمر مسخرين فوقها، والقمر ينيروها، وبه تُعرف شهورها وأعوامها، والشمس تضيئها، وتدفعها، وتجعل الحياة صالحة فيها. ويانزال الأنعام، ذات اللحوم، والألبان، والأصواف والأشعار، والأوبار، حيث يشربون ألبانها، ويركبون ظهورها، ويأكلون لحومها، ومن أصوافها، وأوبارها، وأشعارها يلبسون ويتأثثون.

بتلك الصفات العلى، وهذه النعم العظمى يتعرف الله جل جلاله إلى الناس، ويخبرهم بأنه هو ربهم، وإلههم، لا رب لهم غيره، ولا إله لهم سواه، ويُعجبهم (١) من انصرافهم عنه،

(١) يحملهم على التعجب.

وإقبالهم على سواه. وقد اشتملت هاتان الآيتان على كل القوانين العقلية، من دليل الوجوب، والحدوث، والنظام، والعناية، والعلة، وبأى تأمل فى الآيتين يظهر ذلك جلياً.

وفى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (الآيتان: 28، 29).

ففى هاتين الآيتين من كتابه تعالى يُعَجِّبُ تعالى عباده من كفرهم به وجحودهم له، مذكراً لهم بحال العدم السابقة لخلقهم، وبحياتهم وموتهم، ثم بعثهم بعد فنائهم، ورجوعهم إليه ليحكم بينهم، ويجزيهم برحمته وعدله، ويتعرف إليهم بدليل عنايته بهم، وبقدرته عليهم، وبعلمه بهم. كما اشتملت الآيتان على أدلة: الحدوث، والعلة، والعناية.

ثانياً: خطابه تعالى لخواص عباده من أنبيائه ورسله، وتعرفه إليهم بندايتهم، ووحى إليهم، وإنزال ملائكته عليهم. ومن ذلك نداؤه لآدم أبى البشر عليه السلام، وخطابه إياه فى قوله تعالى من سورة البقرة: ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الآية: 35).

وقوله من سورة طه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ (الآيات: 115، 119).

فقد نادى آدم فى الآية الأولى، وأمره أن يسكن الجنة هو وزوجه، وأباح لهما كل ما فيها من الأطعمة، ونهاهما عن الأكل من شجرة واحدة، وحذرهما من ذلك.

وفى الآية الثانية أمر الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس امتنع، فخاطب الرب تعالى آدم معلماً إياه بعبادة إبليس له ولزوجه، ومحذراً لهما من الخروج من الجنة إن هما أطاعا إبليس، وأكلا من الشجرة التى حرم عليهما.

ومن ذلك خطابه لنوح، ووحى إليه، ونداؤه إياه فى قوله تعالى من سورة «هود»: ﴿وَأَوْحَى إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الآية: 36).

وفى قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِقُونَ﴾ (الآية: 37).

وفى قوله تعالى: ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ﴾ (الآية: 48).
ومن ذلك خطابه لإبراهيم عليه السلام، وعهده إليه وإلى ولده إسماعيل ببناء البيت العتيق،
وتطهيره للطائفين والعاكفين، ونداؤه إياه، ووحيه إليه، فى قوله من سورة البقرة: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ
لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: 124).

وفى قوله: ﴿وَعَهَدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهْرًا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾
(البقرة: 125).

وفى قوله: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾
(الصفات: 104 - 105).

وقوله عز وجل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ (النساء: 163).
ومن ذلك نداؤه تعالى لموسى عليه السلام، وإعلامه بأنه ربه، الذى لا إله إلا هو، وأمره إياه
بعبادته، وبإقام الصلاة لذكره، وسؤاله إياه عما فى يمينه وإجابة موسى له ؛ وأمره تعالى له باللقاء
العصا فى حديث ممتع جميل تم لموسى مع ربه جل وعلا بجانب الطور، وذلك فى قوله تعالى من
سورة طه: ﴿يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ
لِمَا يُوْحَىٰ ﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ (الآيات: 11-14).

وفى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ
غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقُهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا
وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً
أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴿٢٣﴾ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي
﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي
﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَيْ نَسْبَحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ
كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ
﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ
يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
أَدْلُكُمْ عَلَىٰ مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَرَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ
وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾
اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾ اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا

لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾ فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بَآيَةً مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿الآيات: 17-47﴾.

ومن ذلك نداؤه لداود عليه السلام، وإخباره إياه باستخلافه له؛ وأمره إياه بالعدل والحكم بالحق، ونهيه إياه عن اتباع الهوى في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (ص: 26).

ومن ذلك استجابته لأيوب لما دعاه لكشف ضره، فكشفه عنه، وأعطاه ما فقدته من أهل ومال، وأرشده إلى استعمال الماء غسلاً وشراباً لشفائه من مرضه، وأفتاه في يمينه حتى لا يحنث فيها، وذلك في قوله تعالى من سورة ص: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذَكَرَى لِلْأُولَى الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخَذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (الآيات: 41 - 44).

ومن ذلك نداؤه تعالى لذكرياً عليه السلام، وتبشيره إياه بحيي لما سأله الولد، وإعطاؤه الآية على ذلك في قوله تعالى من سورة مريم: ﴿يَا ذَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (الآية: 7).

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ (مريم: 10).

ومن ذلك نداؤه لعيسى ابن مريم عليهما السلام، وخطابه إياه، وتذكيره بنعمته عليه وعلى والدته، وتأنيده بروح القدس، وإخباره بأنه متوفيه ورافعه إليه، في قوله عز وجل من سورة المائدة: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (الآية: 110).

وفى قوله من سورة آل عمران: ﴿يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (الآية: 55).

ومن ذلك نداؤه لمحمد ﷺ، وخطابه إياه، وإرساله، وأمره، ونهيه، وإرشاده له، وتعليمه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، كتابه الذي أنزله عليه، وجعل هداية أمته فيه، كقوله تعالى من سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (الآية: 67).

وقوله تعالى من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الآيتان: 45، 46).

وقوله عز من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝﴾ (٢) وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ (الآيات: 1 - 3).

وقوله من سورة الجاثية: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝ إِنَّهُمْ لَن يَغْنَوْا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۝﴾ (الآيتان: 18، 19).

ثالثاً: نداؤه تعالى لعباده المؤمنين، وأمره إياهم، ونهيهم لهم، وإخبارهم. وذلك في قوله من سورة آل عمران: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝﴾ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۝﴾ (الآيتان: 102، 103).

وفي قوله من سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝﴾ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۝﴾ (الآيتان: 77، 78).

وفي قوله من سورة الزخرف: ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ۝﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بَايَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ ۝﴾ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ۝﴾ (الآيات: 68 - 70).

رابعاً: اصطفاؤه للرسول وإرسالهم إلى الناس يبلغون عنه شرائعه وأحكامه، ويبشرون أوليائه برحمته، وينذرون أعداءه من نقمته.

ومن ذلك إرساله نوحاً عليه السلام في قوله تعالى من سورة نوح: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝﴾ (١) قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝﴾ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۝﴾ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝﴾ (الآيات: 1 - 4).

ومن ذلك إرساله هوداً، وصالحاً عليهما السلام إلى كل من عاد، وثمود، كما في قوله تعالى من سورة هود: ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِن أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ۝﴾ (٥٠) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝﴾ (١) إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝﴾ (الآيتان: 50 - 51).

وقوله: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ۝﴾ (هود: 61).

ومن ذلك إرساله إبراهيم، ولوطاً، وشعيباً، وموسى، وعيسى عليهم السلام، كما جاء ذلك

(١) أى على إبلاغهم، وتعليمهم توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون غيره.

فى قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الآية: 26).

وفى قوله من سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١) (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ (2) (الصافات: 133 - 138).

وفى قوله من سورة الأعراف: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: 85).

وفى قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٩٦) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (٩٧) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود: 96 - 98).

كما أرسله إلى بنى إسرائيل قومه ؛ إذ جاء ذلك فى قوله تعالى من سورة الصف: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ لِغُلَامِكُمْ الَّذِي تَبْكُونَ يَأْتِيكُمُ اللَّهُ بِالْحَمِيمِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (الآيات: 5 - 6).

ومن ذلك إرساله محمدًا ﷺ وهو خاتم النبيين (صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين)، وفى قوله تعالى من سورة الأعراف: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الآية: 158).

وقوله من سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا (٤٧) وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (الآيات: 45 - 48).

إن هؤلاء الرسل جميعاً - وغيرهم كثير - قد أوحى الله تعالى إليهم وعرفهم بنفسه فعرفوه، وأرسلهم إلى أممهم فبلغوهم رسالاته باسمه ودعوا إليه بإذنه، واستنصروه فنصروهم، وسألوه العظائم من المعجزات فأعطاهم. فهل بعد هذا يطالب عاقل بالدليل على وجود الله تعالى، ووجوب الإيمان به. وبمعرفته، وعبادته، والتقرب إليه ؟ ! اللهم لا، اللهم لا.

(1) أى وقت الصباح وهو النهار.

(2) أى ما حل بهم من الهلاك فتعتبروا به.

خامساً: ما أنزله تعالى من كتب بطريق الوحي المباشر حيث أنزل صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى، وفرقان محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

فهذه الكتب قد تلقاها المرسلون وحيّاً وأوحاها الله تعالى إليهم، وتلقاها أتباع أولئك الرسل عن رسلهم، ولم يشكّ أحد منهم في أنها وحى الله، وكتبه أنزلها على رسله، وفيها أمره ونهيه، وإخباره ووعدته، ووعيدته، وشرائعه، وأحكام دينه، وإن كان قد طرأ على بعضها فساد بالتحريف، والزيادة والنقص، فإن القرآن الكريم كتاب محمد ﷺ (1) وهو أحدثها نزولاً، لم يزل غصّاً طريّاً كما نزل، لم ينقص منه حرف، ولم يزد فيه آخر، وهو آية صدق نبوة صاحبه الأُمى الذى لم يقرأ، ولم يكتب، ولم يجلس بين يدي أستاذ قط. وقد اشتمل كتابه ﷺ -القرآن- على علوم ومعارف بهرت العقول، وأخذت بالمشاعر والقلوب فما من علم من العلوم الإلهية، والإنسانية إلا وذكر فيه طرف منه وأشير إلى دقيقة من دقائقه، أو جليلة من جلائله. فسبق (2) الزمان بإشاراته إلى شتى العلوم، والمخترعات العصرية، فذكر الذرة (3)، ونظام الزوجية (4) فى كل أجزاء الكون وذراته، كما أشار إلى اتساع الكون (5) وكروية الأرض (6)، وذكر مبادئ الصحة (7)، ووضع قواعد العدل فى الحكم (8)، وأسس الآداب الرفيعة والأخلاق البشرية الفاضلة، الشىء الذى لم تعهده البشرية فى كتاب غيره (9).

فهذا الكتاب العظيم حوى من العلوم الإلهية، والكونية، والقانونية التشريعية فى كل مجالات الحياة ما لم يدع أحد من الخلق أنه قوله وكلامه، أو تركيبه وتأليفه، وكل ما فى الأمر أنه نزل على بشر هو أكمل البشر طهراً وصفاء، وصدقاً وأمانة، وعدلاً ورحمة.

(1) فإن قيل: هل تصح إضافة الكتاب إلى محمد ﷺ؟ قلنا: نعم، لإضافة كتاب موسى إليه فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ (الأحقاف: 12).

(2) الضمير المستتر يعود على القرآن.

(3) فى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ (الزلزلة: 7).

(4) فى قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ (الذاريات: 49).

(5) فى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذاريات: 47).

(6) فى قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ (الزمر: 5).

(7) فى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف: 31).

(8) فى مثل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: 58).

(9) وذلك بمثل قوله -عز وجل- من قائل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: 90).

فما مصدر هذا الكتاب، ومن أنزله؟ فهل يحسن السكوت عن الجواب؟ أو يحسن الكذب والمغالطة فنقول: فاض به وجدان محمد الأُمى كما يقول المضللون!! أو ماذا عسى الإنسان العاقل أن يقول؟ إنه لا جواب صحيح غير الاعتراف بأنه تنزيل الله، وكتاب الله، ووحى الله، ولازم ذلك أن الله منزله موجود، وأنه عليم قدير، وعزيز حكيم. وأن من نزل عليه هو نبي الله ورسوله، وأن كل ما جاء فى هذا الكتاب حق، وصدق، وعدل. وأن الهداية البشرية متوقعة - لا محالة - عليه، وأن السعادة الإنسانية منوطة بالإيمان به، والأخذ بما فيه.

سادساً: ما أتى الله عز وجل رسله من معجزات خارقة لسنن الكون، وقوانين الحياة تدليلاً على صدق نبوتهم وثبوت رسالتهم، ومن ذلك: معجزة إبراهيم أبى الأنبياء، وإمام الموحدين - بلا منازع - حيث ألقى به خصوم الحق والتوحيد من المشركين والجاحدين، ألقوه فى أتون جحيم تخلصاً منه، ونقمة عليه، فخرج منها بحمد الله تعالى ولم تحرق النار سوى كتافه الذى شُدت به يداه، وقيدت به رجلاه، فكانت معجزة خارقة لقانون الأجسام القابلة للاحتراق إذا أُلقيت فى النار، أو أشعلت فيها. (1)

ومن ذلك معجزات موسى عليه السلام التى لا ينكرها إلا مكابر «سوفسطائى»، ولا قيمة له بين عقلاء البشر، فإن انفلاق البحر لمرور أمة بكاملها عليه، واجتيازه لم يكن إلا إحدى الخوارق التى يطأطئ لها الإنسان رأسه إجلالاً وإعجاباً (2). وإن تفجّر اثنتى عشرة عيناً، تشرب من كل عين منها قبيلة بكامل أفرادها، لخارقة لا يملك العقلاء عندها إلا التسليم بها. (3)

ومثلهما العصا التى يلقيها موسى باسم الله فتقلب حية تسعى، وتهتز كأنها جان، وتلقف كل الباطل أمامها. (4)

ومن ذلك معجزات عيسى عليه السلام، كإبرائه الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله تعالى، وكنكسهم فى المهد فى أيام ولادته الأولى. (5)

(1) ثبت هذا بالقرآن كلام الله، إذ يقول تعالى فى حكاية دعوة إبراهيم عليه السلام قومه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ (٢٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿﴾ (الأنبياء: 68-69).

(2) جاء هذا فى قول رب العالمين: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (١٤) وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿﴾ (الشعراء: 63-65).

(3) قال تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ (البقرة: 60).

(4) قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ (الأعراف: 107).

(5) قال الله عز وجل: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ الدِّيكِ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ (المائدة: 110).

ومن ذلك ما أوتى محمد رسول الله ﷺ من معجزات كالعروج به إلى الملكوت الأعلى⁽¹⁾، ورد عين قتادة بعد أن سقطت متدلية على وجنته⁽²⁾، ونطق جذع النخلة، وحنينه إليه⁽³⁾، وسلام الحصى⁽⁴⁾، والشجر عليه⁽⁵⁾، وفيضان الماء من بين أصابعه في صحراء قاحلة لا ماء بها حيث سقى وشرب وتطهر جيش بأكمله، عدد أفراد ألف وأربعمائة فرد⁽⁶⁾، وكل هذه المعجزات له وغيرها قد شاهدها عشرات المئات من الناس، ممن هم أكمل الناس صدقاً ومعرفة، وصلاًحاً، بحيث تواطؤهم على الكذب يُعدُّ مستحيلاً عقلاً.

فهذه المعجزات - وكل واحدة خارقة لنظام السنن الكونية - فهل تدل على غير وجود الله رباً وإلهاً ذا صفات متناهية في الكمال؟؟؟
اللهم إنها لا تدل إلا عليك، ولا تُعرّف إلا بك يارب العالمين، وإله الأولين والآخرين، سبحانه أن تخفيك السنة الجاحدين.

والآن فليقل المنصفون: بمن يجب أن يؤمن العقلاء: أياله يخلق ويرزق، ويدبر، يحيى ويميت، ويضر وينفع، ينزل الكتب، ويرسل الرسل، ويضع الشرائع والقوانين، ويهدي ويضل، ويسعد ويشقى، يوالى ويعادى، ويحب ويبغض، ويعطى المعجزات ويهب الكرامات، له تسعة وتسعون اسماً وصفة كلها أسماء حسنى وصفات عليا، يُكلم ويعلم، ويسمع ويجيب، يرفع ويضع، يُعزّز ويُذلّ، يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والعدوان؟؟؟

أم يؤمن بطبيعة ميتة عمياء صماء بكماء لا إرادة لها ولا اختيار، لا تسمع دعاء، ولا تجيب نداء، لا تحب ولا تكره، لا تضر ولا تنفع، لا تعلم ولا تكلم، لا تنزل كتباً ولا تبعث برسول، ولا تشرع ولا تقنن، لا تهدى ولا تضل، لا اسم لها ولا صفة، سوى الخدوش والموت، والصمم والبكم والعمى؟؟؟
ألا، فليقولوا لنا!!، أما نحن فقد آمنّا بالله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام وكان

(1) ثبت الإسراء والمعراج فى الصحيحين وغيرهما من كتب السنة بالتواتر مع ذكره فى سورة الإسراء بالقرآن. راجع اللؤلؤ والمرجان (1/35-39)، والبخارى (1/92-94)، فى مواضع أخرى تبلغ تسعة مواضع، وكذا مسلم فى (1/99-107)، وفى موضع آخر.

(2) ورد هذا فى سيرة ابن هشام فى الحديث عن غزوة أحد (3/33).

(3) نطق عذق النخلة ثبت عند الترمذى فى كتاب المناقب. باب رقم 9 وحديث رقم (2632)، أما حنين الجذع فقد جاء فى صحيح البخارى (2/11).

(4) راجع الترمذى. كتاب المناقب. باب (8). حديث (3630).

(5) ذكره مسلم فى (8/58، 59).

(6) راجع البخارى (7/148).

عرشه على الماء، خلق آدم من تراب ونفخ فيه من روحه، وخلق ذريته من ماء مهين، خلق كل شيء ومملكه، خلق بقدرته ودبر لحكمته، أنزل الكتب وأرسل الرسل، يدعى فيجيب، ويسأل فيعطى، ويستنصر فينصر، يهدى من يشاء برحمته، ويضل من يشاء بعدله، فبمعرفته ومحبه تتلج الصدور، وتمتلئ النفوس بالسعادة والحبور. لا أنسَ بغير ذكره، ولا سعادة بغير طاعته، الحياة بدون الإيمان به موت، والوجود بغير عبادته عدم، رضاه أملُ الآملين، وغاية العاملين، لا نرضى بغيره بدلاً، ولا نبغى عن طاعته حولاً، معرفته ومحبه جنة القلوب، لا نصب فيها ولا لغوب.

اللهم كما وهبتنا الإيمان بك، وهديتنا إلى معرفتك، فسخرنا لطاعتك، امنن علينا بمحبتك، وأكرمنا بولايتك، وألبسنا ثوب عافيتك، واخلع علينا حلل رضوانك، آمين.

أسماء الله تعالى وصفاته

المؤمنون بالله تعالى ليسوا على درجة واحدة في معرفة أسماء الله تعالى وصفاته، إذ منهم من لم يعرف الله تعالى إلا لكونه خالقاً، مدبراً، حكيماً، ذا إرادة واختيار، إليه منتهى الكمال، والجلال، والجمال، وذلك، لأنهم آمنوا بالله تعالى، وعرفوه بواسطة النظر والاستدلال، والقياس العقلي، وهي الهداية العقلية مجردة عن هداية الدين الشرعية.

ومنهم من عرف الله تعالى بصفات الخلق، والإرادة، والتدبير، والحكمة، وبانتهاء الكمال، والجلال، والجمال إليه تعالى، وعرفه بجميع أسمائه الحسنی، وصفاته العليا، وأهل هذه المعرفة هم أهل الهدايتين العقلية النظرية، والدينية الشرعية، لأن من أسمائه تعالى ما لا يُعلم إلا عن طريق الوحي الإلهي فقط. فالله أعلم بأسمائه وصفاته من خلقه، وأنبياء الله ورسله أعلم بذلك من غيرهم ممن لم يهتدوا بهداية الوحي الإلهي من سائر الناس.

وحذراً من الكذب على الله تعالى، وخوفاً من تكذيبه تعالى، ولا سيما وقد توعد الله تعالى مكذبيه والكاذبين عليه في قوله من سورة الزمر: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (الآية: 32).

فإن المؤمنين بالوحي الإلهي، العارفين بأسماء الله تعالى وصفاته يلتزمون حيال أسمائه عز وجل وصفاته بمبدأين، لا يجوزون الخروج عنهما بحال من الأحوال، لما يؤدي إليه الخروج عنهما من تكذيب الله تعالى أو الكذب عليه، والعياذ بالله تعالى من ذلك كله.

المبدأ الأول: أن لا يُسمُوا الله تعالى باسم له لم يُسمَّ به تعالى نفسه في كتابه أو على لسان

رسله عليهم السلام، فهم إذا دَعَوْه دَعَوْه بِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَى حيث انتدبهم لذلك في كتابه بقوله من سورة الأعراف: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: 180).

وإذا نعتوه وعرفوا به نعتوه بصفاته، وعرفوه بأفعاله وآياته الدالة عليه جل جلاله، وعظم سلطانه.

والثاني: أن لا يُشَبَّهوا الله تعالى في ذاته، ولا صفاته، ولا أفعاله بذوات المخلوقين، ولا بصفات المحدثين ولا بأفعالهم؛ لاستحالة وجود شبهة لله تعالى عقلاً وشرعاً. أما الشرع: فقد أخبر تعالى في غير موضع من كتابه بنفى الشبيه له والكفر، فقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11).

وقال عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝﴾ (١) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝.

وأما العقل: فإن خالق المادة لا يكون مادة، وما لم يكن مادة فكيف تشبهه المادة، وهل يُشَبَّه ما ليس بمادة بما هو مادة؟ فلذا قضى العقل باستحالة أن يُشَبَّه الخالق بمخلوقاته.

ومن هنا، فالمؤمنون يصفون ربهم بكل ما وُصِفَ به نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ ولا يتحرجون من ذلك أبداً.

فيقولون: إن الله يسمع ويبصر، ويحب ويبغض، وخلق بيديه، واستوى على عرشه، ويجيء لفصل القضاء، وينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا، وكلَّم موسى، وذلك لأمر.

أحدها: أنه ما دام تعالى قد وصف نفسه بهذه الصفات، ووصفه بها رسوله ﷺ وهو أعلم الناس به تعالى لم يبقَ إذاً من معنى للتحرج في وصفه تعالى بذلك؛ إذ لو لم يكن ذلك جائزاً ومشروعاً لَنَهَى عنه تعالى في كتابه، وحرَّمه على لسان رسوله ﷺ، كما حرم تكذيبه والكذب عليه، ووصفه بما هو براء منه من سائر الأوصاف والنقائص المنافية للكمالات الإلهية كأن يكون له صاحبة أو ولد، أو شريك في الملك، أو وليٌّ من الدُّنْيَا.

وثانيها: أنهم عندما يصفون ربهم بصفاته التي وصف بها نفسه، أو وصفه بها رسوله ﷺ، هم يعلمون يقيناً أن هذه الصفات محال أن يكون شيء منها يشبه صفات المخلوقين للفرق الكبير، والبون الواسع بين الخالق والمخلوق، فإذا وصف الله تعالى نفسه بأن له يداً، ووصفه المؤمن بها: فليس معنى ذلك أن يد الله تشبه يد الإنسان، وأن المؤمن يخطر على باله أن شَبَّهَ ما بين يد الخالق ويد المخلوق، لا، والله، لأن الفرق بين يد الله تعالى الخالق، ويد الإنسان المخلوق كما بين ذات الله الخالق، وذات الإنسان المخلوق، وإذاً فلا مشابهة بين يد الخالق ويد المخلوق البتة، ولذا فالمؤمنون لا يؤولون صفات الله تعالى، ولا يُحَرِّفونها، أو يعطلونها خوفاً من

التشبيه؛ لأنهم يعلمون أن الشَّبهَ بين صفات الخالق وصفات المخلوق مُحالٌ عقلاً وشرعاً، ولا واقع له في الخارج أبداً، ولذا هم يَعُدُّون من الكذب والباطل أن يُشَبِّه المرء الخالق عز وجل بالمخلوقين، أو يُشَبِّه صفاته تعالى بصفاتهم، وذلك كأن يقول: يدُ الله كيد الإنسان، أو عين الله مثل عين الإنسان، أو استواء الله على عرشه كاستواء الإنسان على عرشه مثلاً!، إذ هذا كله ومثله: باطلٌ لا واقع له في الخارج أبداً، وهو كذب بحت، وافتراء مُحض، وذلك لقضاء العقول باستحالة وجود شبه ما بين الخالق والمخلوق في الذات، والصفات والأفعال.

وثالثها: أن العقول السليمة لا تُحيل إطلاق لفظ صفة لذات من الذوات، وبإطلاق ذلك اللفظ لتلك الصفة على ذات أخرى مع انعدام الشبه تماماً بين الصفتين، وبين الذاتين الموصوفتين بهما، وذلك كلفظ «الرأس» فإنه يُطلق على المال والإنسان، فيقال: رأس المال، ويقال: رأس الإنسان، ولا شبه بينهما البتة؛ وذلك لانعدام الشبه بين الذاتين الموصوفتين بهما، وهذا لفظ «العين» يطلق إطلاقاً فيقال: عين الشمس، وعين الماء، وعين الحيوان، ولا شبه بين تلك الذوات التي أطلق عليها لفظ «العين» المشترك بينها إلا في مجرد الاسم فقط.

وأخيراً، فهداية المؤمنين في هذه العقيدة عقلية ودينية، فالعقلية: هي استحالة إدراك كُنه ذات الله تعالى، وكنه صفاته؛ لأن ذات الرب تعالى ليست مادة فتُدرك، وصفاته من ذاته، ومتى استحال إدراك كُنه الذات استحال كذلك إدراك كنه الصفات. والدينية الشرعية: هي إخباره تعالى بأنه ليس كمثله شيء، وأنه لم يكن له كفواً أحد، وأن الخلق لا يحيطون به علماً، مع وصفه تعالى لنفسه بصفات شتى ذاتية: كالسمع والبصر، واليد، والعين، والرضا، والغضب، والحبُّ والسخط، وفعلية: كالمجيء، والنزول، والخلق باليد، والاستواء على العرش، وما إلى ذلك مما ورد من الصفات في الكتاب الكريم والسنة الشريفة معاً.

خلاصة: وخلاصة هذا البحث في باب الأسماء والصفات الإلهية، هي أن المؤمنين المهتمين يؤمنون بأسماء الله تعالى وصفاته؛ إذ بهما تمت معرفتهم له تبارك وتعالى، ويدعون الله تعالى بأسمائه، ويصفونه بصفاته غير مُشَبِّهين صفاته بصفات المخلوقين، ولا مؤولين لها ولا مُعْطِلين، ومع اعتقادهم الراسخ بأن الله ليس كمثله شيء، وبالعجز الكامل في إدراك كُنه ذاته تعالى أو كُنه صفاته الذاتية والفعلية على حد سواء.

وبذلك سَلِمُوا من تكذيب ربهم، ومن الكذب عليه، ونَجَوْا تبعاً لذلك من العذاب المتوَعَّد به من كَذَبَ الله تعالى أو كَذَبَ عليه في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾ (الزمر: 32).

براءة واعتذار !!

اللهم إني أبرأ إليك من كفر كل من كفر بك، ومن إلحاد كل من ألحد في أسمائك أو صفاتك، ومن شرك كل من أشرك بك في ربوبيتك أو ألوهيتك.

وأعتذر إليك من كل استدلال استدلت به عليك، ومن كل قياس عقلي وضعته تدليلاً على وجودك، وأنت مُوجد كل موجود، ومن كل برهان أتيت به على إثباتك، وإثبات جلالك وكمالك، ومن كل دليل مادي سقته لأثبت به وجودك؛ لأنك يا ربّي أنت الدليل على وجودك، والبرهان على جلالك وكمالك، فكيف يصح طلب الدليل للدليل، والإتيان بالبرهان على البرهان؟؟

قالوا ائتنا ببرهان فقلّلتُ لهم أني يقوم على البرهان برهان

اللهم، إنا - كلُّ عبادك المؤمنين بك - قد عرفناك بك، ولم نعرفك بغيرك، إنك أنت الذي تعرفت إلينا بنعمك وآلائك علينا، وبنور الإيمان الذي جعلت في قلوبنا، فعرفناك ربنا، ورب كل العالمين، وإلهنا، وإله الأولين والآخرين.

اللهم، إننا لم نعرفك - وأنت تعلم - بقياس، ولا تطلّب منّا لك والتماس، وإنما عرفناك بما فطرت نفوسنا عليه من الإيمان بك، والافتقار إليك، والتوكل والاعتماد عليك. فطرنا بوجودك ناطقة، وأحوالنا المتبدلة المتغيرة بكمالك شاهدة! هيهات هيهات يا ربنا أن تُعرف بالقياس⁽¹⁾، وأنت رب الناس، وملك الناس، وإله الناس، أو أن تُثبت بالدليل وأنت خالق المستدل والدليل. اللهم إن شفيعى عندك، ووسيلتى إليك في العفو عني، ما قد علمته مني من شعور⁽²⁾ بالحياء والخجل، وأنا أدلل عليك وأبرهن على وجودك، وأنت الظاهر الذي لا يخفى، والموجود الذي به قام كل الوجود!

(1) ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تعالى) في كتاب توحيد الربوبية من فتاواه: أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قيل له: بماذا عرفت ربك؟ فقال: من طلب دينه بالقياس لم يزل دهره في التباس، خارجاً عن المنهاج، ظاعناً في الاعوجاج، عرفته بما عرف به نفسه، ووصفته بما وصف به نفسه. وذكر أيضاً أن شيخاً عارفاً قيل له في ذلك فقال: عرفت الأشياء بربي، ولم أعرف ربي بالأشياء. مجموع فتاوى ابن تيمية (2/18).

(2) حقاً لقد كنت أشعر بشعور غريب لم أستطع أن أعبر عنه إلا بأنه ضرب من الحياء والخجل، وما في معنهما، وذلك أثناء كتابتي للبحوث المتعلقة بوجود الله تعالى والإيمان به في هذه الرسالة، لا سيما عند الاستدلال والنظر، والقياسات العقلية، إذ كان يهاجمني شعور باطني فطري بأن الله تعالى لا ينكر وجوده، ولا يقوى على إنكار وجوده أحد، وكيف نرضى بالحياة أن نقبلها خالية من الله والإيمان به؟ وكيف؟؟!!

التَّوْحِيدُ

ما هو التوحيد ؟

التوحيد: مصدر وحد الشيء، يوحد توحيداً: إذا أفرد، ونفى عنه التعدد. والتوحيد في عرف الشرع نفى الكُفء والمثل عن ذات الله تعالى وصفاته، وأفعاله، ونفى الشريك في ربوبيته، وعبادته عز وجل. قال تعالى في نفى الكُفء: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

وقال في نفى الشريك في الربوبية: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ﴾ (الرعد: 16). وقال: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدَبِّرُ الْأُمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (يونس: 31).

وقال في نفى الشريك في العبادة: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: 19). وقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: 162).

ومن هنا كان التوحيد ثلاثة أقسام: توحيد في الذات، والأسماء والصفات، وتوحيد في الربوبية، وهي اختصاصه تعالى، وتفردّه بالخلق، والرزق، والتدبير لسائر الخلق والملكوت، وتوحيد في الألوهية، أي في العبادة، وهو اختصاصه تعالى بسائر العبادات، وتفردّه بها دون سائر مخلوقاته سواء من كمل منهم وشرف كالملائكة والأنبياء، والصالحين، أو كان دون ذلك من سائر الناس والمخلوقات.

وقد تقدم قريباً بحث توحيد الذات، والأسماء والصفات، وسيفرد كل من توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية ببحث خاص، تبين فيه حقيقته، وما ينبغي للمؤمن أن يعلمه منه، ويعتقده فيه.

توحيد الربوبية

ما هو توحيد الربوبية ؟

لا بد للإجابة عن هذا السؤال إجابة كافية تحدد المعنى المسئول عنه، وتُظهره بوضوح، لا بد من معرفة مدلول كلمة (الرب) التي منها اشتق لفظ الربوبية، إن لفظ «الرب» يطلق على عدة معانٍ، منها السيد، والمالك، والمربي والمصلح، والمعبود بحق سبحانه وتعالى؛ إذ لفظ الرب يطلق عليه إطلاقاً حقيقياً. ويطلق على غيره إطلاقاً مجازياً، إضافياً لا غير.

ومن هذه المعانى الكثيرة للفظ «الرب» اشتق اسم الربوبية التى تعنى الخلق، والرزق، والملك، والسيادة، والتربية، والإصلاح، والتدبير. ولكون الله تعالى هو الرب الحق للعالمين، اختص بالربوبية دون سواه، ووجب توحيدِه فيها، وامتنع عنه الشريك فيها، بحيث لا تصلح الربوبية لغيره من سائر خلقه ولا تصح.

ومن هنا أصبح توحيد الربوبية معناه نفى الشريك عنه تعالى فى صفات الربوبية الحقة، والتى هى الخلق، والرزق، والملك، والتدبير الذى من لوازمه الإماتة والإحياء، والعطاء والمنع، والضر والنفع، والإعزاز والإذلال. ولا يُخلُّ بتوحيد الربوبية، أو يضره أن يقال: فلان رب الدابة، أو فلان سيد قومه، أو فلان يملك كذا، أو فلان يربى، أو يصلح، أو يحكم؛ إذ هذا الإطلاق لا يعنى أكثر من أن الله تعالى رب كل شىء، ومليكه، وهبهم من فضله ما أصبحوا منه يتمتعون بهذا القدر من الملك أو السيادة، أو التربية والإصلاح، وهى نسب إضافية لا غير؛ إذ الواقع المشاهد لا يثبت للإنسان ملكاً حقيقياً، ولا سيادة من كل وجه، ولا تربية زائغة عن الإرشاد والتوجيه، ولا إصلاح ولا حكم بغير إنفاذ شرائع الله تعالى فى عباده، وإصلاحهم بها.

فطرية الإقرار بالربوبية:

وعقلاء الناس فى كل زمان ومكان يتحاشون دائماً أن ينسبوا شيئاً من صفات الربوبية لغير الله تعالى، الرب الحق الذى لا رب غيره، ولا إله سواه، وذلك لما يعلم الإنسان العاقل ذو الفطرة السليمة من عدم صلاحية المخلوقين للاتصاف بصفات الربوبية، وعجزهم عنها؛ لأن المخلوق لا يخلق، والمملوك لا يملك.

ويكفى شاهداً على هذه الحقيقة اعتراف مشركى العرب حين نزول القرآن وهم يدعون إلى عبادة الله تعالى وحده، اعترافهم بعدم صلاحية آلهتهم لشيء من صفات الربوبية وحقائقها، مع شدة تعصبهم لتلك الآلهة، وتقديسهم لها، وتعظيمهم؛ فإنهم كانوا لا يترددون فى الاعتراف بعدم صلاحية الإنسان فضلاً عن غيره من التماثيل والأصنام، للاتصاف بصفات الربوبية، فلم يكونوا ينتحلونها لأفرادهم، ولا لآلهتهم، ولا يدعونها لهم بحال، وذلك لما وقر فى نفوسهم بحكم الفطرة البشرية من عجز المخلوقين عن الخلق، والرزق، والتدبير، والملك.

وقد سجل القرآن الكريم عجزهم واعترافهم فى غير آية منه، ومن ذلك قوله تعالى من سورة يونس: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ (الآية: 31).

وقوله سبحانه من سورة الزخرف: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ (الآية: 9).

وقوله من سورة المؤمنون: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿(الآيتان: 86-87).

وقوله: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (الزخرف: 87).

الإلحاد الشيوعى:

ويضاف إلى تلك الحقيقة حقيقة أخرى، وهى أنه لم يعرف الإلحاد بإنكار الخالق عز وجل بين أجناس البشر قاطبة إلا فى القرنين الثامن عشر، والتاسع عشر الميلاديين، وبخاصة عندما ظهر المذهب الشيوعى الماركسى اللينينى المدمر، والذى نكبت به أوروبا وأنحاء كثيرة من العالم؛ فإنه وإن كان هناك كفر بالله تعالى، وشرك به بين الأمم والشعوب البشرية، غير أن الشعور الفطرى قائم فى كل نفس بالاعتراف بوجود سلطان غيبى هو سلطان الله تعالى، والناس يتوسلون إليه بشتى الوسائل استجلاباً للخير منه، ودفعاً للشر بواسطته. إن كل الآلهة التى أوجدها الإنسان باطلاً، وقدم لها مختلف العبادات، وتقرب إليها بشتى القرب، الأصل فيها الشعور الفطرى بوجود الله، الخالق، المدبر للخلق، والكون معاً.

عوامل الإلحاد فى العالم:

إن العوامل التى ساعدت على انتشار الإلحاد فى العالم، ومكنت للمذهب الشيوعى الإلحادى المدمر فى أوروبا وغيرها قد تكون كثيرة، غير أن أهمها عندى وفى نظرى خمسة لا غير: وهى:

- 1 - ظلم الكنيسة النصرانية، وتحالفها مع الملوك النصارى على استعباد الشعوب النصرانية، واستغلالهم باسم السلطة الروحية الدينية.

- 2 - فساد الديانة النصرانية، وبطلانها، ومنافاتها للعقول، وتصادمها مع حاجات الإنسان الفطرية، الأمر الذى يسهل على الناس من أتباعها التكر لها، والكفر بها بمجرد وجود من استطاع أن يفلت من زمامها، ويتنقدها، ويبين خطأها.

- 3 - طفرة العلوم الكونية، والصناعية والآلية، طفرة أدهشت العقول وحيرتها، الأمر الذى حمل الناس على تصديق كل نظرية تأتى باسم العلم ونظرياته، وإن كانت النظرية فرية ظاهرة معلوم كذبها، ومعروف كاذبها؛ وذلك لأن المرء إذا ضعف أمام أية قوة مادية أو روحية يفقد كل قواه العقلية والبدنية، ويصبح قابلاً لكل ما تمليه عليه، مستجيباً لكل ما تدعوه إليه، مصداقاً لكل ما تقوله وتخبر به.

4 - ميل الإنسان بطبعه إلى الشهوات والملاذ، ونفوره من القيود، والأنظمة التي تحد من ميوله، وتوجه غرائزه، لا سيما إذا وجد مُشجعاً على ذلك، مؤيداً له في نزعته التحريرية الإباحية، التحليلية من كل القيود الأخلاقية، والالتزامات الدينية الشرعية.

5 - غيبة الحكم الإسلامي، وخفوت نور الإسلام، وتقلص ظل سلطانه الروحي، وانحسار مدّه الخيري الذي كان يعطى البشرية في شتى أنحاء العالم طاقات كبيرة من القيم الروحية، والأخلاق البشرية الفاضلة الكريمة؛ إذ الفترة التي ظهر فيها المذهب المادي الشيوعي كان الإسلام قد ران على عقائده رين الخرافات والضلالات، وحل بدياره الدمار، وبأسواق علومه ومعارفه الكساد والبوار، نتيجة لكيد أعدائه له، وغفلة بنييه عنه، فوجد لذلك المذهب الإلحادي الجو خالياً للتضليل، والمغالطة، والفساد، فحكم على الأديان كلها بالبطلان، ونسب كل ضعف في الناس إليها، وكفر بها وحاربها، ووجه نقده إليها بلا هوادة.

أما والله لو وجد الإسلام حاضراً ما غاب، فوجد اختراعاته، وتفوقه في كل مجالات الحياة العلمية، من كونه، وتقنية، وتشريعية، وروحية، ووجد عدله في شعوبه، ورحمتهم في الناس أجمعين، ووجد سعادته تغمر أهلّه، وتتعداهم إلى خصومهم وأعدائهم، لما أمكن المذهب الإلحادي أن يقول، فضلاً عن أن يجول أو يصول، ولكن الأمر كما قال القائل:

بذا قضت الأيام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

هذه خمسة عوامل، كل واحد منها ساعد على نشر المذهب الإلحادي المدمر الذي يجتاح العالم اليوم، وقد يحول البشرية إلى حيوانية من أحط ما تكون الحيوانية إن لم يعارض بسرعة، ويوقف عند حده.

وإنى لا أرى أن مذهباً في العالم، أو قوة ستعارضه، وتوقفه عند حده فضلاً عن أن تبدده، وتقضى عليه، اللهم إلا أن يكون الإسلام، والإسلام وحده، إذا ما رزق دولة عظيمة، تؤمن به في صدق، وتطبقه بحزم وعزم وتعطيه الحكم والقيادة، فإن هذه الدولة سوف تحل عقدة الإلحاد المستعصية وترى الناس زيف النظريات الإلحادية، وإدعائها الباطلة ضد دين الله الحق.

أوروبا هي الضحية الأولى:

وبما أن أوروبا هي التي جرّت هذه المحنة على العالم الإنساني، فإنها ستكون قطعاً هي الضحية الأولى للإلحاد الشيوعي، وقد كانت فعلاً - وحتى لا نكون قد تجنينا عليها في هذا فإننا نقول: إنه بعد أن ظهر الإسلام، وعرفت أوروبا في الجملة صلاحيته لهداية البشر، وإعدادهم للحياة الفاضلة، وسعادة الدنيا والآخرة، بدّل أن تعتقه ديناً، وتحتضنه مبادئ خير، وسعادة،

وإسعاد، قاومته ووقفت في طريق تقدمه وانتشاره، ومن العجيب أنها حاربت به باسم الدين المسيحي والنصرانية كأنها لم تدرك أن الإسلام هو دين الحق الذي أرسل به نبيه محمداً ﷺ إلى البشرية كافة. وأما المسيحية فلم تكن سوى دين إقليمي محلي فقط ؛ لأن عيسى عليه السلام لم يكن رسولا إلى غير بني إسرائيل أبداً. فقد قال هو بنفسه: «لم أرسل إلا إلى خراف بني إسرائيل الضالة»⁽¹⁾. وقال عنه القرآن الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف:6).

أما محمد ﷺ فهو رسول الله إلى الناس كلهم أجمعين بدليل قوله هو ﷺ: «وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس كافة»⁽²⁾. وقول الرب تعالى له: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:158).

وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ (سبا:28).

وقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:1).

والأغرب من هذا أن اليهود الذين حاربوا السيد المسيح وألجأوا حواريه إلى رؤوس الجبال، والذهاب في كل منأى بعيد فراراً بدينهم، هم الذين وضعوا الديانة النصرانية الباطلة، التي حاربت أوروبا الإسلام من أجلها. إن اليهود يبدو أنهم لما رأوا مبادئ السيد المسيح تنتشر في شرق أوروبا طاردوها، فتمسح من تمسح خديعة وغشاً حتى تمكن من العبث بالدين المسيحي وتحويله إلى دين وثني يبرأ منه المسيح الذي قال في مهده:

﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ (مريم:30). وقال وهو نبي ورسول: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (المائدة:72).

وليس أدل على ذلك من أن الإنجيل الواحد قد حُوِّل إلى عدة أناجيل⁽³⁾.

أقول: إنه بعد أن تجلّى لأوروبا صلاحية الإسلام، وأنه رحمة الله العامة للناس أجمعين أبيضهم وأسودهم، ولم يكن دين العرب وحدهم، ولا دين الآسيويين دون الأفارقة، أو الأوروبيين ؛ بل هو دين البشرية كلها حيث كانت ووجدت.

(1) إنجيل «متى» الإصحاح (15) فقرة (24).

(2) رواه البخاري ومسلم مطولاً، للؤلؤ والمرجان (1/104).

(3) بلغت الأناجيل بعد تحريفها خمساً وثلاثين إنجيلاً. ثم اختير منها خمسة أناجيل، وهى المتداولة الآن عند فرق النصراني في أنحاء العالم.

أقول بعد أن ظهرت لأوروبا صلاحية الإسلام لهداية الناس أجمعين، بدل أن تقبل عليه، وتحتضنه وتسعد به، وتسعد الناس به أخذت تحاربه، وتحارب المؤمنين به، والمتبعين لمنهجها، فشنت حروباً صليبية لا هوادة فيها، وأخرى استعمارية لا رحمة فيها، وقضت بها على الخلافة الإسلامية بعد أن استعملت أسلوب اليهود في المكر واللدس والخديعة، لإفساد العقيدة الإسلامية، فتعاونت سراً وعلانية مع الزنادقة والباطنية، والمتصوفة والطريقيين، ومع سائر الفرق الإسلامية المنحرفة، الضالة، ممن يحسبون على الإسلام وهم أشد أعدائه فتكاً به، وإفساداً له، وقضاءً عليه.

وأخيراً:

وبعد أن قررت أوروبا التخلي عن مستعمراتها الإسلامية لعدم الجدوى لها في بقائها فيها، صنعت على عينها ويدها رجالاً من مستعمراتها ملء إهاب أحدهم عداوة للإسلام، وحنقاً عليه، وتقزراً منه، واستخفافاً به، وبمبادئه وشرائعه، وسلمتهم السلطة المحلية، وخرجت من الباب لتعود من النافذة، وتجلس على عرش قلوب أولئك الصنائع لتسخرهم عملاء لها، يواصلون نيابة عنها حربهم للإسلام وأهله، وكذلك كانوا وفعلوا حتى لم يبق من الإسلام إلا الاسم، ومن كتابه إلا الرسم.

وبناء على الحكمة القرآنية القائلة: ﴿وَلَا يَحِقُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: 43). فإن أوروبا ستذوق في يوم من الأيام أقسى محنة، وستجزع أعظم غصة، نتيجة جريمتها على الإسلام دين الله الذي هو دينها، ولا دين لها على الحق سواه، وما ظلمها الله فيما سيصيبها به، ولكن كانت هي الظالمة.



شرك الربوبية

ومظاهره في الأمة الإسلامية

قد يبدو غريباً جداً - بعد أن قدمنا أن مشركى العرب أيام البعثة المحمدية لم يكونوا يشركون في ربوبية الله تعالى أحداً من خلقه - اعترافنا بوجود مظاهر لشرك الربوبية في الأمة الإسلامية اليوم، غير أن هذا الاستغراب سيزول بمجرد وقوف المرء على مظاهر الشرك واضحة جليلة في شتى مجالات حياة كثير من المسلمين.

وهنا بيان مقتضب لتلك المظاهر الشركية في بعض أفراد الأمة الإسلامية نذكرها تحذيراً منها، وتعليماً بأن عقيدة المؤمنين الحقبة خلو من كل مظاهر الشرك، وآثاره، لابتنائها على هدى الكتاب والسنة، كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

1 - اعتقاد كثير من عوام المسلمين وأشباههم أن هناك في الكون أقطاباً، وأبدالاً من الأولياء والصالحين لهم قدر من التصرف معين في حياة الناس؛ فهم يولون ويعزلون، ويعطون ويمنعون، ويضرون وينفعون، كما شاع بين عوام المسلمين أن لهؤلاء الأقطاب والأبدال ديواناً يطلق عليه ديوان الصالحين، منه تصدر القرارات والمراسيم بربح فلان ونجاحه، وخيبة فلان وخسرانه.

ومن هنا تعلق قلوب كثير من الناس بالصالحين، وهتفت بهم الألسنة، واستغيث بهم، ودعوا عند الشدائد، ونودوا للخلاص من المحن، وهو مظهر واضح للشرك في الربوبية، لما فيه من اعتقاد التصرف والتدبير في الكون لغير الله تعالى، أو له ولغيره معه سبحانه وتعالى.

2 - اعتقاد كثير من المنتسبين إلى العلم أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بعد موتهم، وشاع هذا الاعتقاد الكاذب الباطل، ورسخ في نفوس كثير من المسلمين حتى أصبحت الأضرحة والمشاهد والقبور ملاذاً لكل خائف، ومستشفى لكل مريض. فمن أصابه كرب، أو نزل به ضيم، أو حلت به نكبة، فزع إلى تلك الأضرحة، والمشاهد، والقبور، وأناخ بساحتها، وتعلق بأهداب أصحابها، راجياً منها تفريج كرب، وقضاء حاجته!

فكم من مريض نقل إلى تلك الأضرحة، وذهب به إليها، وكم من ذى عاهة، أو صاحب حاجة قد أمها، وقصدها، ونزل بساحتها، وكله رجاء وطمع في أصحابها، حتى شاع بين العوام قول: «إذا تعسرت الأمور، عليكم بأصحاب القبور» فيأتونهم للاستعانة بهم، والدعاء عندهم. ومثل هذا لا يشك عاقل من المؤمنين في أنه شرك ظاهر؛ لما فيه من اعتقاد أن لأرواح الأولياء والصالحين تصرفاً بالعطاء والمنع، والضر والنفع.

وهذا من خصائص الربوبية؛ إذ هو من التدبير للخلق الذى اختص به الرب تبارك وتعالى.

3 - الرهبة من الجن والخوف منهم، والاستغاثة بهم، وتقديم القرابين لهم، كالتى تذبح على حافات الآبار عند حفرها، وعلى أعتاب المنازل عند إتمام بنائها، وإرادة السكن بها، وكالتى تذبح عند انتشار الأوبئة، والأمراض المعدية. كل هذا موجود بين جهال المسلمين وهو شرك ظاهر فى ربوبية الله تعالى؛ إذ الحامل عليه اعتقاد أن الجن لهم تصرفات خارجة عن إرادة الله تعالى وتدبيره.

وهذا مما ألقاه الشيطان فى قلوب أوليائه من الإنس فعملوا به، وأشاعوه، ونشروه حتى أصبح عقيدة فى نفوس الجهال من المسلمين.

وهو إشراك لشياطين الجن فى ربوبية الله تعالى، وإيمان بهم والعياذ بالله تعالى.

4 - تقديس المشايخ من رجال التصوف والطرقين، والمشعوذين، وطاعتهم فى غير طاعة الله تعالى وطاعة رسوله، بل فيما هو مكروه لله ورسوله ﷺ، وقبول ما يشرعون لهم من البدع، وما يسنون لهم من سنن الباطل، واتباعهم فى ترك سنن الهدى، ومعاداتها، ومعاداة أهلها، والداعين إليها، والاستجابة المطلقة لهم بحيث يمكنونهم من نفوسهم فيتسلطوا عليها، ومن أرواحهم فيهيمنوا عليها، فاعتقدوا فيهم أنهم يعلمون سرهم ونجواهم وأنهم يكاشفونهم فى كل أحوالهم، ويطلعون منهم على كل مخبآت نفوسهم، فذلوا لهم، وهانوا، وضعفوا أمامهم، واستكانوا لهم حتى مكنوهم من أنفسهم، وأمورهم، وأعراضهم.

فهل هذا الخضوع، والذل، والطاعة المطلقة، والتسليم التام لهم لا يُعد شركاً فى ربوبية الله تعالى، وهل أولئك الرجال الذين استعبدوهم لا يعدون أرباباً وآلهة لهم؟!

5 - الخنوع للحكام غير المسلمين، والخضوع التام لهم، وطاعتهم بدون إكراه منهم لهم، حيث حكموهم بالباطل، وساسوهم بقوانين الكفر والكافرين، فأحلوا لهم الحرام، وحرّموا عليهم الحلال فأطاعوهم فى كل ذلك، ولم ينكروا عليهم، ولم يرفضوا لهم.

إن الاتصاف بهذا الذى ذكرنا، والقيام عليه، والرضا به، والاقتناع بصحته شرك ظاهر فى ربوبية الله تعالى؛ لأن الطاعة فى معصية الله تعالى بدون إكراه عليها كفر بصاحبها، ويشهد لهذا ويصححه حديث عدى بن حاتم الطائى الذى كان قد تنصر فى الجاهلية، ثم أسلم، وسمع الرسول ﷺ يقرأ قول الله تعالى فى شأن أهل الكتاب: ﴿اتَّخِذُوا أَحِبَّارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة: 31). فَأَنْكَرَ عَدَى أَنْ يَكُونُوا عِبَادُهُمْ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ ﷺ: «أَلَيْسُوا يَحْلُونَ لَكُمْ الْحَرَامَ

فتحلونه ؟ ويحرمون عليكم الحلال فتحرمونه ؟ فقال: بلى. قال النبي ﷺ: فتلك عبادتهم»
(رواه أحمد والترمذي وحسنه).

وأخيراً: فتلك بعض مظاهر شرك الربوبية في الأمة الإسلامية اليوم، وإن تساءلنا عن أسبابها فإننا لا نجدُ بداً من القول بأنها كانت نتيجة جهل الأمة بكتاب ربها وسنة نبيها، وذلك لبعدها عن دراستهما، والعمل بهما زمناً غير قصير، مع ما دسه عليها خصومُ إسلامها، الحانقين عليها والتأقمين منها، مما أفسد عقيدتها، وبَعَدَ بها كل البعد عن مركز القوة وهو العلم والإيمان.

توحيد الألوهية

إن توحيد الألوهية - العبادة - جزء هام من عقيدة المؤمن ؛ إذ هو ثمرة توحيد الربوبية، والأسماء والصفات، وجَنَاهُ الطَّيِّبُ، وبدونه يفقد توحيد الربوبية، والأسماء والصفات معناه، وتنعدم فائدته.

إن توحيد الربوبية يدور على المعرفة بالله وربوبيته ونفى الشريك له في ذلك، كما أن توحيد الأسماء والصفات يدور على إثبات أسماء الله تعالى وصفاته، ونفى الشريك في الأسماء، وعدم التمثيل، والتأويل، والتعطيل في الصفات.

وأما توحيد الألوهية: فهو أفراد الله تعالى بالعبادة المستلزم لعبادة الله تعالى بكل ما شرع أن يُعبدَ به من أعمال القلوب والجوارح، وأن لا يشرك معه غيره في شيء منها، مع عدم الاعتراف بعبادة غيره تعالى. وهو أيضاً - توحيد الألوهية - تعلق القلب بالرب تعالى خوفاً ورجاءاً، ورهبةً وطمعاً، كما هو إسلام الوجه لله تعالى، ووقف الحياة كلها عليه، فلا شيء للعبد هو لغير الله تعالى، بدليل قول الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الآيتان: 162، 163).

بهذا أمر رسول الله ﷺ أن يقول ويجاهر به، ويمثله أمر إبراهيم عليه السلام، إذ قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجْهَتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: 78، 79).

إن لهذا التوحيد - توحيد الألوهية - شأنًا وخطراً، وينبئ عن ذلك أن كافة الرُّسل الذين بعث الله تعالى بهم إلى الأمم والشعوب كان كل واحد منهم يبدأ دعوته حينما يبدوها بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ سورة الأعراف الآيات (59، 65، 73، 85) وسورة هود الآيات (50، 61، 84).

وهو مضمون كلمة «لا إله إلا الله» التي جاء بها خاتم النبيين والرسل محمد ﷺ، ودعا إلى قولها واعتقادها، ولم يطالب بغيرها طيلة عشر من السنين، ومن أجلها عودى، وأوذى، وحُورب، كما عودى، وأوذى، وحُورب، كلٌّ من دعا إليها من جميع الرسل وأتباعهم، وذلك لأن قولها واعتقادها يستلزم الكفر الكامل بكل ما عبد الناس من آلهة دون الله سبحانه وتعالى، وعرفوها بعد فقدهم لهداية الله تعالى بموت الأنبياء، وانقراض أهل العلم العارفين بالله تعالى وشرائعهم، يُضاف إلى ذلك أن كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» تقتضى بل وتوجب المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات، فلم يبق بين الناس من يتميز عنهم ميزة يستعلى بها عليهم فيترفع ويتكبر، أو يستعبد الناس أو يتحكم فيهم، أو يحكمهم بغير شرع ربهم، كما جاء مضمون ذلك فى كتاب رسول الله، إلى هرقل ملك الروم.

ونصه بعد البسملة والديباجة: «يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم: أن لا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله» (أخرج البخارى: 1/ 97، 4/ 54-57).

ومن هنا كانت الخصومات تبلغ أشدها بين الرسل وأممهم، لما تدل عليه عبادة الله تعالى وحده من الكفر بكل معبود سوى الله تعالى، وترك عبادته، والبراءة منه. كما قال تعالى فى كتابه من سورة المجادلة: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (الآية: 22).

وكما أخبر تعالى عن خليله إبراهيم والمؤمنين معه وهو يدعوننا إلى الاقتداء بهم فى الوقوف ضد الشرك والمشركين - حيث يقول تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ (الممتحنة: 4).

إن مدلول كلمة «لا إله إلا الله»: الإيمان بالله وحده بأن يُعبد ولا يُشرك به شىء من خلقه. والكفر بكل طاغوت صارف عن عبادة الله تعالى، وطاعته وطاعة رسوله ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: 36).

والطاغوت هو كل ما عبد من دون الله، أو صرف عن عبادة الله تعالى من معبود رضى لنفسه بأن يُعبد مع الله تعالى، أو متبوع، أو مطاع فى غير طاعة الله ورسوله ﷺ.

هذا ولكى نوفى توحيد الألوهية ما يستحق من البيان والتوضيح لخطورة شأنه، فإنه لا بد من شىء من التفصيل والتطويل. فنقول إن توحيد الألوهية أو العبادة، له طرفان وواسطة:

فالطرف الأول: مخلوق ضعيف محتاج لا يبرح دهره باحثاً عما يقوى ضعفه، ويجلب له ما ينفعه، ويدفع عنه ما يضره، وهذا المخلوق الضعيف المحتاج هو الإنسان.

والطرف الثاني: هو ربُّ قوى غنى، سميع عليم، عزيز حكيم، وهو الله المعبود بحق سبحانه وتعالى.

والواسطة: هى أقوال وأعمال واعتقادات يحبها الله تعالى ويرضاها، وهى العبادة التى يقوم بها العبد طاعة لله تعالى وتقرباً إليه. وبناءً على أن توحيد العبادة هو إفراد الله تعالى بالعبادة التى هى جميع ما أحب الله تعالى أن يُعبد به من أعمال القلوب والجوارح، كما سبق بيانه وعلى ضوء هذا التعريف يتقرر ما يلى:

(1) الإنسان بحكم الضعف المتأصل فيه، وافتقاره اللازم له، لا يخرج عن وصف العبودية بحال من الأحوال، ولذا فإنه لم يُرَ فى جميع أطواره التاريخية، وعصوره البشرية إلاَّ عابداً لا ينفك عن العبادة، إما لله تعالى متى عرفه، وآمن به رباً وإلهاً، أو لغيره من شتى الكائنات التى يتصور فيها القدرة الكافية على جلب الخير له، ودفع الشر عنه، عندما يجهل ربه، ولا يؤمن به إلهاً ومعبوداً، لعامل اقتضى ذلك منه.

(2) لا يصح عقلاً ولا شرعاً أن يُعبد غير الله تعالى، ولا تنبغى العبادة إلا له سبحانه وتعالى، وذلك لأنه لا يوجد فى الكون قوى غنى، سميع عليم، عزيز حكيم، قوته وغناه، وسمعه وعلمه، وعزته وحكمته ذاتية له ليست مستمدة له من ذات أخرى إلا الله سبحانه وتعالى، ونوضح هذا المعنى فنقول: إن الإنسان وهو سيد هذه المخلوقات، وأشرفها وأفضلها على الإطلاق جميع كمالاته الخلقية والخلقية، أو الجسمانية والروحية ليست ذاتية له، بل هى موهوبة له من خالقه ذى الجلال والكمال المطلق لا إله إلا هو، ولا رب سواه، ودليل كون الإنسان كل كمالاته موهوبة له، وليست ذاتية له، أنه يخلق يوم يخلق فاقداً لها، ثم توهب له، ولبعض أفراده دون بعض، ومن وهب منهم ذلك قد يسلبه أحياناً، فقد يرى الإنسان عاقلاً، ثم يصير أحمق، وقد يكون قادراً ثم يعجز، ويكون غنياً، ثم يفتقر. فدل ذلك على أن كمال الإنسان ليس ذاتياً له، وإنما هو موهوب له؛ فهو لذلك لا يبرح عبداً ضعيفاً مفتقراً إلى واهبه كماله، وهو الله سبحانه وتعالى. أما الرب تبارك وتعالى فإن كماله ذاتي له. وبهذا يتقرر أن العبادة لا تصح إلا لله، ولا تنبغى لأحد سواه.

(3) إن العبادة لا تكون قربة لله تعالى ووسيلة إليه ينتفع بها العبد فاعلها إلا إذا توفر لها: العلم بها، ومعرفة كيفية أدائها، وإفراد الله تعالى بها فلذا لا تتصور فى الذهن عبادة نافعة إلا من ذى علم وإيمان. فالعلم يحصل للمرء بالإيمان بكتاب الله تعالى. وبقراءته ومعرفة ما جاء فيه ومعرفة كيفية أداء العبادة يتم بالإيمان بالرسول ﷺ، وبمعرفة سنته، واتباعه فيها، وإفراد الله تعالى بالعبادة يثبت للعبد بمعرفة الشرك وتجنبه، ولهذا يتحتم أن نختم هذا البحث المتعلق بتوحيد الألوهية بفصل ضاف نبين فيه الشرك فى

العبادة، ومظاهره اليوم في الأمة الإسلامية ؛ ليكون القارئ المؤمن على بصيرة في عقيدته، وتلك هي الغاية التي توخيناها في وضع هذه الرسالة «عقيدة المؤمن»، والله ولي الأمر والتوفيق.

الشرك في الألوهية

ومظاهره في الأمة الإسلامية

تعريف:

الشرك لغة: الاسم من شركه في كذا يشركه شركاً وشركة، كأشركه فكذا يشركه فيه إذا جعل له نصيباً قليلاً أو كثيراً في ذات، أو معنى، ومثله شاركة في كذا يشاركه فيه: كان شريكاً له فيه بقدر كبير أو صغير في ذات، أو وصف، وهو - الشرك - شرعاً: ضد التوحيد كالكفر ضد الإيمان.

والشرك في ربوبية الله تعالى أو أسمائه وصفاته كفر، وفي عبادته تعالى إن كان الفاعل له عالماً به مصراً عليه كفر كذلك ؛ إذ الشرك في ربوبية الله تعالى وأسمائه وصفاته تكذيب لله تعالى، وكذب عليه عز وجل، وفي عباداته تعالى تأليه لغيره سبحانه وتعالى، وتأليه غير الله تعالى كفر، وتكذيب لله تعالى في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (آل عمران: 18).

وفي قوله: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ (محمد: 19).

وتكذيب الله تعالى كفر بلا شك.

ويختلف الشرك مع الكفر في أن من الشرك ما لا يكون كفراً، وذلك كالشرك الأصغر، والشرك الخفى، لخبر الرسول ﷺ في ذلك وسماعه من بعض أصحابه، ولم يعتبر فاعله كافراً، ولم يحكم برده، من ذلك قوله ﷺ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرَ، قَالُوا: وَمَا الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ»⁽¹⁾ وقوله لمن قال له: ما شاء الله، وشئت: «أَجْعَلَنِي لِلَّهِ نَدَاءً؟ قُل: ما شاء الله وحده»⁽²⁾، والندُّ: الشريك. وقوله لأصحابه لما قالوا: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ: «إِنَّهُ لَا يَسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يَسْتَغَاثُ بِاللَّهِ»⁽³⁾ وقوله ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»⁽⁴⁾. وقوله ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشَّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبٍ

(1) رواه أحمد بإسناد جيد، وتمام الحديث: «يقول الله تعالى إذا جرى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراقبون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء؟» المسند (429/428/5).

(2) رواه أحمد بلفظ: «أَجْعَلَنِي وَاللَّهِ عَدْلًا..» (1/214، 224، 283، 347)، وانظر الفتح الرباني (38/1)، وروى ما يدل على معناه في الدارمي وابن ماجه وكذا أحمد (5/72، 393)، والفتح الرباني (1/27، 28).

(3) رواه أحمد (5/317)، والطبراني بسند لا بأس به، وروى مسلم هذا اللفظ «من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» وهذا الحديث قدس (8/223).

(4) رواه الترمذي (نذور / 9) وحسنه، والحاكم.

النمل» فقبل له: وكيف نتقيه وهو أخفى من ديب النمل يا رسول الله؟ قال: «قولوا: اللهم إنا نعوذ بك أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلمه». (1)

ولم يحكم ﷺ في كل هذا بردة فاعله، ولا بتكفيره، ومن أجل هذا قيدنا الكفر في شرك العبادة بكون فاعله عالماً به أنه شرك، وأصر عليه عناداً ومكابرة، وإيثاراً للمنافع الدنيوية من مال، أو جاه، أو سلطان. ولكي يتضح الموضوع أكثر يحسن أن نذكر هنا جملاً من الكلام على ذات الله وصفاته، وأفعاله، وعباداته مبينين كيف يكون التوحيد، وكيف يكون الشرك والكفر فيها.

(أ) الذات المقدسة:

إن الكلام على ذات الرب تبارك وتعالى معناه تقرير حرمة التفكير فيها، ومحاولة إدراك كنهها، ومعرفة حقيقتها، لما ثبت شرعاً من النهي عن ذلك، ولاستحالة إدراك ذات الله تعالى عقلاً؛ لأن الله تبارك وتعالى ليس كمثله شيء، ولم يكن له كفواً أحد، ولا تدركه الأبصار. ولا تكتنه كنهه العقول. إن مدى ما تصل إليه العقول، وتدركه من الأشياء هو ما كان من جنس المادة المحيطة بها، والرب تبارك وتعالى ليس منها؛ لأن المادة شيء معلوم التكوين، والله ليس كمثله شيء، والمادة المعروفة لدى الإنسان، وهو الخالق لها سبحانه وتعالى، والخالق لا يكون جزءاً من مخلوقه، كما لا يكون شيئاً له بحال من الأحوال. ولهذا كانت عقيدة المؤمن في ذات الله تعالى أنها ذات مقدسة لا تشبه الذوات، وأنها موصوفة بصفات عليا لا تشبه الصفات، وأن الله تعالى سمي نفسه بأسماء حسنى، ووصف نفسه بصفات عليا، وأمرنا أن نناديه بأسمائه، وندعوه، ونتوسل إليه بها وبصفاته العليا فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: 180).

فنحن نناديه، وندعوه بها، ونتوسل إليه بصفاته العليا، فيسمعنا، ويستجيب لنا.

هذه عقيدة المؤمن في ذات الله تعالى فمن شبه ذات الله تعالى بذات المخلوقين، أو ادعى إدراك كنهها، ومعرفة حقيقتها، أو تكلم فيها بما لا علم له من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ؛ فقد كفر وأشرك.

(ب) صفات الله تعالى وأسمائه:

إن الله تبارك وتعالى وصف نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ بصفات عليا، وتعبد المؤمنين بالإيمان بها، وبوصفه بها توسلاً إليه وتقرباً، وسمى نفسه تعالى بأسماء حسنى، فوجب الإيمان بذلك وقبوله، وإطلاقه عليه تعالى على ما هو مراده منه، فمن نفى عنه ما وصف به نفسه، وسماها به من أسماء فقد كفر، ومن شبه تلك الأسماء والصفات بأسماء وصفات المحدثين فقد كفر وأشرك، إذ

(1) رواه أحمد (4/403) وكذلك الطبراني.

هو يتردد في ذلك بين تكذيب الله تعالى والكذب عليه، وكليهما كفر شنيع وظلم عظيم! ومن أول تلك الصفات الإلهية العليا رائماً⁽¹⁾ تنزيهه تعالى، فقد أخطأ، وجهل، وتكلف ما لم يكلف به، وفعل ما لم يؤمر به. ذلك كتأويل يد الله بقدرته فراراً من وصف الله تعالى بلفظ اليد، وك تأويل مجيئه تعالى لفصل القضاء بمجيء أمره، أو ملك من ملائكته فراراً من وصف الله تعالى بالتحول والانتقال الذي تبادر إلى أذهان المؤمنين. وك تأويل استوائه تعالى على العرش بالاستيلاء فراراً من وصف الله تعالى بالاستواء على عرشه. وك تأويل صفة العلو بالقهر فراراً من وصف الجهة والتجيز، إلى غير ذلك من التأويل الذي عُرف به أكثر علماء الخلف، ولم يعرف به أحد من علماء السلف.

وبيان ذلك:

أولاً: أن المؤول لم يرض الله تعالى ما رضى له أعرف الناس به وهو رسوله ﷺ .

ثانياً: أن هذا التأويل لو أرادته تعالى لنفسه لأمر به في كتابه، أو على لسان رسوله ﷺ ولكن حينئذ التأويل لصفات الله تعالى واجباً دينياً يحرم إهماله، ويأثم تاركه. غير أنه لما لم يأذن الله تعالى به كان فعله خطأ وتكلفاً مذموماً محرماً، لما فيه من معنى الاستدراك على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ .

ثالثاً: أن المؤول لصفات الله تعالى فراراً من التشبيه، وخوفاً منه قد جهل حقيقة عظيمة هي استحالة وجود أى شبه بين صفات الله تعالى وصفات عباده؛ إذ لا شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق أبداً، لما أخبر تعالى من أنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، وأنه أحد، ولا كفؤ له، ولهذا لو قال أحد: يد الله كيد زيد أو عمرو، ومجيء الرب تعالى كمجيء خالد أو بكر، واستواء الله على العرش كاستواء الملك فلان أو فلان لكان مشبهاً للخالق بالمخلوق، وهو في ذلك كاذب؛ إذ الواقع يختلف عما قال تماماً، ومكذب لأنه كذب الله تعالى في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى: 11).

ومشرك كافر، لتشريك بعض عباد الله في بعض صفات الله تعالى .

رابعاً: أن هذا المؤول لصفات الله تعالى فراراً من التشبيه، وخوفاً منه قد خفى عليه الفرق العظيم بين صفات الخالق جل وعلا، وبين صفات المخلوقين العاجزين الضعفاء، إنه لو علم أن الفرق بين صفات الخالق وبين صفات المخلوق، كالفرق بين ذات الخالق وذات المخلوق، لما توهم تشبيهاً، ولما لجأ إلى التأويل، فلماذا لنا أن نقول: إن المؤول لصفات الله تعالى خوفاً من الوقوع في التشبيه، قد فهم أنه يوجد شبه ما بين صفات الخالق عز وجل وصفات المخلوق فلماذا هرب منه

(1) رائماً: أى طالباً.

فأول صفات الخالق حتى لا تشبه صفات المخلوق، أما غير المؤول فإنه لم يسمح لخاطره أن يقدر أى شبه بين صفات الخالق وصفات المخلوق، لاستحالة وجود أى شبه بها واقعاً فأطلق صفات الخالق عليه، كما أطلقها على نفسه، وأطلق صفات المخلوق عليه، كما أطلقت عليه شرعاً، وعادة، وعرفاً، وبذلك سلم من الخطأ، والتكلف، والجهل، وبالتالي من الشرك والكفر.

(ج) عباداته تعالى:

قبل بيان عبادات الله تعالى، وكيف يُوحّد الله تعالى فيها نذكر أن الله تعالى لم يخلق الثقلين الإنس والجن في هذا العالم الأرضي إلا لعبادته بذكره، وشكره، وحسن عبادته، دل على هذا قوله عز وجل في كتابه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿ (الذاريات: 56 - 58).

ولبيان أنواع العبادات، وكيف يُعبد بها أنزل الكتب، وبعث الرسل فكانت بذلك عبادات الله توقيفية لا تعلم إلا من طريق الوحي: الكتاب والسنة، وكان من عبد الله تعالى بغير ما شرع لعباده أن يعبدوه به غير عابد لله وإنما هو عابد لهواه، أو للشيطان الذي أغواه، ومن عبد الله بما شرع لعباده أن يعبدوه به لكنه أشرك فيه غيره من مخلوقاته؛ فقد أشرك وكفر، والسؤال الآن هو: ما هي العبادات التي شرعها الله تعالى لعباده ليعبدوه بها، ولا يشركوا معه غيره فيها؟

والجواب: أنها موجودة في الكتاب والسنة، مودعة فيهما، فمنهما تُطلب وبهما تعرف، وها نحن نذكر جملة كافية من أنواع العبادات مبينين وجه كل من التوحيد والشرك فيها توضيحاً لعقيدة المؤمن، واستكمالاً للبحث فيها مبتدئين بالعبادات التي هي من أعمال القلوب منتهين بالعبادات التي هي من أعمال الجوارح.

(أ) أعمال القلوب:

إن المراد من أعمال القلوب هو العبادات التي يقوم بها قلب العبد، وذلك كالإيمان، والمحبة والخوف والخشية، والرجاء، والرغبة، والإنابة، والتوكل، وهذا بيانها مفصلاً:

(١) الإيمان: وهو تصديق القلب بوجود الله تعالى، وربوبيته لكل شيء، وألوهيته للأولين والآخرين مع التصديق بكل ما أمر الله تعالى بالإيمان به واعتقاده، من الملائكة، والكتب، والرسل، والمعاد، والجزاء، والنعيم، والشقاء، والقدر والقضاء، لأمر الله تعالى بذلك في قوله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: 136).

وبناء على هذا فإن عبداً يعترف بربوبية لغير الله تعالى، أو بالوهية لسواه عز وجل فقد كفر وأشرك.

(٢) المحبة: وهى حبُّ الله تعالى وحب كل من يحب من عباده، وما يحب من عقائد عباده، وأقوالهم وأعمالهم، وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة: 165). وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: 31).

وقول الرسول ﷺ: «اللهم ارزقنى حبك، وحب من ينفعنى حبه عندك، اللهم ما رزقتنى مما أحب فاجعله قوة فيما تحب، وما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب»⁽¹⁾، وعليه فمن أحب الله تعالى، وأحب من يحب من عباده، وما يحب من اعتقاداتهم، وأقوالهم وأفعالهم، ولم يشرك في هذا الحب أحداً فقد وحد الله تعالى في هذه العبادة، ومن أحب غير الله تعالى حباً لم يأذن فيه الله تعالى، ولم يشرعه لعباده بل نهى عنه، أو حرمه كحب ما يُعبد من دون الله تعالى، وحبُّ الرؤساء، وحب الدنيا حباً يجعل المحب على طاعة المحبوب في معصية الله تعالى، ومعصية رسوله ﷺ، وعلى تعظيمه، وإجلاله، وإكباره، والدلة له والخضوع، والخنوع، فمن أحب بهذا الحب غير الله تعالى فقد أشرك في عبادة الله تعالى التي هى حب الله والحب لأجل الله تعالى.

(٣) الخشية والخوف (٢):

إن خشية الله تعالى، والخوف منه عز وجل مما تعبد الله به عباده المؤمنين، فقد أمر بخشيته، ونهى عن خشية غيره فى قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوُا اللَّهَ﴾ (المائدة: 44). كما أمر بالخوف منه ونهى عن خوف غيره فى قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران: 175).

وأخبر عن جزاء من يخشونه بالغيب فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ (الملك: 12).

فالخشية والخوف كلاهما عبادة قلبية يجب أن يُفرد بهما الله عز وجل، وتختص به، فمن خاف غير الله تعالى، أو خشيه معظماً له، مستكيناً، يذل له ويطيعه فى معصية الله تعالى، وهو غير مكره له على تلك الطاعة فقد أشرك بالله فى هذه العبادة.

(1) رواه الترمذى بسند حسن، فى كتاب الدعوات (73).

(2) الفرق بين الخشية والخوف أن الخشية تكون مع تعظيم المخشى منه، والخوف يكون بدون تعظيم المخوف منه.

(٤) الرجاء والرغبة:

الرجاء هو الأمل في الخير، وترقب حصوله، وانتظاره ممن يملكه ويقدر على تحقيقه لمن أمله فيه ورجاءه منه، والرغبة: حب الخير وإرادته، والطمع في تحصيله ممن يملكه، ويقدر على إعطائه وهبته، فهي مثل الرجاء، وكلاهما مما تعبد الله تعالى به المؤمنین حيث قال تعالى في كتابه العزيز من سورة الكهف: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الآية: 110).

وقال تعالى: ﴿لَمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ (الأحزاب: 21).

وقال: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: 90).

وأمر رسوله ﷺ بالرغبة إليه تعالى في قوله: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ (٧) وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ (الشرح: 7، 8).

ولما كان الخير كله بيد الله، وليس بيد أحد سواه، وكان الله وحده القادر على إعطائه من يشاء من عباده، وذلك لقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُدْلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: 26).

كان رجاء الخير ورغبته من غير الله تعالى ضلالاً وباطلاً، وكان فاعله مشركاً في هذه العبادة القلبية غير ربه عز وجل.

(٥) الإنابة:

الإنابة وهي الإقبال على الله تعالى، والتوبة إليه. والإنابة عبادة أمر الله تعالى بها في قوله: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ (الزمر: 54).

وأخبر أنه يهدي إليه من ينيب، وأمر باتباع سبيل من أناب إليه، جاء ذلك كله في كتابه القرآن الكريم. ولما لم يكن في الخلق كله من يعطى، أو يمنح، أو يضر، أو ينفع إلا بإذن الله، ولا من يسعد أو يشقى إلا الله سبحانه وتعالى كان من غير المعقول ولا المقبول أن ينيب المرء إلى غير الله تعالى رغبة أو رهبة، خوفاً أو طمعاً، وكانت الإنابة إلى غير الله عز وجل باطلاً وشركاً، وكان من أناب إلى غير الله تعالى تائباً إليه - أى إلى ذلك الغير - راجياً الخير منه، خائفاً من سخطه أو عقابه فقد أشرك.

٦ - التوكل:

التوكل وهو الاستسلام لله تعالى، وتفويض الأمر إليه، اعتماداً ووثوقاً به، أمر الله تعالى به في غير آية من كتابه، وجعله آية الإيمان وعلامته، فقال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (الأحزاب: 48).

وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (المائدة: 23).

وواعد بالكفاية للمتوكلين عليه في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: 3).

وخص التوكل به فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (إبراهيم: 12).

فالتوكل إذا عبادة قلبية وهو سكون القلب إلى كفاية الله تعالى، وتفويض الأمور إلى الله تعالى لكفايته، والاعتماد عليه تعالى لعلمه وقدرته.

ولما كان لا كافي إلا الله، ولا قادر على كل شيء سواه، ولا عالم بكل شيء غيره كان التوكل على غير الله تعالى باطلاً وشركاً، وكان المتوكل على غير الله تعالى سكوناً، ووثوقاً، واعتماداً مشركاً.

(ب) أعمال الجوارح:

إن ما تقوم به الجوارح من العبادات والطاعات كثير جداً، فلذا نكتفي بذكر طرف منه فقط، تذكيراً وتعليماً، وبخاصة ما وقع فيه الشرك بين المسلمين، ومن ذلك:

١. الدعاء:

الدعاء هو سؤال الرغائب، وطلب الحاجات في جلب نفع، أو دفع ضررٍّ من يملك ويقدر. والدعاء من أعظم مظاهر العبادة، وأوضح صورة من صورها حتى قيل فيه: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ»⁽¹⁾، ومن هنا كانت العبادة بدونه ليست شيئاً، أو لا تستقيم ولا تتم إلا به، وهو كذلك؛ إذ في الدعاء الذل للمدعو، والافتقار إليه، والاستكانة له، وتعظيمه، واستشعاره غناؤه، وإحاطة علمه بالداعي، وقدرته على إعطائه ما سألَه فيه مع تجيده، والتوسل إليه بأسمائه وصفاته، إلى غير ذلك من مظاهر العبودية التي لا توجد واضحة بهذه الصورة إلا في الدعاء، وحال السجود، ولذا كان الدعاء في السجود مُستجاباً، لاجتماع مظهرين عظيمين من مظاهر العبادة فيه.

ولما كان تحقيق الرغائب، وقضاء الحاجات أمراً يتوقف حصوله على أن يكون المدعو لذلك، المسؤول فيه مالِكاً لجميع الرغائب وكل الحاجات، قادراً على تحقيق الرغبة وقضاء الحاجة، عالماً بحال السائل الداعي الراغب، يسمع كلامه، ويرى مكانه، ولما لم تكن هذه الصفات لتتوفر لأحد سوى الله عز وجل بطل أن يُدعى غير الله تعالى عقلاً وشرعاً، قال تعالى من سورة الجن: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ (الآية: 18).

(1) حديث حسن رواه الترمذی فی تفسیر سورة البقرة (2969)، وأبو داود فی (1/341)، وهو صحيح، وكذا لفظ: «الدعاء مخ العبادة» رواه الترمذی، وسنده ضعيف.

وبهذا كان دعاء غير الله، وسواء كان المدعو نبياً أو ولياً - شركاً محرماً، وكان من يدعو غير الله تعالى من عباده مشركاً كافراً ظالماً جاهلاً، أو معانداً مكابراً.

٢- الاستغاثة:

الاستغاثة هي طلب الغوث والغياث، وهو ما يغاث به المضطر، ويعان به من طعام، أو شراب، أو نصر وتأييد، أو خلاص من شدة وإنقاذ من محنة.

وهي أى الاستغاثة من جنس الدعاء، فمن لا يدعى لفقره وعدم قدرته وجهله بحال الداعي، وعدم سماع دعائه، وعدم معرفة مكانه وحاله، لا يستغاث به كذلك.

ومن هنا كان من استغاث بمن لا يقدر على إغاثته ممن لا يسمع كلامه، ولا يرى مكانه، ولا يعرف حاله من حى غائب بعيد، لا يرى المستغيث، ولا يسمع استغاثته، أو ميت انقطع عمله من الدنيا، سواء كان نبياً من الأنبياء أو صالحاً من الصالحين، فقد أشرك بعبادة الاستغاثة غير ربه تعالى، وكان بذلك مشركاً كافراً، ولتعلم المؤمن هنا أن سؤال الحى من الناس واستغاثته - أى طلب الغوث منه - إذا كان قادراً على العطاء والغوث، وكان قريباً من الداعي المستغيث يسمع كلامه ويرى مكانه، قد أذن الله فيه، وأباحه لعباده، ولم يجعله عبادة تخصه، يحرم إشراك غيره فيها. وهذا معلوم من الدين بالضرورة.

٣- الاستعانة:

الاستعانة هي طلب العون والمعونة على قضاء حاجة، أو خروج من محنة، وهي من نوع الدعاء والاستغاثة، فلا تطلب من عاجز لا يقدر على الإعانة، ولا من ميت لا يسمع المستعين به، ولا يرى مكانه، ولا يعرف عن حاجته وحاله ولا من غائب بعيد حال البعد دون سماع الدعاء، ورؤية الداعي وإعانتته على ما هو فى حاجة إلى المعونة فيه، وقد أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاستعانة به دون من سواه فى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: 5).

وأوصى رسول الله ﷺ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن يستعين بالله دون سواه فى قوله: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» (1).

ومن هنا كان طلب المعونة ممن لا يقدر عليها من الأحياء لعجزهم، أو غيبتهم كطلبها من الأموات لموتهم، وانقطاعهم عن الحياة، كان ضلالاً وباطلاً، وكان فاعله مشركاً بالله تعالى فى هذه العبادة من عبادات الله التى لا تنبغى لأحد سواه.

(1) رواه الترمذى وصححه فى كتاب القيامة (59).

٤ - النذر:

وهو التزام العبد ما لم يلزمه من الطاعات، وبعبارة أوضح هو التعهد بالقيام بشيء من العبادات تقرباً إلى الله تعالى، أو بشرط أن يقضى الله تعالى له حاجة تعسرت عليه يريد قضاءها، كأن يقول في تعهده: اللهم إن شفيت مريضى، أو رددت على غائبي؛ أو قضيت حاجتى فى كذا .. لك على أن أتصدق بكذا ... أو أصوم أو أصلى كذا وكذا، .. والنذر مما تعبد الله تعالى به عباده المؤمنين، قال تعالى مثنياً عليهم بالوفاء به: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ (الإنسان: 7). وقال مرغباً فيه: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ (البقرة: 270).

وخير النذر ما كان بغير شرط، لكرهية النبي ﷺ للنذر المشروط فى قوله: «النذر لا يأتى بخير، وإنما يستخرج به من مال البخيل»⁽¹⁾. وبناء على هذا فإن من نذر لغير الله تعالى وسواء نذر لحي أو ميت فقد أشرك⁽²⁾، لأن النذر عبادة ظاهرة؛ إذ هو توجه القلب إلى المندور له رغبة فيما عنده من الخير وهو استشعار قدرته وغناه؛ وإظهار الناذر عجزه وضعفه وافتقاره إلى من نذر إليه. وهذا وإيم الله لا يليق إلا بالله تعالى، ويا ويل أولئك الذين يندرون إلى الأولياء والصالحين من أموات المسلمين وأحيائهم فقد وقعوا فى هلكة وهم لا يشعرون، وأشركوا بعبادة ربهم غيره وهم لا يعلمون.

٥- ذبح القرىبان:

ذبح القرىبان وهو ما يتقرب به إلى الله تعالى من الذبائح كالهدى فى الحج وضحايا يوم عيد الأضحى، وشاة العقيقة يوم سابع المولود، وذبائح وليمة العرس، وما يذبح صدقة على الفقراء والمساكين، كل هذا قد شرعه الله تعالى فى كتابه، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ، فكان هذا الذبح تقرباً وعبادة لا تنبغى إلا لله تعالى، ومن ذبح لغير الله تعالى معظماً له، خائفاً منه راجياً ما عنده فقد عبده بهذه العبادة وأشركه فى عبادة ربه عز وجل.

وهنا يحسن التنبيه والتنديد معاً بما يفعله أهل الجهالات من المسلمين اليوم من ذبائح على الأضرحة والقبور فى أيام الموالد والمواسم تعظيماً لمن يذبحون لهم، وتقديساً، ورغبة فى شفاعتهم، وطمعاً فيهم، وتوسلاً بجاههم.

ومثل هذه الذبائح على القبور والمشاهد، ذبائح الزار، والششرة، وعلى حافات الآبار.

(1) متفق عليه بمعناه اللؤلؤ والمرجان (2/ 168).

(2) لا يدخل فى هذا النذر المحرم وعد المؤمن لأخيه إن رزقه الله كذا فإنه يعطيه كذا أو يقرضه كذا.

وعتبات المنازل خوفاً من الجن. إن هذه الذبائح كلها شرك وكفر، والعياذ بالله تعالى من ذلك .

٦. الركوع والسجود:

إن عبادة الركوع والسجود ظاهرة يزاولها المسلمون كل يوم في حياتهم، إذ هما ركن الصلاة اللذان لا تصح الصلاة بدونهما، وقد تعبد الله تعالى بهما سائر عباده المؤمنين، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: 77).

وأمر مريم ابنة عمران به في إخباره عنها بقوله: ﴿يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (آل عمران: 43).

وأمر رسوله بالسجود طلباً للقرب منه فقال: ﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ (العلق: 19).

ومن هنا كان الركوع وهو الانحناء، والسجود وهو وضع الوجه على الأرض عبادة لا تنبغي لأحد مهما كان شأنه إلا لله تعالى، ومن ركع لأحد أو سجد له معظماً إياه، أو طامعاً فيه، أو خائفاً منه، وليس بمكره على ذلك فقد أشرك بربه، وعبد مع الله غيره، وكان فعله شركاً أكبر، لا يغفره الله إلا أن يتوب منه قبل موته، لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: 116).

٧. الطواف بالبيت العتيق وتقبيل الحجر الأسود:

إن الطواف عبادة شرعها الله تعالى لعباده، وأمرهم بها في قوله: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج: 29).

وعليه فمن طاف ببيت غير بيت الله من قبر؛ أو ضريح أو مشهد أو غير ذلك معظماً لما يطوف متقرباً إليه أو به إلى غيره حتى ولو كان إلى الله تعالى، فقد ابتدع وأشرك، وطوافه ذلك شرك أكبر، وبدعة ضلالة من أشنع البدع وأقبحها، لما فيها من التشريع، وهو حق الله تعالى وحده دون سواه، وإن تقبيل الركن اليماني من البيت العتيق عبادة شرعها الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، ولم يشرع لهذه الأمة تقبيل حجر آخر، ولا ركن ولا جدار، ولا قبر ولا ضريح، ولا تابوت، وعليه فمن قبل عتبة، أو جداراً، أو باباً، أو حلقة في باب، أو قبراً أو مشهداً قائماً من المشاهد فقد ابتدع، وإن فعل ذلك تعظيماً لما قبله وتقديساً راجياً منه النفع، دافعاً به الضرر فقد أشرك.

٨. سائر أنواع العبادات:

إن كل ما شرع الله لعباده من الطاعات والقربات ليعبدوه بها تقرباً إليه تعالى وتزلفاً، من

صلاة، وصيام، وحج، واعتماد، وصدقات، وزكوات، واعتكاف، وجهاد، ورباط، وفعل خير من بر وصلة، وذكر، ودعاء، وأمر بمعروف، ونهى عن منكر، وتعليم علم وتعلمه .. كل هذه العبادات وغيرها مما شرعه الله تعالى في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ فعله لغير الله تعالى، وابتغاء مرضاة به غير مرضاة الله شرك في عبادة الله تعالى يتنافى مع عقيدة المؤمن القائمة على أساس التوحيد الدالة عليه كلمة الإخلاص: لا إله إلا الله.

٩. ترك طاعة الله للرغبة أو الرهبة:

لقد أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله لقوله من سورة القتال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ (محمد: 33).

فطاعة الله، وطاعة رسوله في الأمر والنهي عبادة تعبد الله تعالى بها المؤمنون من عباده، فمن ترك طاعتهما غير مكره من أجل أحد من خلق الله كائناً من كان رغبة فيما عنده، أو رهبة مما لديه فقد أشرك، وتركه لطاعة الله تعالى، وطاعة رسوله ﷺ وهو غير مكره رغبة أو رهبة فيمن أطاعه شرك؛ إذ الطاعة في المعروف فقط، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

١٠. تعظيم الله تعالى بالحلف به عز وجل:

إن تعظيم الله عز وجل بتكبيره، والحلف به وإجلاله تبارك وتعالى عبادة تعبد الله بها المؤمنون من عباده، فلذا لا يجوز الحلف بغيره تعالى، ومن حلف بغير الله تعالى، فقد أشرك، لما صح عن النبي ﷺ من النهي عن الحلف بغير الله تعالى، وجعل ذلك من الشرك، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»^(١)، وقال: «من حلف بغير الله فقد أشرك» وفي لفظ «فقد كفر»^(٢)، وقال: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله»^(٣).

هذا ولما كان الكثير من الشرك الذي وقع فيه بعض المسلمين اليوم إنما وقع باسم التوسل والاستشفاع والتبرك، وتحت شعارها فإننا نختم هذا الجزء من هذا البحث في عقيدة المؤمن ببيان كل من الوسيلة والتوسل، والشفاعة والتشفع، والبركة والتبرك تبياناً للحق وهداية إليه.

(١) متفق عليه (٢/ ١٧٠)، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

(٢) رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن، رواه أحمد والحاكم.

(٣) متفق عليه (٢/ ١٧٠) اللؤلؤ والمرجان، ومسلم (٥/ ٨١).

الوسيلة

تعريف:

ما هي الوسيلة:

الوسيلة: لغة اسمٌ فعله وسل إليه بكذا يسل وسيلة فهو واسل، تقرب ورغب، ومثله توسل إليه بكذا توسلاً وتوسيلاً، إذا عمل عملاً تقرب به إليه، فالتوسل والواسل بمعنى واحد، قال أبو طالب في لاميته:

أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم بلى كل ذي دين إلى الله واسل
وتجمع الوسيلة على وسائل، كما في قول لبيد:

ولما رأيت القوم لا ود فيهمو وقد قطعوا كل العرى والوسائل
ويطلق لفظ الوسيلة على المنزلة عند الملك، وعلى الدرجة والقربة، وأطلقت كذلك على أعلى درجة في الجنة، وهي التي قال رسول الله ﷺ: «ثم سلوا الله لى الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة لا تنبغى إلا لعباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لى الوسيلة؛ حلت له الشفاعة». (1)
وأما الوسيلة في الشرع فهي العمل يقدمه المؤمن بين يدي رغبته ليتوسل به إليها (2) فيفوز بمغروبه، ويحصل على مطلوبه.

والوسيلة التي هي التقرب إلى الله تعالى بعمل صالح طلباً للقرب منه تعالى والخطوة لديه والدرجة عنده سبحانه وتعالى، أو لقضاء حاجة بحصول نفع، أو دفع ضرر، هذه الوسيلة الشرعية مبناها ثلاثة أمور:

الأول: المتوسل إليه وهو الله ذو الفضل والإنعام.

والثاني: الواسل أو المتوسل وهو العبد الضعيف، المحتاج، الطالب القرب من الرب تعالى، أو الراغب في قضاء حاجة له من جلب خير، أو دفع شر.

والثالث: المتوسل به وهو العمل الصالح المتقرب به إلى الله تعالى وهو الوسيلة، ولكي تكون الوسيلة مجدية نافعة يحصل بها القرب، أو تقضى بها الحاجة؛ لا بد من مراعاة ما يلي كشرط أساسية لا بد من توفرها للوسائل الذي يريد أن ينتفع بوسيلته:-

(1) رواه مسلم (4/1)، تصوير المكتب التجاري بيروت.

(2) الضمير في إليها عائد إلى الرغبة.

- (1) أن يكون العبد الواسل إلى الله تعالى المتوسل إليه مؤمناً صالحاً.
- (2) أن يكون العمل المتوسل به مما شرع الله تعالى لعباده أن يتقربوا به إليه سبحانه.
- (3) أن يكون العمل المشروع قربة موافقاً في أدائه لما كان الرسول ﷺ يؤديه، فلا يزداد فيه، ولا ينقص منه، ولا يفعل في غير زمانه الذي شرع له، ولا في غير مكانه الذي عين له وحده.
- فلهذا لا يكون عمل غير المؤمن قربة ولا وسيلة أبداً، كما لا تكون البدعة قربة إلى الله تعالى، ولا وسيلة إليه بحال من الأحوال. والوسيلة بهذا المعنى مشروعة مندوب إليها في كل زمان ومكان. قال تعالى في سورة المائدة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الآية: 35).
- وقال عز وجل في سورة الإسراء: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ (الآية: 57).

ففي الآية الأولى أمر وترغيب للمؤمنين في طلب القرب من الله تعالى بفعل الطاعات الزائدة عن الفرائض والواجبات؛ لأن تقوى الله تعالى تتحقق بفعل المأمور، وترك المنهى، وبها تتحقق النجاة من العذاب إن شاء الله تعالى، وطلب الوسيلة وهي القرب من الله تعالى والحظوة لديه سبحانه وتعالى يكون بفعل نوافل العبادات من صلاة، وصيام، وصدقة، وحج، وعمرة، وجهاد، وبغيرها من سائر النوافل، والقرب، والطاعات. وفي الآية الثانية اخبار عن نفر من العرب كانوا يعبدون نفراً من الجن فأسلم النفر من الجن وعبدوا ربهم وتقربوا إليه بصالح الأعمال، والنفر من العرب لم يشعروا بإسلام أولئك النفر من الجن وبقوا يعبدونهم، فأخبر تعالى عن حالهم في هذه الآية الكريمة منبهاً إلى خطئهم، وضلالهم محذراً منه.

الوسيلة جائزة وممنوعة :

والوسيلة منها ما هو جائز، ومنها ما هو ممنوع، فالجائز منها هو كل وسيلة أذن فيها الشارع ندباً أو إباحة، والممنوع منها ما لم يأذن فيه الشارع كراهة أو تحريماً، ولا فرق في ذلك بين التوسل إلى الأمور الدنيوية، أو الأمور الأخروية، فلا بد من إذن من الشارع في جواز الوسيلة، وإلا حرمت، ومن أمثلة ذلك في الأمور الدنيوية:

- (1) شخص يريد أن يحصل على ثروة مالية فبحث عن وسيلة تحقق له مراده فرأى قتل أخيه الغني الذي لا وارث له إلا هو، فهل هذه الوسيلة يجوز استعمالها، للحصول على المال المطلوب؟ والجواب قطعاً: لا، لأنها وسيلة محرمة.

(2) رجل خطب امرأة في نفسها فأبت الزواج منه فرأى أن الوسيلة أن يذهب إلى ساحر، أو دجال يكتب له حرزاً ليحببه إليها حتى تتزوجه. فهل هذه الوسيلة جائزة؟ والجواب، لا. بل هي محرمة شرعاً.

(3) امرؤ سرق له مال ولم يعرف سارقه، فقبل له: إن فلاناً عَرَّافاً اذهب إليه فسيكشف لك عن السارق بواسطة رثيه من الجن، فهل يجوز أن يذهب إليه ليكشف له عن السرقة بواسطة الجن؟ والجواب، لا، لأن هذه الوسيلة محرمة.

(4) رجل مرض له أخوه فعالجه فلم يبرأ، فقبل له: اذهب إلى الضريح الفلاني، واستشف بصاحبه، وناده واستغث به فإن أخاك يبرأ من مرضه. فهل يجوز أن يذهب بمريضه إلى هذا الضريح، ويستشف به ويستغث؟ والجواب لا؛ لأن هذا العمل شرك بالله.

(5) مريض وُصف له شرب كأس من الخمر سبع ليال أو أكثر أو أقل ليبرأ من مرضه، فهل يجوز استعمال هذه الوسيلة لشفائه؟ والجواب: لا.

(6) حكومة مسلمة قيل لها: إن هناك كلاباً بوليسية تكشف عن الجرائم بصورة عجيبة، فهل يجوز أن تستعمل هذه الكلاب في كشف الجرائم؟ والجواب: لا، لأن هذه الوسيلة محرمة؛ إذ البينة لا تثبت إلا بشهادة عدلين من المسلمين، أو بالاعتراف من الجاني، فكيف تقبل شهادة كلب؟!

(7) امرأة أرادت أن تتزوج، فقبل لها: اذهبي إلى فلانة الشوافة فاستخبريها في شأن زواجك بفلان، فإن أذنت لك فتزوجيه وإلا فلا؛ لأنها تعرف بواسطة رأي لها من الجن، فهل يجوز لها أن تذهب إلى فلانة كوسيلة للكشف عن غيب؟ والجواب: لا؛ إذ الوسيلة هذه محرمة شرعاً، وهكذا ما أذن فيه الشارع فقط، فتجوز وسيلة التجارة، والفلاحة، والصناعة، والحماله للحصول على المال، ولكن لا يجوز الربا، والغش، والسرقة، والتلصص لجلب المال.

يجوز التداوى من الأمراض بالأدوية، ولا يجوز التداوى بالسموم، والنجاسات، والمحرمات، يجوز البحث عن المجرمين، والسارقين، واستعمال الوسائل الجائزة لاكتشاف السرقات، ولكن لا يجوز استعمال الكلاب البوليسية، ولا استخدام الكهانة، ولا العرافة، ولا التنجيم بواسطة الكهان والعرافين، والمنجمين.

وفى الأمور الإلهية:

إن المراد من التوسل في الأمور الإلهية هو التوسل إلى الله تعالى في أحد أمرين:

أولهما - وهو أشرفهما -: وهو القرب من الله تعالى، والحظوة لديه، والمنزلة العالية عنده.

وثانيهما: قضاء الحاجات بجلب نفع، أو دفع ضرر، وبعبارة أوضح: هو التوسل إلى الله تعالى للحصول على مرغوب في الدنيا أو الآخرة، والنجاة من مرهوب في الدنيا أو الآخرة.

والتوسل إليه تعالى لا يكون إلا بما شرعه عبادة وقربة يعبد بها عباده المؤمنون، ويتقربون به إليه، فكل توسل إليه تعالى بغير ما شرعه من العبادات والقربات هو توسل باطل ضار غير نافع، ومن هنا تعين أن نذكر جملة صالحة من أنواع الوسائل الشرعية، المباحة، النافعة للواصلين، كما نقفى عليها⁽¹⁾ بذكر جملة أخرى من الوسائل المحرمة الباطلة تعليمياً وتحذيراً. وبذلك نكون قد وفينا هذا الجزء من العقيدة، بحثاً وتحقيقاً. وقبل الشروع ننبه إلى أن الطاعات التي شرعها الله تعالى لعباده قرباً يتقربون بها إليه، ووسائل يتوسلون بها كثيرة، وهي: كل الإيمان والعمل الصالح وأعظمها وسيلة الإيمان بالله ورسوله، ثم أداء الفرائض التي افترضها الله تعالى على عباده، ودون ذلك نوافل العبادات، وترك المحرمات والمكروهات، وذلك لقوله تعالى في الحديث القدسي الذي أخرجه البخاري: «وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه...» الحديث⁽²⁾.

الوسائل المشروعة:

(١) الإيمان:

من الوسائل المشروعة الإيمان بالله تعالى، وبكل ما أمر الله بالإيمان به من الملائكة، والكتب، والرسول، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

والإيمان من أفضل الأعمال، وأشرف الوسائل التي يتوسل بها إلى الله تعالى للحصول على مرغوب، أو النجاة من مرهوب، فقد رضي الله تعالى وسيلة إليه، وأثنى على المتوسلين به في قوله: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَمْنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: 16).

وفي قوله من آل عمران أيضاً: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾ (الآية: 193).

وفي الحديث أن رجلاً توسل في دعائه بالإيمان فقال: اللهم إني أسألك بأنني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد، الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، والرسول ﷺ يَسْمَعُ فَقَالَ: «والذي نفسي بيده لقد سأل الله باسمه الأعظم! الذي إذا دعى به

(1) نقفى عليها: أى نتبعها.

(2) متن البخاري (8/131) - كتاب الرقاق باب التواضع. مطبعة محمد على صبيح وأولاده.

أجاب، وإذا سئل به أعطى»⁽¹⁾، ومن هنا كان لأى مؤمن أو مؤمنة أن يتوسل إلى الله تعالى بإيمانه فى أى حاجة من حوائج الدنيا والآخرة أرادها فيقول: اللهم إنى أسألك بإيمانى بك، وبرسولك، أو بأنى أشهد أنك أنت الله الذى لا إله إلا أنت، وأن محمداً عبدك ورسولك، أن تغفر لى، وترحمنى، أو تقضى حاجتى فى كذا ... ويسمى حاجته.

٢ - الصلاة:

إن الصلاة -فرضها ونفلها- من أفضل الأعمال وأحبها إلى الله تعالى: لقوله ﷺ فى رواية الصحيح وقد سئل عن أحب الأعمال إلى الله تعالى، فقال: «الصلاة على وقتها» فأى مؤمن أو مؤمنة يرغب فى المنزلة عند الله تعالى والخطوة لديه عز وجل فليحافظ على الصلوات الخمس وليؤدها فى أوقاتها يظفر بمغربه بإذن الله تعالى، وأى مؤمن أو مؤمنة تعرض له حاجة، ويرغب فى قضائها، والحصول عليها فليتوضأ وليصل ركعتين ويسأل الله تعالى حاجته، فإنها تقضى بإذن الله كما أمر الرسول ﷺ الرجل الضريب بأن يتوضأ ويصلى ركعتين، ويسأل الله تعالى، ففعل ودعا له الرسول ﷺ فرد الله عليه بصره⁽²⁾.

٣ - الصيام:

إن طالب القرب من الله تعالى، والراغب فى الخطوة لدى مولاه، والمتوسل إليه بالإيمان وصالح الأعمال يرشد إلى الصيام؛ فإنه خير وسيلة إلى ذلك؛ فقد روى النسائي فى سننه: «أن أبا أمامة أتى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله دلنى على عمل أدخل به الجنة؟ قال: «عليك بالصوم فإنه لا مثل له». وروى البخارى ومسلم واللفظ له: أن رسول الله ﷺ قال: «ما من عبد يصوم يوماً فى سبيل الله تعالى؛ إلا باعد الله بذلك اليوم وجهه عن النار سبعين خريفاً»⁽³⁾. وصح أيضاً: «أن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»⁽⁴⁾.

(1) رواه الترمذى وحسنه، وأبو داود وإسناده صحيح، ورواه أحمد فى المسند وابن ماجه، وابن حبان والحاكم: جامع الأصول فى أحاديث الرسول - مطبعة الملاح - تعليق عبد القادر الأرناؤوطى - (4/ 170).

(2) رواه الترمذى (9/ 117-118)، وأحمد (4/ 138)، وابن ماجه (إمامة / 189).

(3) اللؤلؤ والمرجان (2/ 20)، والبخارى (4/ 31، 32)، ومسلم (3/ 159).

(4) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (2/ 19)، ولفظ البخارى (والذى نفسى بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله تعالى من ريح المسك) (3/ 30، 32)، ومسلم (3/ 157، 158)، والخلوف: بضم الخاء المعجمة، واللام: تغير رائحة الفم لخلو المعدة من الطعام.

هذا ورد في التوسل بالصيام للحصول على القرب من الله تعالى. وأما التوسل به لقضاء الحاجات، واستجابة الدعوات: فقد روى الترمذى بسند حسن وأحمد كذلك عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، والمظلوم» وورد بسند ضعيف «لصائم دعوة لا ترد»، ويشهد له الحديث السابق عليه.

٤- الصدقة :

إن الصدقة بطيب المال وطيب النفس، لنعم الوسيلة لطلب القرب من الله تعالى، والزلفى إليه، ولنعم الوسيلة للحصول على المرغوب الدنيوى، والأخروى، وللنجاة من المهووب فى الدنيا والآخرة. وها هى ذى أحاديث الرسول ﷺ تشهد بذلك وتؤكد. قال ﷺ فى الصحيح: «اتقوا النار ولو بشق تمرة» وقال: «الصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار». وقال: «صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفى غضب الرب، وصلة الرحم تزيد فى العمر».

٥- الحج :

إن الحج إلى بيت الله تعالى لمن أعظم القرب، وأشرف الوسائل، ويكفى فى التدليل على ذلك أن نعلم أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، وأن من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، كما صح ذلك عن النبي ﷺ فى رواية الشيخين.

٦- الاعتمار :

الاعتمار: هو زيارة بيت الله تعالى للطواف به، والسعى بين الصفا والمروة وسيلة للقرب من الله تعالى واستجابة الدعاء، وتكفير الذنوب لقول الرسول ﷺ فى الصحيح: «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإنهما ينفيان الفقر والذنوب، كما ينفى الكبر خبث الحديد والذهب والفضة».

٧- الجهاد والرباط :

إن الجهاد فى سبيل الله والرباط، لمن أعظم الوسائل وأشرفها، وأجل الأعمال وأفضلها، ولنعم الوسيلة هما للفوز بالقرب من الله تعالى وللحظوة لديه سبحانه وتعالى. يقول الرسول ﷺ فى رواية الصحيحين: «إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»^(١). ويقول: «مقام الرجل فى الصف فى سبيل الله أفضل من عبادة الرجل ستين سنة»^(٢). ويقول «الغازى فى سبيل الله، والحاج إلى بيت الله والمعتمر،

(١) البخارى (١٥٣/٩)، ومسلم (٣٧/٦٦).

(٢) رواه الدارمى (الجهاد / ٧)، وأحمد (٤٤٦/٢)، وإلحاحم وقال صحيح على شرط البخارى (٦٨/٢).

وفد الله دعاهم فأجابوه (إن دعوه أجابهم، وإن استغفروه غفر لهم)»⁽¹⁾ ويقول: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله، أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها»⁽²⁾. ويقول: «حرمت النار على عين دمعت أو بكت من خشية الله، وحرمت النار على عين سهرت في سبيل الله»⁽³⁾.

٨ - تلاوة القرآن الكريم:

إن تلاوة القرآن الكريم لمن أشرف الوسائل، وخير ما يطلب به القرب من الله تعالى؛ إذ قراءة الحرف منه بعشر حسنة، لحديث الترمذي عن ابن مسعود، كما أن مجالس قراءته، ومدارسته تنزل عليها السكينة، وتحفها الملائكة، وتغشاها الرحمة، لحديث الصحيح، وتعلمه وتعليمه للناس يكسبه خيرية يفوق بها سواء من سائر المؤمنين لقول الرسول ﷺ في الصحيح: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»⁽⁴⁾ كما يجعله في معية الكرام البررة من عباد الله، ولحديث مسلم: «الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة»⁽⁵⁾، كما يقال له إذا دخل الجنة «اقرأ وارق، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها» كما روى ذلك الترمذي بسند صحيح⁽⁶⁾.

٩ - الذكر والتسبيح:

إن ذكر الله تعالى وتسبيحه بالكلمات الواردة عن النبي ﷺ مثل كلمات: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»، ومثل قول: «سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»، ومثل قول: «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» لمن أعظم القرب، وأفضل الوسائل لقول الرسول ﷺ كما في الصحيحين: «يقول الله تعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»⁽⁷⁾ ولقوله ﷺ، للرجل الذي قال له «إن شرائع الإسلام قد كثرت، فأخبرني بشيء أتشبث به قال «لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله تعالى»⁽⁸⁾، وقوله ﷺ: «ما عمل

(1) رواه النسائي (6/14، 15)، وغيره ولم يعل بأية علة قاذحة فيه، ورواه ابن ماجه، والزيادة التي بين القوسين له (مناسك / 5).

(2) رواه البخاري (4/43).

(3) رواه أحمد (4/135)، وأصله في الصحيحين (2/257) من اللؤلؤ والمرجان، وأخرج النسائي الجزء الأخير منه (6/13).

(4) البخاري (6/236).

(5) مسلم (2/195).

(6) الترمذي (42/11، 13)، وأحمد (3/40). (7) اللؤلؤ والمرجان (3/219).

(8) رواه الحاكم وصححه ورواه الترمذي (الدعوات / 41)، وأحمد (4/188 / 190).

ابن آدم عملاً أنجى من العذاب من ذكر الله تعالى»⁽¹⁾ وقوله «مثل الذى يذكر ربه، والذى لا يذكر الله مثل الحى والميت»⁽²⁾.

١٠- الصلاة على النبي ﷺ :

إن الصلاة على النبي ﷺ من أعظم الوسائل وأشرفها لرفع الدرجات، وقضاء الحاجات لقول الرسول ﷺ فى الصحيح: «من صلى على صلاة واحدة؛ صلى الله عليه بها عشرًا». وقوله للذى قال له: أجعل لك صلاتي كلها: «إذا تكفى همك، ويغفر لك ذنبك»⁽³⁾.

وقوله فى حديث أحمد والحاكم الصحيح عن عبد الرحمن بن عوف والذى جاء فيه «أن رسول الله ﷺ خرج فاتبعته حتى دخل نخلاً فسجد فأطال السجود حتى خفت عليه، أو خفت أن يكون الله قد توفاه أو قبضه، قال: فجئت أنظر، فرفع رأسه، فقال: «ما لك يا عبد الرحمن؟» قال: فذكرت ذلك له. فقال: «إن جبريل عليه السلام قال لى: ألا أبشرك؟ إن الله عز وجل يقول: من صلى عليك صليت عليه، ومن سلم عليك سلمت عليه، فسجدت لله شكرًا».

١١- الاستغفار:

إن الاستغفار وهو طلب المغفرة من الله عز وجل بلفظ: أستغفر الله، أو اللهم اغفر لي، من الوسائل المشروعة ذات الفضل العظيم، لثناء الله تعالى على أهلها بقوله: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (آل عمران: 17)، وقوله: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (الذاريات: 18)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: 135).

ولقول الرسول ﷺ: «من قال: أستغفر الله الذى لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه؛ غفر له وإن كان قد فر من الزحف»⁽⁴⁾، ولقوله ﷺ: «من لزم الاستغفار؛ جعل الله له من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب»⁽⁵⁾.

١٢- الدعاء:

إن الدعاء وسؤال الله عز وجل لمن خير ما يتوسل به المتوسلون لقضاء حوائجهم، وتفريج كربهم، وكيف لا يكون كذلك، والله تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: 60).

(1) رواه الطبراني بإسناد صحيح، وكذا ابن ماجه (أدب / 53)، وأحمد (5/ 239)، وغيرهم.
(2) رواه البخارى (107/ 8).
(3) رواه أحمد والترمذى (قيامة / 23) وصححه.
(4) رواه أبو داود وإسناده جيد.
(5) رواه أبو داود وهو صحيح الإسناد (348/ 1)، وأحمد (1/ 148)، (1/ 348)، والترمذى (دعوات / 117).

ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (البقرة: 186).
والرسول ﷺ يقول: «الدعاء هو العبادة»، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: 60).

ويقول: «ما على الأرض مسلم يدعو الله بدعوة؛ إلا أتاه الله تعالى إياها، أو صرف عنه من السوء مثلها، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم»⁽¹⁾. وقال «ما من مسلم ينصب وجهه لله عز وجل في مسألة؛ إلا أعطاه إياه: إما أن يعجلها له، وإما أن يدخرها له في الآخرة». وفي لفظ: «إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها. قالوا: إذا نكث! قال: الله أكثر»⁽²⁾ وقال ﷺ: «إن الله حيى كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبين»⁽³⁾.

١٣ - دعاء المؤمنين:

إن من بين الوسائل المشروعة، التي ترفع بها الدرجات، وتقضى بها الحاجات دعاء المؤمن لأخيه المؤمن، فقد كان أصحاب الرسول ﷺ يأتونه يطلبون منه أن يدعو الله تعالى لهم، فيدعو، فيستجيب الله تعالى له فيهم، فتقضى حاجاتهم، فكم من مرة توسلوا ﷺ بدعاء نبيهم في طلب الغيث، فيستجيب الله تعالى ويسقون، وهذا ثابت في الصحيح لا شك فيه. وقد تقدم خبر الضرير، وأنه توسل بدعاء النبي ﷺ، قال: «ادع الله لى يا رسول الله أن يرد على بصرى، فدعا له الرسول ﷺ، فرد الله عليه بصره، وعاد كأن لم يكن قد مسه ضر»⁽⁴⁾، وكما صح أنه ﷺ قال لعمر بن الخطاب وهو يريد العمرة: «لا تنسنا يا أخى من دعائك»، وفي لفظ: «أشركنا يا أخى من دعائك»⁽⁵⁾، وتوسل أصحاب النبي ﷺ بعد وفاته بدعاء العباس ؓ لهم في صلاة الاستسقاء فاستجاب الله تعالى له، وسقاهم بعد قحط شديد⁽⁶⁾.

وما زال المسلمون إلى اليوم يتوسلون بدعاء بعضهم بعضاً، فيقول المؤمن لأخيه: ادع الله لى يا فلان، لما علموا من مشروعية ذلك وجوازه، وكيف وقد ثبت أن النبي ﷺ قال: «من دعا لأخيه بظهر الغيب، قال الموكل به آمين ولك بمثله»⁽⁷⁾.

(1) رواه الترمذى وصححه (دعوات / 115).

(2) رواه أحمد بإسناد لا بأس به (18/3).

(3) أبو داود (1/342)، والترمذى (دعوات / 104)، وحسنه، والحاكم وصححه على شرط الشيخين

(1/497)، وأحمد (5/438)، وابن ماجه (دعاء / 13).

(4) رواه الترمذى (9/118)، وأحمد (4/138)، وابن ماجه (إقامة / 189).

(5) رواه أبو داود (1/334)، والترمذى (دعوات / 109).

(6) رواه البخارى من حديث أنس (1/32، 33).

(7) رواه مسلم (8/86).

١٤ - أسماء الله تعالى الحسنى:

إن التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا من خير الوسائل وأجدها، وأنفعها للعبد، فإن امرءاً مسلماً يدعو الله تعالى بأسمائه وصفاته لا يخيب في دعائه، ولا يُحرم الاستجابة من ربه إلا أن يدعو بإثم أو قطيعة، ومما ورد به التوسل من أسماء الله تعالى وصفاته ما يلي ذكره:

1 - لفظ: «يا ذا الجلال والإكرام»، لحديث الترمذى الحسن الإسناد عن معاذ، وهو قوله ﷺ - وقد سمع رجلاً يقول: يا ذا الجلال والإكرام - «قد استجيب لك فسل».

2 - يا أرحم الراحمين، لما روى الحاكم عن أبي أمامة أن النبي ﷺ قال: «إن لله ملكاً موثقاً بمن يقول يا أرحم الراحمين، فمن قالها ثلاثاً قال الملك: إن أرحم الراحمين قد أقبل عليك فسل».

3 - اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، يا حنان يا منان، بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام، لحديث أنس عند أحمد وغيره بسند صحيح: أن النبي ﷺ، مر بأبى عياش وهو يصلى ويقول: اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد... إلخ، فقال: «لقد سألت الله باسمه الأعظم الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى»⁽¹⁾.

4 - يا رب، يا رب، يا رب، لحديث عائشة: «إذا قال العبد: يا رب، يا رب، يا رب، قال الله تعالى: لبيك عبدى، سل تعط»⁽²⁾.

5 - لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين، لحديث سعد بن أبى وقاص عند النسائى والترمذى وسنده لا بأس به: أن النبي ﷺ قال: «دعوة ذى النون إذ دعاه وهو فى بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين؛ فإنه لم يدع بها رجل مسلم فى شيء قط إلا استجاب الله تعالى له»⁽³⁾.

هذا وأسماء الله تعالى وهى تسعة وتسعون اسماً كلها يُدعى بها الرب تبارك وتعالى، ويُتوسل بها إليه، فيستجيب للداعين، ويعطى السائلين، وهو البر الرحيم، الجواد الكريم. وما ذكرناه مجرد مثال حضرنا من قرب فتناولناه، وإلا فإن أسماء الله تعالى، وصفاته كلها يدعى بها، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: 180).

١٥ - فعل الخيرات مطلقاً:

إنه ما من خير أو برٍّ يفعلهُ المؤمن إيماناً واحتساباً إلا كان له وسيلة إلى ربه فليسأل به

(1) أحمد (3/ 158).

(2) ابن أبى الدنيا، وسكت عنه المنذرى ولم يذكر له علة، الترغيب والترهيب (2/ 488).

(3) الترمذى (دعوات/ 81)، وأحمد (1/ 170).

مولاه عز وجل فإنه يعطيه ولا يخيبه أبداً. وشاهد هذا ما جاء في البخارى ومسلم من حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى غار فى جبل فسقطت صخرة على فم الغار فسدت عليهم، فقد توسل اثنان منهم ببر فعلوه لوجه الله، وتوسل الثالث بترك إثم تركه خوفاً من الله، فاستجاب الله لهم، وكشف ما بهم، وخرجوا سالمين من الغار⁽¹⁾.

كما أن رجلاً من بنى إسرائيل أماط غصن شوك من طريق المؤمنين خشية أن يصيب أحداً منهم، فشكر الله تعالى له ذلك العمل القليل، فغفر له، وأدخله الجنة⁽²⁾ كما أن امرأة بغياً من بنى إسرائيل سقت كلباً عطشان يأكل الثرى من شدة العطش سقته لوجه الله تعالى؛ فشكر الله تعالى لها ذلك، وأدخلها الجنة، وهذا ثابت فى الصحيحين لا مجال لإنكاره⁽³⁾.

١٦- ترك المحرمات:

إن من بين الوسائل النافعة المشروعة للحصول على القرب والفوز برضاء الرب، ولاستجابة الدعوات، وقضاء الحاجات؛ ترك المحرمات، إنه ما من مؤمن يترك كبيرة من كبائر الإثم خوفاً من الله تعالى وحياء منه؛ إلا كان له ذلك وسيلة، له أن يتوسل به إلى ربه. كما فعل أحد الثلاثة الذين سدت الصخرة عليهم باب الغار حتى كادوا يهلكون؛ فقد توسل إلى الله تعالى بقوله: «اللهم كانت لى بنت عم، كانت أحب الناس إلى، فأردتها عن نفسها فامتنعت منى، حتى ألت بها سنة من السنين فجاءتنى، فأعطيته مائة وعشرين ديناراً على أن تخلق بينى وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه؛ فتخرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها وهى أحب الناس إلى، وتركت الذهب الذى أعطيتها، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة...» الخ⁽⁴⁾.

وهكذا فإنه لكل مؤمن أن يتوسل إلى الله تعالى عند الشدائد، وتعسر الأمور بما ترك من معاصى الله تعالى خوفاً من الله وحياء منه، وطاعة له، بعد أن يكون قد همَّ بها وأرادها؛ فإنه يستجاب له، ويفرج كرب، أو تقضى حاجته بإذن الله تعالى.



(1) راجع اللؤلؤ والمرجان (3/ 136)، والبخارى (3/ 99، 100)، ومسلم (8/ 89، 90).

(2) الحديث ثابت فى الصحيحين راجع اللؤلؤ والمرجان (31/ 201)، والبخارى (1/ 157، 158)، ومسلم (8/ 34).

(3) راجع اللؤلؤ والمرجان (3/ 75)، والبخارى (4/ 211)، ومسلم (7/ 44، 45).

(4) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 236)، والبخارى (3/ 99، 110)، ومسلم (8/ 89، 90).

الوسائل المحرمة

وبعد ذكرنا لتلك الطائفة النافعة من الوسائل المشروعة، نذكر هنا جملة من الوسائل الباطلة الممنوعة، والتي شغلت الكثير من المسلمين عن الوسائل النافعة، وصرفتهم عنها فحرموا من التوسل المشروع، بسبب انشغالهم بالمنوع، فخابوا في سعيهم وخسروا. نذكر هذا نصحاً للمسلمين، وتبليغاً لرسالة الإسلام، وتعريفاً بها بين المسلمين وغير المسلمين. ومن تلك التوسلات الباطلة الممنوعة:

١ - دعاء الأولياء والصالحين:

إن دعاء الصالحين والاستغاثة بهم والتوسل بجاههم لم يكن في دين الله تعالى قرينة ولا عملاً صالحاً فيتوسل به أبداً، وإنما كان شركاً في عبادة الله محرمًا، يُخرج فاعله من الدين، ويوجب له الخلود في جهنم.

إن كل ما يفعله جهلة المسلمين اليوم من دعاء الصالحين كقول أحدهم: يا سيدي فلاناً، ومولاي فلاناً خذ بيدي، وكن لي كذا، وادع الله لي بكذا، أو أنا في حماك، أنا بك وبالله، وأنا دخيلك .. إلى غير ذلك من كلمات الشرك والباطل هو من الضلال، والجهل، والإسلام بريء منه؛ إذ لم يشرعه ولم يأذن فيه بل حرمه، ومنعه وتوعد عليه بمثل قول الله تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ﴾ (المائدة: 72).

٢ - النذور للأولياء والصالحين:

إن ما ينذر به جهلة المسلمين من نذور للأولياء والصالحين من أموات المسلمين ليس وسيلة مشروعة لله للتقرب بها إلى الله تعالى، ولا لقضاء الحاجات واستجابة الدعوات، وإنما هو شرك مُحرم، وقع فيه من وقع من أمة الإسلام لبعدهم عن دراسة كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ. إن قول أحدهم: يا سيدي فلاناً إن رزقني الله كذا، أجعل لك كذا. أو يا سيدي فلاناً إن تحقق لي كذا، أو تحصلت على كذا أجعل لك كذا، أو أقدم لك كذا .. كل هذا نذر لغير الله تعالى، وعبادة صُرفت لغيره تعالى فصاحبها آت أخطر باب من أبواب الشرك، والإسلام بريء من عمله؛ إذ ليس من عقائد المسلمين الإقبال على غير الله تعالى، ودعاؤه، وعدته بالذبح له، أو بناء قبة عليه، أو بإيقاد الشموع على ضريحه، أو وضع ستائر على تابوته، إن حصل للنادر ما نذر لأجله، بل هذا يتنافى مع كلمة التوحيد والغرض الذي يقولها المسلم من أجله، وهو نفى العبادة عن كل أحد وإثباتها لله تعالى وحده لا شريك له.

٣- الذبائح على أرواح الأولياء:

إن ما عرفه جهلة المسلمين اليوم، وتعارفوا عليه من الذبائح على أضحية الأولياء، وعلى المشاهد، والقباب في المواسم التي تقام باسم أولئك الصالحين من الوقت إلى الوقت، من البقر والغنم، لتذبح هناك حول أضحية الصالحين، كل هذا ضلال وباطل، وليس مما شرع الله تعالى لعباده التوسل به إليه أبداً، وإنما هو عمل من أعمال الجاهلية الأولى، وشرك في عبادة الله تعالى، وتنديد، حرمهما الله تعالى بقوله ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ (النساء: 36). ويقول: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: 22).

٤- العكوف حول قبور الصالحين:

ليس من التوسل المشروع نقل المرضى إلى أضحية الأولياء، ولا العكوف حول تلك الأضرحة والقبور، ولا المبيت هناك، ولا إقامة الحفلات والحضرات. كما ليس من التوسل المشروع في شيء الاستشفاع بأصحاب تلك الأضرحة والقبور، ولا نداءاتهم، وطلب الدعاء منهم، ولا الاستغاثة بهم. وإنما هذا وما شابهه مما يقام عند الأضرحة والقبور شرك محرم، وعمل فاسد لا يأتيه إلا من سفيه نفسه، وجهل أكبر أصل من أصول الدين الإسلامي وهو توحيد الله تعالى بعبادته وحده دون سواه. وإن المصير على هذا الباطل والمقر عليه كليهما أشرك بالله تعالى، وكفر بعد إيمانه، والعياذ بالله تعالى.

٥- سؤال الله بجاه فلان:

ليس من التوسل إلى الله تعالى طلباً للقرب، ولا لقضاء الحاجات سؤال الله تعالى بجاه أحد من خلقه. كقول أحدهم: اللهم إني أسألك بجاه نبيك فلان، أو عبدك فلان؛ إذ هذا التوسل لم يعرفه دين الإسلام، فلم يرد في كتابه ولا في سنة نبيه ﷺ، والذي عرفه الإسلام، وأمر به، ودعا إليه هو سؤال الله تعالى بأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وذلك كقول المسلم: يا الله، يا أرحم الراحمين، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم. امتثالاً لقول الله تعالى، وطاعة له في قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: 180).

أما سؤاله تعالى بجاه فلان فإنه سؤال مبتدع لم يعرفه سلف هذه الأمة، ولا صدرها الصالح. وما كان من جنس البدع والأمور المحدثّة؛ فإنه لا يكون وسيلة تعطى بها الرغائب، وتقضى بها الحاجات.

٦- سؤال الله بحق فلان:

كما ليس من التوسل المشروع بل هو من الممنوع: سؤال الله تعالى بحق فلان، أو فلان؛ إذ هذا التوسل لم يرد في الكتاب الذي قال تعالى فيه: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 38).

ولم يرد في سنة النبي ﷺ الصحيحة التي قال أبو هريرة فيها: «علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراء»⁽¹⁾ فهو إذاً من التوسلات المحدثه الباطلة التي نهى عنها سلف هذه الأمة، وكرهوها للمسلمين فقد نقل عن أبي حنيفة أو أحد تلامذته رحمهم الله تعالى الإنكار الشديد على من سأل الله تعالى بحق فلان، إذ لا حق لأحد على الله تعالى فيسأل به، وإنما الله ذو فضل فيسأل من فضله كما قال تعالى: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (النساء: 32).

إنه بدل أن يسأل المسلم ربه بسؤال بدعي منهى عنه لا يعطى به فليسأله بسؤال شرعي مأذون فيه؛ يستجاب له به، ويعطى مسأله، وهو أن يقول: «اللهم إني أسألك بإيماني بك أو بنبيك، أو بكتابتك أو بمحبتى لك أو لفلان نبيك أو عبدك أن تقضى حاجتى، أو تفرج كربى، أو تخلصنى من محنى...» أو يقول: «اللهم أسألك وأتوجه إليك بمحبتى، واتباعى لنبيك نبي الرحمة محمد ﷺ، وأن تكشف ضرى، أو تقضى حاجتى، أو تعطينى كذا أو كذا»، فإن هذا من التوسل المشروع الذى يعطى به الداعى ويستجاب له إذا توسل به، وكان أهلاً للإجابة بإيمانه وإسلامه، وهو مغن للمؤمن عن التوسل بما لم يشرع فى كتاب ولا سنة.

(تنبيه هام)

يحسن بنا هنا أن ننبه إلى ثلاث شبه قد تعرض للمسلم عند الكلام على التوسل والوسيلة، وهى:

1 - حديث الضرير، ونصه كما رواه الترمذى وأحمد وغيرهما بسند لا بأس به: أَنَّ رَجُلًا ضَرِيرَ الْبَصَرِ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِنِي. قَالَ: «إِنْ شِئْتَ دَعَوْتَ لَكَ، وَإِنْ شِئْتَ صَبَرْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ» فقال: ادع. فأمره أن يتوضأ، فيحسن الوضوء، فيصلى ركعتين، ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي فى حاجتى هذه فتقضى لى، اللهم شفعه فى» قال: ففعل الرجل فبرأ⁽²⁾. ووجه الشبهة فى الحديث: أن يقول المرء: ما دام الضرير قد علمه الرسول ﷺ أن يقول: اللهم إني أسألك، وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة.. إلخ، فلم لا أفعل أنا مثله لقضاء حوائجى؟

والجواب: أن نقول: إن هذا التوسل مركب من عدة أمور ولا يتم إلا بها، وبعض هذه الأمور قد تعذر الحصول عليه بوفاة الرسول ﷺ، ألا وهو دعاء الرسول ﷺ لأحدنا اليوم، وشفاعته لنا عند الله تعالى فى قضاء حاجتنا، وذلك لو فاته ﷺ، والتحاقه بالرفيق الأعلى. فلو قام أحدنا

(1) روى مسلم - رحمه الله - عن سلمان قال: «قيل له: علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراء؟ قال: فقال: أجل..» (1/154).

(2) أحمد (4/138)، وغيره.

اليوم يقول: يا رسول الله ادع الله لى أن يقضى حاجتى، لكان قوله باطلاً وضلالاً. ولا معنى له، إذ الرسول ﷺ لا يسمعه ولا يراه. ولا يدعو الله تعالى له أبداً، ولو قال أحدنا اليوم: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بنبيك .. إلخ لكان كاذباً فى قوله ؛ لأنه لم يقدم بين يدي دعائه الرسول ﷺ يدعو له، حتى يقول لله تعالى: اللهم إنى أتوجه إليك بنبيك، اللهم شفعه فى، إنما يقول هذا من قام الرسول ﷺ يدعو الله تعالى له كما دعا للضرير.

ومن هنا لم يبق هذا التوسل بتلك الكيفية جائزاً ولا نافعاً لفقد أعظم أركانه وأهم عناصره وهو دعاء الرسول ﷺ للمتوسل. وعلى فرض أن مؤمناً قام فتوسل به، وبراً من مرضه، أو قُضيت له حاجته ؛ فإن ذلك لا يدل على جوازه ومشروعيته ؛ إذ حاجته قد قضيت بقضاء وقدر. كما قد يحصل لبعض الناس أن يدعو ميتاً، ويتشفع به فتقضى حاجته، ويقول: سيدى فلان قضى حاجتى، والحقيقة أن وسيلته شرك محرم، وما قضى له من حاجة إنما وافق فيه القدر فقط، لا أن السيد دعا له وأن الله تعالى قد استجاب له.

وهذا ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلى الله تعالى وهو أن يتوضأ فيحسن الوضوء، ويصلى ركعتين، ويقول: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بإيمانى وحبى لنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ أن تقضى حاجتى، ويسمى حاجته ؛ فإنه يرجى أن يستجيب الله تعالى له، ويقضى حاجته.

ومن باب التحدث بنعمة الله تعالى أقول: إنه صادف يوم تبيض هذه الرسالة ووصولى فيها إلى هذا الموضوع من مواضيعها: أن كنت بالدار البيضاء من المغرب وفى آخر رمضان ورغبت فى عمرة فيه، وحاولت أن أحجز مقعداً بالطائرة فقليل لى إنه غير ممكن. وإذا تأخرت عن هذه الرحلة ينتهى رمضان ولم أعتمر فيه كما كنت أعزم وأمل، فتوضأت وصليت ركعتين وقلت: اللهم إنى أسألك وأتوجه إليك بإيمانى بنبيك نبى الرحمة محمد ﷺ، وحبى له، أن تيسر لى أمر سفرى على الطائرة الفلانية يوم كذا لأعتمر عمرة مبرورة فى رمضان هذا.

وعدت إلى مكتب الشركة فوالله ما رُمت مكانى حتى قُضيت حاجتى، وتم حجزى والحمد لله رب العالمين، ونفعنى الله تعالى بهذه الوسيلة المشروعة.

2 - حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنه، ونصه كما فى البخارى: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب فقال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فاسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»⁽¹⁾.

(1) البخارى (2/32، 33).

ووجه الشبهة في هذا الحديث. أن يقال: ما دام عمر رضي الله عنه قد قال: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنينا فتسقينا»، وهو إقرار من عمر بأنهم كانوا يتوسلون بالنبي ﷺ. فلم لا نتوسل نحن اليوم بالنبي ﷺ؟

والجواب عن هذه الشبهة: أن نقول: إن توسلهم رضوان الله عليهم بالنبي ﷺ كان بطلبهم منه أن يدعو الله تعالى لهم بالغيث فيدعو فيستجيب الله دعوته ويسقيهم كما قد حصل مراراً. لا أنهم كانوا يتوسلون إلى الله تعالى بذات النبي، أو بجاهه ﷺ فيقولون: اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك، أو بجاه نبيك، والنبي غائب عنهم ولم يدع الله تعالى لهم؛ إذ لو كان الأمر هكذا لما توسل عمر بالعباس رضي الله عنه. وإنما كان يقول: اللهم إنا نتوسل إليك بنبيك، أو بجاه نبيك فاسقنا، لم يقل عمر هذا لأنه يعلم أن التوسل بالنبي ﷺ كان بدعائه عليه الصلاة والسلام لهم، ولما توفي ﷺ لم يبق ليدعو لهم، توسلوا بالعباس ليدعو الله تعالى لهم فكان يدعو، ويستجيب الله له فيسقون.

ومن هنا كان من الجائز المشروع أن يقدم المسلمون مؤمناً صالحاً يدعو لهم عند الحاجات، ولكن من غير الجائز أن يقدموا ميتاً أو غائباً لربهم ويقولوا: اللهم إنا نتوسل إليك بفلان أو بجاه فلان؛ لأن هذا كذب وباطل، ما دام الذي قدموه وسيلة لربهم غائباً أو ميتاً؛ لأن الغائب أو الميت لا يعرف عن حالهم، ولا يسمع طلبهم منه الدعاء، ولا هو يدعو لهم، وإذا لم يدع لهم فبم تكون الاستجابة؟؟؟

3 - ما ورد في لفظ: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك»⁽¹⁾.

ووجه الشبهة أن يقال: إن النبي ﷺ قال: «إني أسألك بحق السائلين عليك» فلم لا نتوسل نحن بمثل ذلك، ونقول: اللهم إنا نسألك بحق فلان أو فلان؟؟

والجواب: أن نقول: إن الحديث الذي ورد فيه هذا اللفظ حديث ضعيف، والضعيف لا تؤخذ منه الأحكام، فضلاً عن مسألة تتعلق بالعقيدة كهذه. مع أن هذا اللفظ لو صح عن النبي ﷺ، ما دل على سؤال الله تعالى بحق فلان أو فلان؛ لأن معنى بحق السائلين عليك: اللهم استجب كما تستجيب للداعين، لأنك قلت ادعوني أستجب لكم، وذلك لأنه ما دام تعالى قد أمر عباده بدعائه، وواعدهم بالاستجابة فقال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: 60).

أصبح لكل داع حق أن يطلب ربه بما وعده به لينجزه له، فمن هنا لما دعا الرسول ﷺ عند خروجه من بيته للصلاة قال مستنجزاً ربه وعده: «اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق

(1) رواه أحمد (3/ 21)، وابن ماجه (مساجد / 14).

ممشى هذا». فهو قد سأل ربه بصفة من صفاته تعالى الفعلية وهى الإجابة للداعين والمثوبة للعاملين بطاعته، الماشين إلى بيوته لأداء عبادته.

قلنا: هذا من باب التنزل والفرض، وإلا فما دام الحديث ضعيفاً فإنه لا يلتفت إليه، ولا إلى من يحتج به، شأنه شأن حديث قول آدم فى الجنة لما اقترف الخطيئة: «يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لى... إلخ.

وحديث فاطمة بنت أسد أم على رضي الله عنها، أن الرسول ﷺ قال بعد أن اضطجع فى قبرها: «اللَّهُ الذى يحيى ويميت وهو حى لا يموت اغفر لأمى فاطمة بنت أسد، ولقنها حجتها، ووسع مدخلها بحق نبيك، والأنبياء الذين قبلى فإنك أرحم الراحمين». فإن هذه الأحاديث قد حكم أهل الحديث بضعفها وبطلانها فلا يلتفت إليها، ولا يعول عليها أو يحتج بها. وفيما صح عن نبينا ﷺ من التوسلات المشروعة كفاية. فلنأخذ ما صفاً، ولنترك ما كدر.

الاستشفاع

وإن مما اشتبه أمره على كثير من المسلمين حتى وقع من وقع منهم فى أمور عظيمة من الباطل: معنى الاستشفاع والتشفع والشفاعة. فترى أحدهم يدعو غير الله تعالى، ويستغيث بغيره عز وجل، ولا يحسب هذا دعاء لغير الله، ولا يعده شركاً فى عبادته سبحانه وتعالى. وإذا قيل له فى ذلك، وأنكر عليه قال: هذا ليس بدعاء لغير الله، ولا شرك فى عبادته، وإنما هو استشفاع وتشفع فقط. ومن هنا رأينا بحث هذه المسألة، وبيان الحق فيها تعليماً وتحذيراً.

معنى الاستشفاع:

الاستشفاع والتشفع والشفاعة هذه الكلمات الثلاث مدلولها واحد، ومعناها لا يختلف وهو: أن يطلب إنسان من آخر التوسط له عند ذى مُلك أو سلطان ليقضى له حاجته فى إعطائه ما هو فى حاجة إليه، أو فى التجاوز عنه فى ذنب قارفه، أو جريمة ارتكبها، والكلمات الثلاث مشتقة من لفظ الشفع الذى هو خلاف الوتر - الفرد - وبيان ذلك: أن صاحب الحاجة كان واحداً فضم إليه الواسطة. وهو من استشفع به، وطلب شفاعته فكان معه شفعاً أى اثنين بعد أن كان فرداً. من هذا المعنى أخذت كلمات الاستشفاع والتشفع والشفاعة.

حكم الاستشفاع:

لا بأس باستشفاع أحد بآخر عند ذى منصب أو مال، أو سلطان ليشفع له عنده برفع حاجته إليه حيث عجز هو عن رفعها إليه، لحمله أو قصوره وذلك لقول الله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً

حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا (٦) وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًا (٢) ﴿ (النساء: 85).

ويؤجر الشافع على شفاعته، ولو لم تقض حاجة من شفع له، وذلك لقول النبي ﷺ في حديث أبي موسى: «اشفعوا تؤجروا، ويقضى الله على لسان نبيه ﷺ ما شاء» (٣).

وجواز الاستشفاع مشروط بأن يكون في حق ضاع، أو حق يخشى ضياعه، أو في شيء مباح ينتفع به، أما أن يكون في إثم بإسقاط حق من الحقوق، أو تعطيل حد من الحدود فلا، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: 2).

ولقول الرسول ﷺ: «إذا بلغ الحد السلطان فلعن الله الشافع والمشفع» (٤).

قياس خاطئ:

وجهل كثير من المسلمين ربهم عز وجل فلم يعرفوه، فقاسوه سبحانه وتعالى على بعض عباداه فاستشفعوا عنده بالأولياء والصالحين من أموات المسلمين، وطلبوا منهم الشفاعة لديه سبحانه وتعالى، فكانوا يقولون: يا سيدي فلاناً اشفع لى عند ربى فى قضاء كذا وكذا ... ويا مولاي فلاناً توسلت بك إلى ربى، فادع الله لى يفعل بى كذا وكذا. ولما ينكر عليهم ذلك يقولون: إن الذى لا يستطيع أن يدخل على السلطان يطلب له واسطة !!

فجمعوا بذلك بين عظيمتين: الأولى دعاء غير الله تعالى وهو شرك أكبر، والثانية: قياس الخالق على المخلوق، وتشبيهه به حيث طلبوا له واسطة كما تُطلب للمخلوق من ذوى السلطان، وجعلوا أن المخلوق قد يخفى عليه أمر الإنسان فيحتاج إلى من يعلمه به، وينبئه إليه، بخلاف الرب تبارك وتعالى فإنه عليم بأحوال عباده، لا يخفى عليه من أمرهم شيء، فما هو فى حاجة إلى من يعلمه بأحوال عباده، أو ينبئه إليها، وإذا كان المخلوق قد يعجز عن رفع حاجته إلى من يقضيها له من سلطان وغيره فيضطر إلى البحث عن واسطة يشفع له برفع حاجته إلى من يقضيها له، فإن الأمر بالنسبة إلى الله تعالى يختلف تمام الاختلاف؛ إذ العبد مع الله تعالى

(١) الكفل هنا: الوزر المترتب على الشفاعة السيئة. (٢) حفيظاً شاهداً أو حسيباً قديراً.

(٣) رواه الشيخان، اللؤلؤ والمرجان (3/ 202، 203)، والبخارى (2/ 134)، ومسلم (8/ 37).

(٤) التغليظ فى الشفاعة فى الحدود ثابت فى البخارى (8/ 199)، والحديث المذكور ذكره مالك عن ابن الزبير موقوفاً بلفظ: «إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع» الموطأ (3/ 49، 50)، وهذا فى حكم المرفوع لأن مثله لا يقال بالرأى.

يمكنه أن يرفع إليه حاجته مباشرة وبدون واسطة، لعلمه تعالى بأحوال عباده وقربه منهم بخلاف المخلوقين فإنهم لجهلهم بأحوال الناس، وعجزهم عن كفايتهم يحتاج طالب الحاجة منهم إلى واسطة ترفع حاجته إليهم، ليعلموها، وتؤثر عليهم ليقضوها، وهذا المعنى منتف مع الله تعالى تماماً. ومن هنا قبح بالعبد أن يستشفع على ربه بأحد من خلقه. وحسن به أن يسأل ربه مباشرة وبغير واسطة، وكيف ورّبه تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة: 186). ويقول: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر: 60).

وإن قيل: كيف جاز لنا إذاً أن يقول بعضنا لبعض: يا فلان ادع الله تعالى لى بكذا؟ أليس هذا هو عين ما نفيتموه من مسألة الاستشفاع بالأولياء؟؟

قلنا: إن هذا ليس من ذاك أبداً، وذلك لأمرين:

أولهما: أن هذا قد أذن لنا الشارع فيه؛ إذ ثبت بما لا مجال للشك فيه أن أصحاب الرسول ﷺ كانوا يطلبون منه ﷺ أن يدعو الله تعالى لهم. كما ثبت أن الرسول نفسه قد طلب مرة من عمر وهو ذاهب إلى العمرة أن يدعو الله تعالى له فقال: «لا تنسنا يا أخى من دعائك»⁽¹⁾، وبه أصبح المسلمون لا يترددون فى أن يطلب أحدهم من أخيه أن يدعو الله تعالى له بخير. وكيف وقد أرشدنا إلى ذلك القرآن فى قوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ (الحشر: 10).

إذ فى القرآن دعاء المؤمنين بعضهم لبعض.

وثانيهما: طلبنا الدعاء من عبد صالح حتى يسمعنا ويرانا، ويقدر على أن يدعو الله تعالى لنا هو كطلبنا منه أن يناولنا شيئاً، أو يعطينا آخر، بأن يقدم لنا طعاماً أو شراباً، أو يعطينا مالاً أو متاعاً، أو يعيننا على ما يشق فعله علينا، أفليس هذا جائزاً؟ بلى وقطعاً، وبدون شك. وإذا فأى مانع من أن نقول لمؤمن صالح حتى يصوم، ويصلى ويسمعنا ويرانا، ويقدر على أن يدعو الله لنا، أى مانع أن نقول له: ادع الله تعالى لنا يا فلان بكذا، أو أسأل الله تعالى لنا كذا وكذا... رجاء أن يستجيب الله تعالى له فينا فتقضى حوائجنا، أو نحصل على خير من خيرى الدنيا أو الآخرة.

وهذا بخلاف الاستشفاع بأموات المسلمين من أولياء وصالحين؛ إذ هم أموات، والميت غير مكلف بعبادة ولا دعاء ولا يسمع من يناديه، ولا يعرف من يستشفع به، فنداؤه وطلب الدعاء منه، والاستشفاع به ضلال عقلى وخطأ فكرى، وفساد دينى، يبرأ منه الإسلام وأهله، وهذه أقل أحواله وإلا فهو شرك فى عبادة الله، وفاعله من المشركين بالله. والعياذ به تعالى من الشرك والمشركين.

(1) رواه أبو داود (344/1)، والترمذى (دعوات/ 1).

الشفاعة في الآخرة

ما تقدم من أحكام الشفاعة، والاستشفاع إنما كان في الشفاعة، والاستشفاع اللذين يتمان في هذه الحياة الدنيا. أما الشفاعة في الدار الآخرة فإنها تختلف - عنها في الدنيا اختلافاً كبيراً - وذلك؛ لأن الأمر يومئذ كله لله، وليس لأحد غير الله تعالى منه شيء كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٧) ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ (١٨) يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ (الأنفطار: 17-19).

وقد تكون يوم القيامة شفاعات كثيرة غير أنها تجري على خلاف ما تكون عليه اليوم في الدنيا، وهذا بيانها:

إن الشفاعة تنقسم يوم القيامة إلى قسمين: شفاعة منفية تماماً لا حقيقة لها، ولا واقع، ولا وجود، وشفاعة ثابتة واقعة، لها حقيقة ووجود.

وللشفاعة المنفية صور منها:

1 - شفاعة الآلهة التي عُبِدَت من دون الله أو معه: فهذه شفاعة لا وجود لها البتة، وسواء كان المعبود المرجو الشفاعة ملكاً، أو نبياً، أو صالحاً، أو دون ذلك من الجن أو الشياطين، أو الحيوانات والجمادات، وذلك لقول الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشُّفَاعَةُ جَمِيعاً﴾ (الزمر: 43، 44).

ولأن من عبد غير الله تعالى مشرك كافر، ولا شفاعة لكافر لقول الله تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شُفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المذثر: 48). وقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شُفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة: 48).

وهذه قطعاً نفس الكافرين والمشركين.

2 - الشفاعة بدون إذن الله تعالى للشافع، أو عدم رضاه عن المشفوع له وذلك لقوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: 255). وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: 28). وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم: 26).

والشفاعة المثبتة قسمان:

القسم الأول: شفاعات النبي محمد ﷺ.

والقسم الثاني: شفاعات غيره من الأنبياء، والأولياء، والصالحين من عباد الله تعالى.

فأما شفاعاته ﷺ فهي كثيرة، منها: الشفاعة العظمى، وهي الشفاعة في فصل القضاء، وهي

المقام المحمود الذى ذكر له في القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (الإسراء: 79).

وورد بيان كيفية هذه الشفاعة فى الصحيحين: فروى البخارى ومسلم -واللفظ لمسلم- عن أبى هريرة قوله: أتى رسول الله ﷺ يوماً بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه فنهس منها نهسة⁽¹⁾ فقال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون بم ذلك؟ يجمع الله يوم القيامة الأولين والآخرين فى صعيد واحد، فيسمعهم الداعى، وينفذ فيهم البصر، وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون، ولا يحتملون، فيقول بعض الناس لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه؟ ألا ترون ما قد بلغكم؟ ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟ فيقول بعض الناس لبعض: اثنا آدم، فيأتون آدم، فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول آدم: إن ربى غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهانى عن الشجرة فعصيته، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح.

فيأتون نوحاً عليه السلام، فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبداً شكوراً، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه قد كانت لى دعوة فدعوت بها على قومى، نفسى نفسى اذهبوا إلى إبراهيم عليه السلام.

فيأتون إبراهيم، فيقولون: أنت نبي الله تعالى، وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم إبراهيم: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وذكر كذباته، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى موسى .. فيأتون موسى عليه السلام فيقولون: يا موسى أنت رسول الله، فضلك الله تعالى برسالته، وبتكليمه على الناس اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فيقول لهم موسى: إن ربى قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، وإنى قتلت نفساً لم أؤمر بقتلها، نفسى نفسى، اذهبوا إلى عيسى .. فيأتون عيسى عليه السلام فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله، وكلمت الناس فى المهد، وكلمة منه ألقاها إلى مريم، وروح منه فاشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟

(1) نهس أى أكل منها بمقدم أسنانه.

فيقول لهم عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، ولم يذكر له ذنباً، نفسى نفسى، اذهبوا إلى محمد ﷺ.

فيأتونى، فيقولون: يا محمد أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك، وما تأخر، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى ما قد بلغنا؟ فأنتلق فأتى تحت العرش فأقع ساجداً لربى ثم يفتح الله تعالى على، ويلهمنى من محامده، وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح له لأحد قبلى، ثم قال: يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفع رأسى فأقول: يا رب أمتى أمتى، فيقال: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب، والذي نفسى بيده إن ما بين المصرعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبُصرى⁽¹⁾.

ومن شفاعاته ﷺ: شفاعته فى أناس من أمته فيدخلون الجنة بغير حساب، وقد تقدم دليلها آنفاً فى حديث الشفاعة العظمى، حيث قال له الرب تعالى: «أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن»، ومنها: شفاعته ﷺ فى أناس من أمته استوجبوا النار بذنوبهم فيشفع لهم فلا يدخلون النار، ومنها: شفاعته ﷺ فيمن دخل النار من أمته فيخرج منها بشفاعته ﷺ لحديث الصحيحين - واللفظ لمسلم - عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة، فهى نائلة إن شاء الله من مات من أمتى لا يشرك بالله شيئاً»⁽²⁾.

والقسم الثانى: من الشفاعة المثبتة شفاعاة الملائكة، والأنبياء، والعلماء، والشهداء: فشفاعة الملائكة ثابتة بقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ (النجم: 26).

وبقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: 28).

وأما شفاعاة الأنبياء، والعلماء، والشهداء فهى ثابتة بعموم القرآن وخصوص السنة، وفى القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ (المدثر: 48). ويقول وقوله الحق: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (مريم: 87). ويقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: 255)، فهذه الآيات دالة على وجود شفعاء بمنطوقها ومفهومها.

(1) اللؤلؤ والمرجان (1/ 49-51)، والبخارى (6/ 105-107)، ومسلم (1/ 127-129).

(2) اللؤلؤ والمرجان (1/ 51)، والبخارى (9/ 170)، ومسلم (1/ 131).

وفي السنة يقول الرسول ﷺ فيما رواه ابن ماجه والبيهقي والبخاري: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء» وإسناده حسن (1).

وقوله ﷺ «يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته» (2)، وصح أن القرآن الكريم يشفع لأهله كذلك (3).

وآخر القول في هذا أن كل ما تقدم من الشفاعات الثابتة للأنبياء والعلماء والشهداء هو مقيد بثلاثة قيود فلا تتم الشفاعة لعبد من عباد الله تعالى إلا بعد توفرها له، وتلك القيود هي:

1 - أن لا يشفع أحد إلا بعد إذن الرب تبارك وتعالى له. وذلك لقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ والاستفهام هنا للنفي أي لا أحد يشفع إلا بإذنه تعالى.

2 - أن لا يشفع أحد في آخر إلا إذا كان الله تعالى قد رضى عن المشفوع فيه بارتضاءه قوله وعمله. وذلك لقوله عز وجل: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء: 28)، فإنه صريح في نفي الشفاعة عن أحد لم يرتضه تعالى لذلك.

3 - أن لا يشفع أحد فيمن مات على الشرك والكفر، وذلك لحكم الله تعالى بخلود الكافرين والمشركين في النار بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ (البينة: 6).

ولهذا وجب أن ينقطع طمع العبد في غير الله تعالى: فلا يطلب الشفاعة من أحد، ولا يسألها من غير الله عز وجل؛ إذ الشفاعات كلها لله تعالى وليس لأحد سواه منها شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا﴾ (الزمر: 44). وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة: 255).

ومن أراد شفاعة النبي ﷺ فليسألها من الله تعالى، وليقل: اللهم شفّع فيّ نبيك، أو اللهم ارزقني شفاعة نبيك، أو يا رب اجعلني ممن تُشفّع فيهم نبيك، وليتبع سؤاله الشفاعة من الله تعالى بالعمل الموجب لها، والمقتضى تحقيقها، وهو يتلخص في ثلاثة أمور:

1 - الإخلاص لله تعالى في العبادة، ونفي الشرك عنه تعالى في ربوبيته وأسمائه وصفاته، وفي عبادته، لحديث الصحيح: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؟ فقال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه أو من نفسه» (4).

(1) ابن ماجه (زهدي / 37).

(2) رواه أبو داود (2/ 17).

(3) لما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه»... الحديث - متن مسلم (2/ 197).

(4) البخاري (35/ 1).

2 - كثرة الصلاة، لما صح عنه ﷺ: أنه سأله أحد أصحابه مرافقته في الجنة فقال له: «فأعني على نفسك بكثرة السجود». (1)

3 - الصلاة على النبي ﷺ، وسؤال الوسيلة له، وذلك لحديث مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا على، فإنه من صلى على صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة؛ فإنها منزلة في الجنة، لا تنبغى إلا لعباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة» (2).

التبرك

إن التبرك مثل التوسل والتشفع كلها سىء فهمها، وجهلُ الناس بحقيقتها أوقع الكثير من المسلمين في أخطاء كبيرة أضرت بالمعتقد الإسلامي، وأساء إلى الحياة الإسلامية أيما إساءة.

فباسم التبرك، وتحت شعاره عُبِدَت الأشجار والأحجار، وانتَهَكَت الحرمات، وضيعت الفرائض، وأسقطت الواجبات. كما أنه باسم التوسل والاستشفاع ذبح لغير الله تعالى، واستغِيث بغيره عز وجل.

وبالجملة فإن ما وقع من الشرك في هذه الأمة أيام جهلها بكتاب ربها، وسنة نبيها، وبعدها عنهما إنما كان في الغالب عن طريق التوسل، والتشفع، والتبرك. ولهذا رأينا أنه مما ينبغى أن يبحث في هذا المعتقد، ليكون المسلم فيه على علم كامل، وبينه تامة، هذه الثلاثة: التوسل والاستشفاع والتبرك، وقد بحثنا الأول والثاني، وها نحن نبحث الأخير إن شاء الله تعالى، فنقول:

التبرك:

التبرك مصدر تبرك بالشئ يتبرك به تبركاً إذا تيمن به، والتيمن بالشئ هو طلب اليمن، وهو البركة. والبركة هي النماء في الخير والزيادة فيه، ويطلق لفظ البركة على كل كثرة في الخير. واشتقاقها من بروك البعير، وهو استناخته في موضع، ولزومه فيه. فالخير الدائم الثابت في الشئ، والنامى فيه هو البركة.

والبركة في عرف الدين: ما يجعله الله تعالى من الخير في الشئ الذي يباركه. فقد أخبر تعالى أنه بارك في أرض الشام أي جعلها مباركة (3) وأخبر أنه جعل كتابه مباركاً (4)، والمعنى

(1) مسلم (2/52).

(2) مسلم (4/2).

(3) في قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَاهُ وَلَوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: 71).

(4) في قوله: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ﴾ (ص: 29).

كثير خيرهما دائم لهما، ثابت فيهما، وأخبر عيسى عليه السلام عند تكلمه في المهد أن الله تعالى جعله مباركاً أينما كان. فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا﴾ (مريم: 31، 32).

ومن الأدعية الماثورة: «وبارك لى فيما أعطيتنى»، وعلى هذا فطلب البركة والتماسها أمر مستحسن شرعاً؛ لأنه من طلب الخير والتماسه.

ومن ذا يرغب عن طلب الخير أو يكون له غنى عن بركة الله؟

ولكن بم يكون التبرك، وكيف يكون؟

أما بم يكون التبرك ؟

فإن التبرك يكون بما علم شرعاً أن فيه بركة، وأذن الشارع فى طلبها منه. والتماسها فيه، وذلك كبيت الله الحرام، وماء زمزم الذى قال فيه الرسول ﷺ: «ماء زمزم طعام طعم، وشفاء سقم» (١).

وكالمساجد الثلاثة التى لا يشد الرحال إلا لها، وككل المساجد التى بنيت باسم الله، وتقام فيها عبادة الله من صلاة وغيرها، وكالأراضى المقدسة من الحجاز والشام، وكمجالس العلم والذكر، وقراءة القرآن، ومجالسة الصالحين، ومرافقتهم فى أسفارهم، وطلب دعائهم.

وأما كيف يكون التبرك ؟

فإنه يكون إن كان بيت الله تعالى فبزيارته للحج والعمرة، وبالطواف به واستلام ركنيه، والدعاء عنده، والجلوس حوله، وإن كان بزمزم فبالشرب منه، والدعاء عند ذلك، وإن كان بالمساجد الثلاثة فبالسفر إليها للصلاة فيها، والاعتكاف بها، وإن كان بسائر المساجد فبالصلاة فيها، والعبادة بها من ذكر وتسبيح، وقراءة قرآن وطلب علم، وإن كان بالأراضى المقدسة فبالإقامة بها على حسن سيرة، وكمال أدب، والحياة فيها، والموت بها والدفن فيها، وإن كان بمجالسة الصالحين من أهل العلم، والإيمان، والتقوى فبأخذ العلم عنهم، وسماع نصائحهم، والعمل بإرشادهم وتوجيهاتهم، والرغبة فى الحصول على دعائهم.

هذا، وبعد أن بينا ما يشرع التبرك به، وكيف يتم التبرك به وجب أن نبين إتماماً للبحث حقائق هامة لابد من بيانها فى هذا البحث وهى:

1 - أن التبرك لم يعد كونه مشروعاً، وأقصى درجات حكمه أن يكون مستحباً لا غير.

(١) روى مسلم «إنها مباركة، إنها طعام طعم» فى حديث فضائل أبى ذر (١٥٢/٧-١٥٤)، والزيادة (شفاء سقم) لغيره.

2 - إن كان التبرك وهو طلب بركة ما قد يؤدي إلى فعل مكروه، أو ارتكاب محرم فإنه يجب تركه، ويتعين عدم فعله ؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المنافع، ويشهد لهذا فعل عمر رضي الله عنه، وهو أحد الخلفاء الراشدين الموصى شرعاً باتباع سنتهم، فإنه رضي الله عنه لما رأى رغبة الناس عند المرور بالحديبية في طريقهم إلى مكة في النزول تحت شجرة بيعة الرضوان للتبرك بها، أمر بقطعها، حسماً لمادة الفساد ؛ إذ لو تركت لعُبدت كما عبد غيرها من أشجار كثيرة باسم التبرك، وفي كل زمان ومكان، من عهد نوح إلى ساعتنا هذه.

3 - إن ما يفعله جهال المسلمين اليوم من شد الرحال إلى زيارة قبر فلان وفلان، أو ضريح فلان من سيد أو صالح، وإقامة الحفلات حولها، والنزول بساحتها، والعكوف والإقامة الليلة والليلتين عندها باسم التبرك، كل هذا باطل منهي عنه، ولم يشرع فعله للمسلمين، وإنما هو من محدثات الأمور وضلال الابتداع، وقد أدى إلى الشرك والعياذ بالله، فكم تسمع من مستغيث بأصحاب تلك الأضرحة، وكم ترى حولها من مستجير بها، وداع ضارع لها، وباك خاشع لها، وكم تجد من قطعان البقر والغنم تساق إليها، وتذبح قرباناً لها، كل ذلك تحت شعار التبرك، وعنوان التوسل والتشفع، ألا فلا تبرك، ولا توسل، ولا تشفع إذا كان ذلك يؤدي إلى الشرك والكفر.

4 - إن العبد الصالح الذي تقدم أنه يجوز التبرك بزيارته للانتفاع به، وإبرشاده، وتوجيهه، ونصائحه، وبالتالي بدعائه، هذا العبد الصالح ينبغي أن يكون من أهل العلم، والإيمان، والتقوى، وإلا فلا تُشرع زيارته، ولا التبرك به لعدم وجود البركة في غير أهل العلم، والإيمان، والتقوى.

5 - إذا كان الرجل يدعى الولاية، ويدعو الناس إلى الاعتراف له بها، ويستغل ذلك لفائدته الشخصية من جلب منافع خاصة، من جاه، أو مال، أو ما إلى ذلك من الحظوظ النفسية والدينية، فإن مثل هذا الرجل دجال لا بركة عنده، ولا خير فيه، فلا تحل زيارته، ولا مجالسته، ولا احترامه فضلاً عن التبرك به، وذلك لفقد موجبات البركة عنده وهي العلم، والإيمان، والتقوى.

الولاية والكرامة

إن مما له صلة وثيقة ببحث عقيدة المؤمن موضوع الولاية والكرامة. إذ الولاية ولايتان، ولاية للرحمن، وولاية للشيطان، والكرامة منها ما هو كرامة بحق ؟ يكرم الله تعالى بها أوليائه من صالحى عبادته، ومنها ما هو فتنة واستدراج للعذاب والامتهان. وعدم التمييز بين كرامة المؤمن، ومهانة الشيطان، يقع في أخطاء قد تؤدي بكثير من المؤمنين إلى اعتقاد الباطل، والعمل به. ومن هنا كان لابد من بحث هذه المسألة وبيان وجه الحق والصواب فيها؛ وليكون المؤمن

على بصيرة كاملة فى معتقده الذى هو قوام حياته الدينية بل هو رأس ماله الذى تتوقف عليه سعادته فى الدنيا والآخرة معاً.

ولنبداً بحث هذه المسألة بالسؤال التالى:

ما هى الولاية ؟

الولاية فى عرف اللغة مصدر ولى الشئ يليه وكياً وولاية⁽¹⁾ إذا دنا منه وقرب أو أقام به، وملك أمره، أو نصره وأحبه - ويصاغ من فعل ولى المفاعلة فيقال: والاه يواليه موالاة إذا صادقه وناصره فهو موال له ضد مُعاد له. كما يصاغ التولية فيقال: تولاه تولية إذا صار له ولياً. ومنه اشتق لفظ الولى الذى هو ضد العدو.

هذا معنى الولاية فى عرف اللغة، وهو لا يختلف عنه كثيراً فى الدين، إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب، والنصرة، والقيام بالأمر لصالح الولى، وضد الولاية العداوة، وهى تدور على البعد، والبغض، وإرادة الشر والهلاك للشخص المعادى، على عكس الولاية. وبناء على هذا فولاية الله تعالى للعبد: أن يهديه إلى الإيمان به، وإلى معرفته، وطاعته ومحبته، ونصرته دينه، فيعمل العبد بذلك، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه، فإذا أحبه قربه، وتولى أموره، ونصره، وحفظه، فكان بذلك وليه. كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِهِمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ (البقرة: 257).

وولاية العبد للرب تبارك وتعالى أن يؤمن به، ويتقيه، ويتقرب إليه بطاعته، ويوافقه فى محابه ومكارهه، ويوالى من يوالى، ويعادى من يعادى، وينصر دينه وأولياءه، وبذلك يكون ولياً لله تعالى، قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (يونس: 62-64).

الحال الجامعة:

وتكون الحال الجامعة بين الله تعالى الولى الحميد، وبين العبد المؤمن التقى هى الموافقة فى الحب والبغض، والقرب⁽²⁾ والمناصرة والموالاة، والمعاداة.

(1) قال فى مختار الصحيح: وليه يليه بالكسر فيهما وهو شاذ.

(2) يشهد لهذا حديث الصحيحين القدسى: «وإن تقرب إلى بشر تقربت إليه ذراعاً» الحديث. اللؤلؤ والمرجان (223 / 3)، والبخارى (9 / 147، 148)، ومسلم (8 / 67، 68).

ومن هذا يُستخلص أصل الولاية وشرطها، فأصلها الإيمان والتقوى، وشرطها الموافقة التامة في الحب والبغض، والموالة والمعاداة ومتابعة الرسول ﷺ في كل ما جاء به، ودعا إليه من أصول العقائد، والعبادات، والآداب، والأخلاق، متابعة يتجرّد فيها العبد لله، ويخلص له فيها؛ إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ، وذلك لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (آل عمران: 31).

وهذا لأن المتابعة هي سبيل طهارة الروح، وزكاة النفس، ومن طهرت روحه وزكت نفسه بالإيمان والعمل الصالح، مع البعد عن الشرك، والمعاصي كان أهلاً لحب الله تعالى، وموالاته عز وجل.

الفرق بين الولائتين

إن هناك فرقاً بين ولاية الله تعالى للعبد، وبين ولاية العبد لله عز وجل تجب ملاحظته، وهو أن الله تعالى لا يوالى عن افتقار للعبد، واحتياج إليه، وإنما يوالى إكراماً للعبد، وإنعاماً عليه، لغناه تعالى عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى، وهذا من معاني اسمه (الصمد)، وقد نفى الله تعالى في كتابه العزيز من سورة الإسراء، نفى أن يكون ولي من الدّل، فقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء: 111).

وأما العبد فإنه يوالى - إن وفقه الله تعالى - يوالى لفقره وحاجته إلى ربه؛ إذ هو دائماً في حاجة إلى نصرة ربه ومعونته، ومحبته، ورضاه، وإدائه منه، وتقريبه إليه؛ إذ لا يسعد العبد إلا في جوار مولاه، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه فضلاً من رضوانه. فالمنة إذاً لله تعالى على موالاته لعبده وقبوله له ولياً، وأما العبد فلا منة له بحال، وليس له أن يدلل على الله تعالى. ولو أذاب نفسه في طاعة الله، وأوقف كل حياته عليه، وحتى لم يبق له هم ولا هوى سوى الله عز وجل.

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد، وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى، فليعلم فإنه مهم وجدير بالفهم والمعرفة.

الولى

إننا بعد معرفتنا للولاية سيسهل علينا - إن شاء الله - معرفة لفظ الولى، إن لفظ الولى وجمعه أولياء يكون اسم فاعل بمعنى المتولى غيره، المولى له، ويكون اسم مفعول بمعنى الذى يوالىه غيره ويتولاه. فالله تبارك وتعالى وهو الولى الحميد، ولى عبده المؤمن بمعنى أنه هداة للإيمان، ووفقه للطاعة، وأدناه منه، وقربه إليه، وأحبه، ونصره فهو مولاه ووليه. قال تعالى: ﴿إِنْ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (الأعراف: 196).

والمؤمن ولى الله تعالى بمعنى أن الله تعالى هداه وتولاه، وبمعنى أن المؤمن والى الله تعالى فأمن به واتقاه وأحبه، وأطاعه، ووافقه فى محابه ومساخطه، فوالى من يوالى، وعادى من يعادى. وأحب ما أحب ومن أحب، وكره ما كره ومن كره، فكان بذلك عبده ووليه قال تعالى فى إثبات هذه الولاية وذكر كرامتها: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (يونس: 62-64).

وقد تقدم هذا المعنى واضحاً فى بحث الولاية فازداد وضوحاً وتقريراً، وبالجملة فإن ولى الله تعالى من عباده هو مؤمن أكرمه الله تعالى بهدايته فأمن به واتقاه. وتقرّب إليه بالصالحات ووافقها فيما يحب وما يكره من الذوات والصفات، ووالى من يوالى، وعادى من يعادى، فوالاه الله تعالى لذلك، وتولاه، وأكرمه بكرامات، فكان إذا دعاه استجاب له، وإن استعاضه أعاضه، وإن سأله أعطاه.

(الكرامة)

ما هى الكرامة:

الكرامة: الاسم من كَرُم، والجمع كرامات، وهى ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الإفضالات، وهى عامة وخاصة. فالعامة: هى ما كرم الله به بنى آدم، وفضلهم به على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية، ومن ذلك اعتدال القامة، والخلق فى أحسن تقويم، والعقل، والمنطق، وتدبير المعاش وإصلاحه، وتسخير الكون لهم، والانتفاع به إلى غير ذلك من الإفضال والإنعام، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: 70).

والخاصة وهى أفضلهما: ما يكرم الله تعالى به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان، وتوفيقهم إلى طاعته تعالى بفعل المأمورات، وترك المنهيات، فهذه الاستقامة على الإيمان والطاعة من أعظم الكرامات، وأهلها هم أصحاب اليمين المذكورون فى قول الله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة: 27). وفى قوله: ﴿وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ﴾ (الواقعة: 90-91). وهم المقتصدون المذكورون فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ (فاطر: 32). وهم المبشرون بالجنة فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١٣) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأحقاف: 13-14).

وأخصُّ من هذه الكرامة كرامة الإيمان والاستقامة، ما يكرم الله تعالى به بعض عباده زيادة على الإيمان والتقوى، من الورع والتقليل من المباحات والإكثار من نوافل العبادات من صلاة، وصدقات، ورباط وجهاد، وصيام، وحج. وهؤلاء هم الموصوفون بالمقربين والسابقين في قول الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأُولَى (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ (الواقعة: 10-14). وقى قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (فاطر: 32-33).

وهم المعنيون بقول الله تعالى في حديث البخارى: «من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذنى لأعيزنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس عبدى المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد له منه»⁽¹⁾.

فهؤلاء فى أعلى مرتبة من مراتب الولاية، إذ يعرفون باستقامتهم، واستجابة ربهم لهم فيما يسألونه ويطلبون، فلو سألوه زوال جبل لزال، ولو أقسموا عليه تعالى لأبرهم، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل، وشفاء العليل، وكإكساب المعدوم، والإنقاذ من الهلاك المحتوم.

مراتب الأولياء

وبناء على ما سبق فإن للأولياء أربع مراتب: عليا وعالية، ودنيا ووسطى.

فالعليا: هى مرتبة الأنبياء والمرسلين، وكراماتهم يصرفونها لله تعالى الذى من بها عليهم فتكون معجزات تقوم بها الحجة لله تعالى على الناس.

والعالية: وهى مرتبة السابقين المقربين من أتباع الرسل عليهم السلام وهم متفاوتون فيها تفاوت الرسل فيما بينهم فى تسامى الدرجات، وعلو المنازل.

والوسطى: وأهلها هم أهل الإيمان والتقوى من أصحاب اليمين المقتصدين.

(1) رواه البخارى فى كتاب الرقاق باب التواضع (8/131)، إلا أنه ليس فيه (ولا بد له منه).

والدنيا: وهى مرتبة أهل الضعف فى الإيمان والتقوى، وهم الظالمون لأنفسهم، المذكورون فى قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنُ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُحَلِّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ (فاطر: 32-35).

والشاهد من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى ذكر ثلاثة أصناف من الناس، وهم: الظالمون لأنفسهم، والمقتصدون، والسابقون بالخيرات، وحكم على جميعهم بأنهم يدخلون الجنة يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير، فدل ذلك على أن أهل الضعف فى الإيمان والتقوى هم كذلك أولياء الله تعالى، وإن ظلموا أنفسهم بترك بعض الواجبات أو بفعل بعض المحرمات، غير أن درجتهم دون درجة السابقين، ولم تصل إلى درجة المقتصدين، فهم فى منزلة دون، وذلك لضعف إيمانهم وتقواهم. (١)

ويلاحظ هنا أن أهل هذه المراتب على اختلافها، متفاوتون فى العدد قلة وكثرة، فأهل المرتبة العليا أقل عدداً من أهل المرتبة العالية، وأهل المرتبة العالية أقل عدداً من أهل المرتبة الوسطى، وأهل الوسطى أقل عدداً من أهل المرتبة الدنيا، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى أكثر من تنبيه إليه.

تقريرات

الأول: أنه لا تتم ولاية عبد لله تعالى، ولا ينتظم فى سلك أولياء الله تعالى إلا بالإيمان الصحيح، والتقوى القائمة على مبدأ فعل المأمورات، وترك المنهيات.

الثانى: أن الأولياء يتفاوتون فى قربهم من الله تعالى، وعلو منزلتهم عنده وفى كراماتهم بحسب قوة إيمانهم وتقواهم، وكمال موافقتهم لربهم، ونبههم فيما يحببان ويكرهان.

الثالث: أن الكرامات وهى الأمور الخارقة (٢) للعادة التى يظهرها الله تعالى على يد بعض

(١) لعل قارئاً يقول: ألا يستحق أهل الظلم لأنفسهم العذاب عقوبة ظلمهم؟ فنقول: إن الظالم قد يعذب إن لم يغفر الله عز وجل له، ولكنه بعد تطهيره من ذنوبه بالعذاب مصيره الجنة.

(٢) هذا النوع الذى يطلقونه على الكرامة، ويقولون: إنه أمر خارق للعادة غير مقترن بالتحدى ودعوى النبوة.

أوليائه، ليست شرطاً في ثبوت الولاية، ولا في نفيها ولما كانت تنقص من درجة من يظهرها الله تعالى على يديه، لأنها بمثابة تعجل الجزاء على الإيمان، والتقوى في الدنيا، كان بعض الأولياء يتوبون منها إلى الله تعالى، ويستغفرونه لأجلها.

الرابع: الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم، فقد يخطئون ويغلطون، غير أن الغالب في أحوالهم الحفظ مما يندس شرف الولاية، ويخل بمقامها، وإن وقع أن أحدثوا ذنباً لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور، يقبلها الله تعالى منهم بعد أن وفقهم لها، فيسلم بذلك مقامهم من التداعي والسقوط، ومنزلتهم من النزول والهبوط.

الخامس: لنا بحسب ما يظهر لنا من أحوال الناس أن نصف كل مؤمن تقى بالولاية، فنقول: فلان وليٌّ من أولياء الله تعالى أو نقول: فلان وليٌّ، ونكرمه لذلك، ونتحاشى أذيته لحديث أبى هريرة في البخارى عن النبي ﷺ عن الله تعالى: «من آذى لى ولياً فقد آذنته بالحرب ... الحديث»⁽¹⁾، ولا التفات إلى قول من يقول بعدم جواز ذلك لعدم الدليل على صحة الدعوى.

السادس: جهل المسلمين بحقيقة الولاية وبمعرفة الولي جعلهم لا يعترفون بولاية المؤمنين الذين يعيشون معهم من أهل الإيمان والتقوى إلا إذا ظهرت على يد المرء خوارق العادات، أو مات وشيد له ضريح، أو بنيت على قبره قبة، حتى إن أحدهم لو طلب منه أن يدل أحداً على ولي من أولياء بلده، لا يدلّه على مؤمن تقى يعيش بين الناس، وإنما يدلّه على ميت له ضريح، أو على قبره قبة وإن كان لا يعرف اسمه فضلاً عن حاله أيام حياته فتقبل شهادته فيه، ويصبح حكمه عليه.

السابع: لقد أنكر الله تعالى على الناس اتخاذ أولياء من دونه في قوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخِذُكُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ (الرعد: 16).

فلا يحل لمؤمن ولا مؤمنة أن يتخذ له ولياً دون ربه عز وجل فيلجأ إليه في الشدائد، ويستغيث به عند المخاوف، ويستعيذ به من المكاره، أو يعبدّه ويتوكل عليه، ويوالى فيه ويعادى فيه، إذ هذا معناه اتخاذ آلهة من دون الله، وهو شرك وكفر والعياذ بالله.

(1) ذكر بتمامه في باب الكرامة فليرجع له.

أولياء الشيطان وموالاتهم

إن بين شياطين الإنس والجن موالاة أثبتها القرآن الكريم، كتاب الله رب العالمين، وحسبنا القرآن شاهداً ودليلاً، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ (الأنعام: 128). وقال تعالى من السورة نفسها: ﴿شَیَاطِینَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: 112). وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنََّّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 30).

والسؤال الآن هو: كيف تتم الموالاة بين الفريقين؟

والجواب: أنها تتم حسب سنة الله تعالى فى اتحاد المتجانسات، وتلافى المتشابهات والنجذاب كل شبه إلى شبهه، ومن هنا كان إذا خبث الإنسان نتيجة توغله فى الشر والفساد بارتكاب الذنوب والآثام المتمثلة فى معاصى الله تعالى ومعاصى رسوله ﷺ أمكنه الاتحاد بشياطين الجن، والتفاعل معهم، وتوليهم وتبادل المنافع معهم، والتعاون على إغواء الإنسان وإفساده، وإيقاعه فى الشرور والمفاسد، وبحكم الولاء الثابت بين كل من شياطين الإنس والجن، فإن شياطين الجن يخدمون إخوانهم وأولياءهم من الإنس، فيطلعونهم على بعض المغيبات التى أمكنهم الاطلاع عليها، ومعرفتها، كما قد يقربون إليهم أشياء بعيدة، أو يحملونهم إلى أماكن أبعد، كما قد يجمعون لهم بين شخصين متباعدين أو متقاطعين، وقد يظهرون لهم أشخاصاً، أو يسمعونهم أصواتاً وبالجملة فقد يظهرون لهم من بعض الخوارق ما يظن معه من لا علم له بهذا الشأن أنه كرامات كالتى يظهرها الله تعالى على أيدي أوليائه كرامة لهم.



الركن الثانى من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالملائكة

مقدمة:

قبل البحث فى هذا الركن من أركان العقيدة نقدم بيان الحقائق الثلاث التالية:

الأولى: أن الكون كله ينقسم إلى غيب، وشهادة. فالغيب: ما غاب عن الموجودات عن أعين الناظرين وإن كانت حقيقة محصلة فى صدورهم، لا تغيب عن خواطرهم، وذلك ككل الموجودات الأرضية والسماوية.

والشهادة: خلاف الغيب وهى كل ما كان من الموجودات أمام نظر الإنسان يشاهده ويراه أو كان بحيث يدركه بإحدى حواسه التى هى السمع، والبصر، واللمس، والشم، والذوق.

الثانية: أن الإنسان بحكم طبيعة الحياة مقدر له الإيمان بالغيب: مفروض عليه، لا يستطيع التخلص منه بحال، اللهم إلا إذا سَفِه نفسه، وأراد التخلّى عن كرامته الأدمية، وعن شرفه الإنسانى؛ ليصبح بعد ذلك حيواناً هابطاً لا خير فيه، أو آلة صماء لا وعى لها، ولا إدراك!!!

وذلك؛ لأن الإنسان كائن متحيز متى وُجد فى مكان استحال عليه أن يوجد فى مكان آخر مع بقاءه فى مكانه الذى هو فيه. ومن هنا ستصبح سائر الأمكنة التى تخلو منه ببعده عنها غيباً له. وليست بشهادة عنده، ولا بد له من أن يؤمن بها، وبما فيها من أشياء، جواهر وأعراض، متى وجدت آثار تدل على ذلك، أو أخبار صادقة تنبئ به.

ثم إن حواس الإنسان التى يحصل له العلم بها محدودة القوة، محصورة الإدراك فى مجال معين لا تتعداه. فسمعه مقيد فى السماع بالأصوات العالية فإذا انخفضت إلى درجة معينة تعذر عليه أن يسمع، وبصره مقيد برؤية الأجسام الكبيرة فإذا صغرت ودقت، وبلغت حداً معيناً من الصغر والدقة عجز عن رؤيتها، ولمسه كذلك، فإنه يحس بالأجسام الكثيفة، فإذا خَفَّت انقطع إحساسه بها. وحتى عقله فإنه يكل عن إدراك أشياء معقولة، ويعيا عن تصورهما تماماً.

ومن هنا كان لابد للإنسان من الإيمان والتصديق بأشياء لم يشاهدها ولم يحس بها، بأية حاسة من حواسه، ولم يدرك حتى تصورهما بعقله، ولا خيار له فى ذلك إذا أراد أن يقيم لكرامته وزناً، ولقيّمته البشرية قدراً من الاحترام والتقدير!!!

وكيف تُنكر هذه الحقيقة، ونحن نرى أن الإنسان يعيش فى بلد ما ولم يخرج منه أبداً وهو يؤمن بعشرات البلاد، ويصدق بوجودها وهو لم يرها، ولم ير من رآها قط.

كما نرى إنساناً آخر لم ير الفيل طول حياته، وهو يؤمن بوجود هذا الحيوان الذي لم يره، ولم ير من رآه أبداً، ونرى ثالثاً يؤمن بالجاذبية إيماناً جازماً، ومن المعلوم أن الجاذبية مما لا يُرى ولا يُشاهد أبداً. ونجد رابعاً وُلد ولم يعرف والده لموته قبل ولادته، وهو يؤمن بأن له والدًا، ولا ينكر ذلك بحال، ولذا كان من المضحكات أن يدعى إنسان أنه لا يؤمن بالغيب، أو أنه يستطيع أن يعيش في هذه الحياة بدون الإيمان بالغيب.

الثالثة: أن الإنسان يكتسب علمه بالموجودات عن طريق عقله وحواسه معاً، فبعقله يدرك سائر التصورات العقلية، وبالحواس يدرك سائر الماديات من مرئي، ومسموع، ومحسوس، ومشموم، ومطعموم. فبالعقل أدرك فضيلة الصدق، ورذيلة الكذب. وبالعقل أدرك المستحيلات: ككون الشيء إذا وجد في مكان لا يوجد في غيره، والواجبات: ككون الجسم لا بد له من حيز يشغله، وككون المصنوع لا بد له من صانع، والجائزات: ككون المريض قد يُشفى وقد لا يشفى، والغائب قد يعود وقد لا يعود.

وبحاسة البصر أدرك المراتب: أطوالها، وأعراضها، وصفاتها.

وبالسمع أدرك الأصوات، وفرق بينها، وأدرك الأخبار ومدلولاتها، وبالذوق أدرك سائر الطعوم، وعرف حلوها ومرها، وحامضها وسامجها، وبالشَّم أدرك سائر الروائح طيبها وكرهها. وباللمس أدرك الأجسام وفرق بين خشنها وناعمها، وحارها وباردها.

هذه هي طرق اكتساب الإنسان لعلومه ومعارفه (العقل والحواس) وهو مستعد دائماً للحصول على المعارف بواسطتها. إن الإنسان يتعقل الشيء ثم يصدر حكمه عليه بالإثبات، أو بالنفي، بالوجوب، أو الاستحالة أو الجواز، وينظر إلى الشيء فيحكم عليه بالطول، أو القصر، بالبياض أو السواد، ويسمع الصوت فيحكم بأن المسموع صوت كذا أو كذا... إلخ.

وهكذا يتحصل الإنسان على معرفته بالموجودات بقسميها: الغيب والشهادة، بواسطة العقل والحواس، بيد أن ما كان من الموجودات غيباً محضاً فإن طريق الحصول على معرفته والإيمان به هو السماع به، أو مشاهدة آثاره الدالة عليه.

فالمرء إذا أخبره أحد أن فلاناً مات، أو سافر، أو قدم من سفر، وكان بعيداً عنه لا تمكنه رؤيته حصل له العلم بحاله من موت أو سفر، أو قدوم منه، حصل له بواسطة الخبر الذي تلقاه عن غيره من عقلاء الناس، والمرء قد يمر بأرض فيجد بها سيولاً تجري، وشعاباً طافحة بالماء فيعلم فوراً أن مطراً قد نزل بتلك الأرض، وإن لم يشاهد نزوله، ولم يخبره بنزوله أحد، وإنما حصل له علم به بواسطة الأثر، وهو سيلان الأودية وامتلاء الشعاب. وقد يمر الإنسان بمكان ما فيشم

روائح طيبة. فيعلم أن هناك عطاراً، أو أشجاراً من ذوات الروائح الطيبة، وإن لم ير ذلك بعينه، ولم يخبره به أحد من الناس. وهكذا يؤمن الإنسان بالغيب، ويحصل فيه على اليقين الكامل بواسطة خبر الثقات، أو آثار الأشياء التى آمن بها، وصدق بوجودها لدلالة آثارها عليها.

ومن هنا كان الإيمان بوجود الملائكة أمراً معقولاً، ومطلباً سهلاً ميسوراً، فالملائكة وإن كانوا غيباً، فقد دل على وجودهم الدليل الذى تثبت به كل الموجودات الغيبية عند الإنسان، والذى هو خبر الثقات، وآثار الموجودات. ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول:

أليس الإنسان العاقل يخبره ذو صدق بحدوث كذا أو كذا من الممكنات فيصدق فى خبره، ويعتقد صحة ما أخبره به ؟

أليس الإنسان العاقل يسمع صوتاً بعيداً عنه لم ير مصدره فيؤمن بذى الصوت، ويصدق بوجوده كأنه رآه وشاهده ؟

أليس الإنسان العاقل يجد كرسيّاً قد وضع فى غرفة فيعلم أن هناك أحداً قد وضع هذا الكرسي، وأعدّه للجلوس عليه، وإن لم ير من فعل ذلك ؟

أليس الإنسان العاقل إذا رأى كتاباً يعلم فوراً أن هناك أحداً أملى هذا الكتاب، وأن آلة قد طبعته، ولا يشك فى هذا ولا يتردد أبداً ؟

وحصول هذه اليقنيات له كانت كلها من طريق الخبر أو الأثر، وهما الدليل العقلى للإيمان بكل الغيوب. ولهذا سوف نتكلم عن الملائكة بملء الفم، ونقرر أن وجودهم يقينى، وحقيقة ثابتة لا يقوى عاقل على إبطالها أو نفيها. أما الذين كفروا بربهم، وتنكروا لعقولهم، وهبطوا من سماء كرامة آدميتهم؛ فأصبحوا لا يؤمنون بشيء حتى بوجودهم - فإننا لا نقيم لهم وزناً، آمنوا أو كفروا، صدقوا أو كذبوا.

وهذا هو دليل وجود الملائكة عليهم السلام وهو الدليل الذى قدمنا أنه بواسطة آمن العقلاء بكل غيب تعذر أن يكون من قسم الشهادة، والدليل كما سبق أن عرفناه، يتكون من عنصرين: الأول الأخبار، والثانى الآثار.

الأخبار:

أولاً: أخبار الله تعالى، رب العالمين، وخالق الملائكة، والجن، والناس أجمعين، وكفى بما يخبر به الله تعالى دليلاً؛ إذ الخالق أعلم بما خلق، ومن أخبره تعالى قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: 30).

فقد تضمن هذا الخبر وجود الملائكة ومخاطبة الله تعالى لهم، ومخاطبتهم له سبحانه وتعالى، وهو دليل قاطع على وجود الملائكة. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة: 34).

ففى هذا الخبر أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم، وأنهم سجدوا إلا إبليس أبى، وهل يؤمر ويمثل غير موجود؟!

وقوله تعالى: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: 172).

ففى هذا الخبر أن الملائكة المقربين لا يستنكفون من عبادة الله ولا يستكبرون، وهل يستنكف ويتكبر غير موجود؟ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشْهَدُوا خَلْقَهُمْ﴾ (الزخرف: 19).

وفى هذا الخبر ينكر تعالى، ويعيب على المشركين دعواهم أن الملائكة إناث حيث قالوا ما ليس لهم به علم، فهل يعقل أن يُعاب أو ينكر على غير موجود؟

وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾ (النجم: 26).

ففى هذا الخبر أن كثيراً من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عن أحد شيئاً، وهل يشفع أو لا يشفع غير موجود؟ وأخيراً فهل هذه الأخبار الإلهية عن الملائكة وهى كثيرة جداً، وكلها تتحدث عن صفاتهم، وأحوالهم، وعباداتهم، وأعمالهم لا تدل على وجود الملائكة، دلالة تكسب اليقين؟ اللهم بلى.

ثانياً: أخبار الرسل عليهم الصلاة والسلام، وتحديثهم عنهم، ووصفهم لهم، وتلقيهم الوحي بواسطتهم، وهى كثيرة فلنكتف منها بما تواتر عن خاتم أولئك الرسل وإمامهم محمد - عليه الصلاة والسلام - فقد صح عنه ﷺ قوله: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا صورة»⁽¹⁾ وقوله: «إن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»⁽²⁾ وقوله: «إن لله فى الأرض ملائكة سياحين يبلغوننى عن أمتى السلام»⁽³⁾ وقال: «إذا آمن الإمام فأمنوا؛ فإن الملائكة تؤمن، فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه»⁽⁴⁾. وكان يقول فى دعائه: «اللهم رب جبرائيل،

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم، اللؤلؤ والمرجان (39/3)، مسلم (157/6)، والبخارى (138/4).

(2) رواه مسلم (80/2).

(3) إسناده صحيح، ورجاله رجال الصحيح، وقد أخرجه أحمد والنسائى وابن حبان. فضل الصلاة على النبى ﷺ من تعليق الألبانى الطبعة الثانية ص (36).

(4) متفق عليه واللفظ لمسلم. اللؤلؤ والمرجان (83/1)، مسلم (17/2)، والبخارى (187/1).

وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»⁽¹⁾ كما أخبر ﷺ، وتحدث عن ملك الموت وأعوانه، وعن الروح، وعن ملكي القبر، وعن الحفظة، والكرام الكاتبين، وعن رضوان خازن الجنان، وعن مالك خازن النيران، وغيرهم من الملائكة في أحاديث متواترة صحيحة، فكيف يسوغ عقلاً، أو يصح منطقاً وذوقاً أن تبلغ الإنسان هذه الأخبار الإلهية والنبوية، وهي أصح خبر في الوجود، ولا يؤمن بالملائكة ولا يصدق بوجودهم ؟ ! اللهم لا.

الآثار:

آثار الملائكة الدالة عليهم دلالة قطعية كثيرة جداً، نكتفي بطرف منها فنقول: هذا القرآن الكريم كتاب الله بين أيدينا سوره العديدة، وآياته الكثيرة، وعلومه، ومعارفه، وإعجازه أثر من آثار الملائكة ؛ إذ تلقاه المنزل عليه ﷺ بواسطة، ولم يكن من الله مباشرة، فما هي الوساطة ؟ إنها جبريل كما أخبر بذلك مرسله، ومنزله في قوله: ﴿وَإِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٦) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء: 192-195).

وهذا ملك الموت الذي يتخطفنا يومياً فيأخذ أرواحنا، وينهي بأخذها حياتنا، ويفصلها عن أجسامنا، فتعدم الحياة، فهل يشترط للتصديق به رؤيتنا له، وآثار فعله ظاهرة فينا لا تنكر ؟ اللهم لا. ولو سألنا خالقنا وقلنا: من يتوفانا ؟ لكان الجواب: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (السجدة: 11).

ثم إن كلاً من جبريل وملك الموت عليهما السلام قد رؤيا عياناً غير مرة وهما من أعظم الملائكة، فجبريل قد دخل مرة المسجد وعشرات المصلين حاضرون، فانتهى إلى النبي ﷺ وهو جالس فجلس إليه، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع يديه على فخذه، وأخذ يسأل رسول الله ﷺ وهو يجيبه، فسأله عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وأشرط الساعة، وكان ساعتئذ في صورة رجل⁽²⁾. كما أن ملك الموت قد تواترت الأخبار برؤيته عند دنوه من المريض لقبض روحه، فكم من مريض تحدث بذلك، وأخبر به قبل وفاته بفترة زمنية ثم يموت.

الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية:

وبعد: فإنه لم يبق بنا حاجة إلى سرد المزيد من الأدلة على وجود الملائكة، فلذا نشرع الآن

(1) رواه مسلم من حديث عائشة رضی الله عنها (2/ 185).

(2) هذا الحديث الذي ذكر إجمالاً رواه مسلم (1/ 28-29)، ورواه البخاري بمعناه (6/ 144).

فى تقرير كون الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن فنقول: لقد ذكر الله تعالى أركان العقيدة الإسلامية فى عدة آيات من كتابه، وذكر من بينها عقيدة الإيمان بالملائكة وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة: 177). وفى قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: 285). وفى قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: 136).

كما ذكر الرسول ﷺ فى حديث عمر المعروف بحديث جبريل أركان الإيمان الستة وذكر من بينها الإيمان بالملائكة وأقره جبريل على ذلك وصدقه؛ إذ كان هو السائل له فى محضر مئات الصحابة وهو فى صورة رجل، وبعد انصرافه أعلن الرسول ﷺ لأصحابه أن السائل كان جبريل عليه السلام⁽¹⁾.

وبهذا كان الإيمان بالملائكة ركناً من أركان عقيدة المؤمن التى لا تتم إلا به، وكان من شك فيه، أو حاول التشكيك كاذباً كافراً لا حظ له فى الإسلام، ولا مقام له بين المسلمين؛ لتكذيبه لله ورسوله والمؤمنين، ولإنكاره لقضايا العقول، ومسلماتها البديهية.

خلق الملائكة

تعريف:

الملائكة: جمع ملائكة، نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله، ثم حُذفت الألف تخفيفاً فصارت ملكاً؛ وهو مشتق من كلمة الألوكة التى هى الرسالة، والجمع ملائكة وملائكة.

مادة خلق الملائكة:

الملائكة خلق عظيم، وعددهم كثير لا يأتى عليه العد، ولا يحصى من دون الله أحد، خلقهم الله من النور، وطبّعهم على الخير، فهم لا يعرفون الشر، ولا يأمرؤن به، ولا يأتون به، ولا يفعلونه. فلذا هم لربهم مطيعون، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. يسبحون الليل والنهار لا يفترون، ولا يسأمون من عبادة الله ولا هم عنها يستكبرون، أخبر الرسول ﷺ عن مادة خلقهم فقال: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجن من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»⁽²⁾.

(1) تقدم تخريجه.

(2) إشارة إلى قوله: ﴿إِنْ مِثْلَ عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: 59)، وإلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ (الحجر: 26)، والحديث رواه مسلم (8/ 227).

تفاضل الملائكة

والملائكة يتفاضلون في القرب من الله تعالى وعلو المنزلة كالبشر أو هم أكبر تفضلاً، إن منهم الملائكة المقربين، لقوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ (النساء: 172). ومنهم حملة العرش لقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة: 17).

ومنهم الكروبيون، ومنهم غير ذلك، وأفضلهم: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل ملك الموت، وأعظمهم الروح الأمين عليهم السلام أجمعين.

أعمال الملائكة:

إن ما يقوم به الملائكة من أعمال لكثير جداً، ومختلف متنوع إلى حد كبير، وهذا بيان مجمل عما جاء في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة من وظائف الملائكة وأعمالهم التي أناطها الله تعالى بهم عبادة له وطاعة:-

1 - جبريل عليه السلام، ويسمى روح القدس أيضاً، وصفه الله عز وجل بالقوة والأمانة في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ (التكوير: 19-21).

وخصه بأشرف وظيفة، وهي السفارة بينه تعالى، وبين رسله عليهم السلام فكان ينزل بالوحي كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ (الشعراء: 192-194).

وصح عن النبي ﷺ أنه رافقه في أعظم رحلة تمت في الوجود، وهي إسراء النبي ﷺ ومعرجه، فرافقه عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المسجد الأقصى، ومنه إلى سدرة المنتهى بالملكوت الأعلى (1).

2 - ميكائيل: ووظيفته التي وكله الله بها المطر والنبات.

3 - إسرافيل: ووظيفته التي وكل بها النفخ في الصور يوم القيامة.

4 - ملك الموت عزرائيل: وهو موكل بقبض الأرواح، وله أعوان من الملائكة لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفْرِطُونَ﴾ (الأنعام: 61).

(1) قصة الإسراء والمعراج ثابتة في الصحيحين، راجع اللؤلؤ والمرجان (1/ 35-39)، والبخاري (1/ 92-94). ومسلم (1/ 99-101)، وقد ثبتت قبل ذلك بالقرآن وفيه سورة باسم الإسراء، وسيأتي تفصيل في (الوحي الإلهي وطرقه) فيما سيأتي من موضوعات الكتاب - إن شاء الله تعالى.

5 - أعوان ملك الموت، وهم صنفان: ملائكة رحمة، وملائكة عذاب، وهم مع ملك الموت، المقصودون بقوله تعالى: ﴿تَوَفَّهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾.

6 - حملة العرش: عرش الرحمن عز وجل وهم أربعة، وإذا جاء يوم القيامة أضيف إليهم أربعة آخرون، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ (غافر: 7). ولقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (الحاقة: 17).

7 - رضوان: وعمله الذى وكل به خزانة الجنان، فهو خازن الجنة ورئيس الخدم بها.

8 - خدم الجنة: وهم ملائكة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: 23-24).
وورد أن للواحد من أهل الجنة خدماً لا يقلون عن ثمانين ألف خادم، وظيفتهم: خدمة أهل الجنة (1).

9 - الزبانية: وهم تسعة عشر ملكاً، وكلهم الله تعالى بالنار، فهم خزائنها يعذبون فيها أهلها، قال تعالى: ﴿سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ (٢٧) لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ (٢٨) لَوَاحِجَةً لِّلْبَشْرِ (٢٩) عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ (٣٠) وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (المدر: 26-31).

ورئيس هؤلاء الخزنة يدعى مالكا. قال تعالى فى الحديث عن أهل النار: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ (٧٧) لَقَدْ جِئْتَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾ (الزخرف: 77، 78).

10 - الكرام الكاتبون: وعملهم كتابة أعمال البشر، وإحصاؤها عليهم، فعلى يمين كل مكلف ملك يكتب صالح أعماله، وعن يساره ملك يكتب سيئات عمله. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (الانفطار: 10-12). وفى الصحيح: «إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبرزق أمامه فإنه يناجى الله تعالى ما دام فى مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً، ليبصق عن يساره، أو تحت قدمه» (2).

11 - الحفظة: عملهم حفظ الإنسان من الجان، والشیطان، والعاهات والآفات، قال تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الرعد: 11).

(1) روى الترمذى حديثاً فى هذا المعنى ولكن فى إسناده كلام.

(2) وإن قيل: كيف يبصق عن يساره وكتب السيئات عن يساره؟ قيل: إن المؤمن فى الصلاة لا يفعل سوءاً قط فلذا ينضم كاتب السيئات إلى كاتب الحسنات، إذ الصلاة هى أم الحسنات ولا سيئة فيها، والحديث رواه الشيخان بلفظ قريب من هذا - اللؤلؤ والمرجان - (1/111).

قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية: «ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه» (1). وقال مجاهد: «يحفظونه في نومه ويقظته من الجن والإنس، والهوام» (2).

12 - الملك الموكل بالرحم: لحديث البخاري ومسلم واللفظ له: «إن الله عز وجل قد وكل بالرحم ملكاً فيقول: أي رب نطفة، أي رب علقة، أي رب مضغة، فإذا أراد الله أن يقضي خلقاً قال: قال الملك أي رب ذكر أو أنثى - شقى أو سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيكتب كذلك في بطن أمه» (3).

13 - ملك الجبال: وهو ملك وكله الله بالجبال لحديث البخاري ومسلم: «فناداني ملك الجبال فسلم عليّ فقال: يا محمد ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ... الحديث».

14 - الملائكة السياحون: وهم ملائكة في الأرض يبلغون سلام أمة محمد وصلاتها على نبيها صلى الله عليه وسلم لحديث أحمد وهو صحيح الإسناد «إن لله في الأرض ملائكة سياحين يبلغونني عن أمتي السلام» (4).

15 - ملائكة الدعاء، وعملهم الذي وكلوا به أن العبد إذ دعا بدعوة لأخيه المؤمن وهو غائب قال الملك: «آمين ولك بمثل ذلك»، ولحديث مسلم: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكل به: آمين ولك بمثل» (5).

16 - ملائكة العروج بأرواح العباد بعد الموت، لحديث مسلم: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان فيصعدانها» - قال حماد (راوي الحديث) فذكر من طيب ريحها وذكر المسك قال -: «ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض صلى الله عليك وعلى ما كنت تعمريته، فينطلق به إلى ربه عز وجل ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأجل» .. وذكر للكافر عكس ذلك (6).

17 - منكر ونكير: وعملهما سؤال العباد في قبورهم عن الرب تعالى، والدين، والنبي صلى الله عليه وسلم أي يقولان له: من ربك، وما دينك، ومن نبيك؟ لحديث الترمذي وهو حسن الإسناد وأصله في الصحاح وفيه: «إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر وللآخر نكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول، هو عبد الله ورسوله، فيقولان: قد

(1) تفسير ابن كثير طبعة الحلبي (2/503).

(2) اللؤلؤ والمرجان (3/208)، والبخاري (1/83)، ومسلم (8/46).

(3) اللؤلؤ والمرجان (2/227/228).

(4) أخرجه النسائي وابن حبان، فضل الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بتعليق ناصر الدين الألباني الطبعة الثانية (ص 36).

(5) معناه لمسلم (8/86). (6) مسلم (8/162).

كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينور له فيه، ثم يقال له: نم فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»، وإن كان منافقاً قال: «سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله، لا أدري، فيقولون: قد علمنا أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التثمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك»⁽¹⁾.

هذا وإذا تتبعنا الآثار الواردة في أعمال الملائكة ملاحظين الآيات القرآنية الدالة على الملائكة وأعمالهم مثل قوله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ﴾، ﴿فَالزَّاجِرَاتِ﴾، ﴿فَالثَّالِيَّاتِ﴾، ﴿وَالنَّازِعَاتِ﴾، ﴿وَالنَّاشِطَاتِ﴾، ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ﴾، ﴿فَالْمَقْسِمَاتِ﴾ لقلنا في صدق: إن الكون كله علويه وسفليه قد أنيط أمر تديره بالملائكة، وذلك بإذن ربهم تعالى، ويضاف إلى ذلك أن النبي ﷺ قال: «أطت السماء وحق لها أن تئط، ما من موضع أربع أصابع إلا عليه ملك واضع جبهته ساجداً لله تعالى»⁽²⁾.

بعض صفات الملائكة

إن الملائكة بذواتهم وصفاتهم من الغيب المحض، قد دل الدليل العقلي والشرعي على وجودهم، وعلى وجوب الإيمان بهم، والتصديق بأعمالهم، وأحوالهم. والمراد من الدليل العقلي والشرعي ما سبق أن ذكرناه من أنه الأخبار الصادقة، والآثار الناطقة.

ومن خلال الأخبار الصادقة التي هي الدليل الشرعي تحصلنا على عدد كبير من صفات الملائكة، وأحوالهم نشبه هنا في آخر بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن تقريراً وتأكيذاً فنقول:

١- حيائهم:

إن الملائكة تستحي استحياء يليق بحالها؛ إذ قد صح أن النبي ﷺ قال: «ألا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة؟»⁽³⁾ يعني بذلك الرجل: عثمان بن عفان رضي الله عنه. ففي هذا الخبر الصادق الصحيح دليل على صفة الحياء للملائكة.

٢- تآذيهم:

إن الملائكة تتأذى من المكروه كما يتأذى منه الإنسان لحديث مسلم: «من أكل من الثوم، والبصل، والكراث فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم»⁽⁴⁾ ولحديث

(1) رواه الترمذي (جناز/ 70)، وأبو داود بمعناه (2/ 540، 541)، وابن ماجه (جناز/ 65)، وأحمد (3/ 126، 4/ 288).

(2) رواه أحمد (5/ 173)، والترمذي (زهد/ 9)، وابن ماجه (زهد/ 19)، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي.

(4) مسلم (2/ 90).

(3) رواه مسلم (7/ 117).

الصحيحين أيضاً «إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب ولا صورة»⁽¹⁾، فعدم دخولهم البيت الذي فيه كلب أو صورة كراهية منهم لهما دليل على تأذيتهم من هذا المكروه.

٣ - تنزههم عن الأعراض البشرية:

إن الملائكة منزّهون عن الأعراض البشرية كالجوع، والمرض، والأكل والنوم، والتعب وما إلى ذلك، فقد جاء في القرآن ما يدل على ذلك بدلالة الالتزام، إذ أخبر تعالى عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (الأنبياء: 20). ولازم ذلك أنهم لا ينامون ولا يأكلون ولا يشربون ولا يتعبون.

٤ - خوفهم من الرب تبارك وتعالى:

إن الملائكة يخافون من الله تعالى، أثبت ذلك الخبر القرآني في مثل قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: 49، 50). وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (الأنبياء: 28).

٥ - طاعتهم لله تعالى:

إن الملائكة مطيعون لله تعالى، لا يعصونه بحال من الأحوال، وذلك لقوله: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحریم: 6). وقوله: ﴿عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنبياء: 26، 27).

٦ - حبهم لمن يحب ربهم:

إن الملائكة تحب حباً يليق بحالهم، وحسب ذواتهم فقد دل الدليل الشرعي على أنهم يحبون، ففي حديث الصحيحين: «إن الله تعالى إذا أحب عبداً نادى جبريل: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادى جبريل في السماء: إن الله قد أحب فلاناً فأحبه، فيحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض»⁽²⁾.

٧ - دعاؤهم ولعنهم:

إن الملائكة ليدعون ربهم ويسألونه كما قال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ

(1) متفق عليه واللفظ لمسلم، اللؤلؤ والمرجان (3/ 39)، مسلم (6/ 157)، والبخاري (4/ 138).

(2) اللؤلؤ والمرجان (3/ 205، 206)، والبخاري (9/ 173، 174)، ومسلم (7/ 40، 41).

لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٦٧﴾ (غافر: ٦٧). وإنهم ليلعنون من لعنه ربُّهم سبحانه وتعالى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُّ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (البقرة: ١٦١، ١٦٢).

٨ - عظم خلقهم وتفاوتهم فيه:

إن خلق الملائكة لعظيم، وهم يتفاوتون فيه تفاوتاً كبيراً، فقد صح أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح^(١)، في حين أن من الملائكة من له جناحان فقط، كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فاطر: ١).

روى أبو داود بسند صحيح أن النبي ﷺ قال: «أذن لي أن أتحدث عن ملك من حملة العرش رجلاه في الأرض السفلى، وعلى قرنه العرش، ومن شحمة أذنه وعاتقه خفقان الطير سبعمئة عام، فيقول ذلك الملك: سبحانك حيث كنت».

وروى الحاكم وصححه ووافقه الذهبي في ذلك عنه ﷺ قوله: «إن الله أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض، وعنقه مشية تحت العرش، وهو يقول: سبحانك ما أعظمك!! فيرد عليه: لا يعلم ذلك من حلف بي كاذباً»^(٢).

الجن والشياطين

وبمناسبة بحث الركن الثاني من عقيدة المؤمن «الإيمان بالملائكة عليهم السلام» نعرض لقضية الجن والشياطين؛ إذ الإيمان بوجودهما جزء من عقيدة المؤمن أيضاً، وذلك لأنهما من الغيب الذي أمر المؤمن بالإيمان به وتصديق الله ورسوله فيما قالوا في شأنه، وأخبر به.

ولولا الرغبة في زيادة إنارة عقيدة المؤمن لما كان بنا حاجة إلى بحث هذه المسألة من العقيدة بحثاً مستقلاً، وذلك لأمرين: أولهما: أن من آمن بالله تعالى، وبعلمه، وقدرته، وحكمته لا يتردد في تصديق الله تعالى في أي شيء يخبر به من غيب أو شهادة، لاسيما مسألة كهذه حيث قررها الله تعالى، وأثبتها في عشرات الآيات من كتابه الكريم. وثانيهما: أن الأدلة العقلية،

(١) ثبت هذا في الصحيحين، اللؤلؤ والمرجان (٤/١)، والبخاري (٤٦/١٤٠)، ومسلم (١/١٠٩).

(٢) ذكره صاحب الجرائد وعزاه إلى أبي داود، والذي وقفت عليه في أبي داود نصه: «أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمئة عام» والمراد من الديك أنه شبه الديك، ومعنى مرقت: خرقت، أبو داود (٢/٥٣٤).

والبراهين التي سقناها للإيمان بالملائكة عليهم السلام، هي بعينها يؤتى بها هنا، ويُستدل بها على وجود الجن والشياطين، وخلاصتها: أن الكائنات كلها ما بين غيب وشهادة، وأن الإنسان إذا كان في مكان خلت منه سائر الأمكنة وأصبح كل ما لا يراه، ولا يسمعه، ولا يحس به لبعده عنه غيباً له، فإذا ما صدق به كان ذلك إيماناً منه بالغيب، وطريقه إليه هو الآثار الدالة، والأخبار الصادقة، فإذا وُجد أثر لشيء ما كان الإنسان مضطراً إلى التصديق به، وإن لم يره، ولم يسمعه، ولم يحس به بأية حاسة من حواسه التي هي مصدر حصوله على أغلب علومه، ومعارفه. كما أنه إذا أخبره ثقة بشيء من الممكنات فضلاً عن أن تخبره جماعة كثيرة يستحيل عادة تواطؤها على الكذب آمن بما أخبر به، وصدق تصديقاً جازماً، بحيث لا يتردد في صحة ثبوته أبداً، بل قد يُعد المكذب به ناقصاً في عقله، هابطاً من شرف إنسانيته وكرامة آدميته.

ولما كان المؤمن قد آمن على مثل هذين الدليلين بالملائكة، وهم من الغيب المحض، فكيف لا يؤمن بعالم الجن والشياطين، وهما أقرب المغيبات إلى الملائكة عليهم السلام.

أدلة وجود الجن والشیطان

والآن نورد الأدلة والبراهين المثبتة لوجود الجن والشياطين بالآثار والأخبار كما برهنا بذلك على وجود الملائكة الأَطهار، واكتفينا به:

١- الآثار:

إن الآثار الدالة على وجود الجن والشياطين كثيرة جداً وحسبنا منها ما يلي:

- 1- الصرع الذي لا يكاد يخلو منه زمان ولا مكان، ومنذ فجر التاريخ، ونعني بالصرع ما كان سببه الأرواح الخبيثة، وهي أرواح الشياطين، وأما ما كان سببه الأخطا الرديئة فذاك شيء آخر، فإنه قد يعالج بالأدوية المادية، وقد يشفى صاحبه، وقد لا يشفى، وإنما نعني بالصرع الدال على وجود الجن والشياطين، الصرع الذي سببه الأرواح الخبيثة، ذلك الصرع الذي وقف الطب حتى في أيام تقدمه، وقف حياله لا يبدى، ولا يعيد، فإنه أثر من آثار الجن والشياطين، ودليل قاطع على وجودهم.
- 2- تكلم الجن على لسان الشخص الذي يحل فيه، ويتلبس به، وإخباره بأمر لم يكن الإنسان المصاب به يعرفها، حتى إن بعضهم ليتكلم بلغات لم يكن المصاب يعرف منها حرفاً واحداً.
- 3- خروج الجن من الإنسان الذي حل فيه وركبه، بواسطة الرقى من ذوى الأرواح الطيبة، والنفوس الزكية، أو بواسطة الأرواح الخبيثة من البشر ممن يوالون الشياطين، ويتعاونون معهم،

وتصريح الجن بالخروج وعدم العودة بالمصروع، وذلك بعد تخويفه وتهديده من الرقى، وهذه المسألة قد يستغربها البعض، أو ينكرونها، غير أن الواقع أثبت بما لا مجال للشك فيه بحال من الأحوال.

4 - ظهور بعض الجن لبعض الناس، ومخاطبتهم إياهم وهذا أيضاً متواتر الأخبار بحيث يعد إنكاره غباء وجهالة. أو مكابرة وجحوداً، لا يرضاها العاقل لنفسه.

5 - الجرائم التي يرتكبها الإنسان بين الناس من لواط، وزنا، وقتل نفس، وسرقة، وشرب الخمر، وكفر، وعقوق، وكذب، وخلف للوعد، ونكث بالعهد، كل هذه الجرائم التي تتنافى مع الفطر البشرية، والشرائع الإلهية، والقوانين الدولية هي بدون شك آثار للشياطين؛ إذ هي التي تحسنها للإنسان، وتزينها له، وتغريه بارتكابها، لإغوائه وإفساد روحه التي عليها مدار سعادته وشقاؤه في الدار الآخرة؛ إذ الشياطين في إفساد أرواح الناس هي بمثابة الجرائم التي تفسد أجسامهم وسواء بسواء.

وهنا نقول: سبحان الله إننا لو قلنا لإنسان مريض إن سبب مرضك أيها الأخ الجرائم الفلانية، أو الفلانية فاستعمل لها الدواء الفلاني فإنك تشفى بإذن الله تعالى، لما تردد في تصديقنا، ولبادر إلى استعمال الدواء، وجربه مع أنه لم ير الجرائم، ولم يحس بها بأية حاسة من حواسه، وإنما صدقنا للأثر الذي شاهده وهو المرض القائم بجسمه، والذي يشعر بالآلامه وأتعابه كل ساعة من ساعات أيام مرضه. وإذا قلنا له: إن نفسك مريضة، ولذا أنت تحب الكذب، والخيانة، وترغب في الجريمة، وتميل إلى الخبث، وأن سبب مرض نفسك الشيطان فاستعمل له كذا وكذا فإنك تشفى بإذن الله لأنكر غالباً ولم يصدق، في حين أن الدليل واحد في المسألتين، وهى الآثار الدالة على المرض الجسماني والروحاني، وعدم تصديقه بالمسألة الأخيرة أكبر دليل على وجود الشيطان؛ إذ لو لا صرفه عن التصديق بما ألقى في نفسه من الريب، والشكوك لما كذب، وأنكر أبداً، إذ ما ثبت به وجود الجرائم في الجسم وهو الأثر، هو عين ما يثبت به وجود الشياطين وهو الأثر أيضاً.

٢ - الأخبار:

إن الأخبار الإلهية، والنبوية الصادقة، والناطقية بوجود الجن والشياطين لكثيرة جداً، فلنكتف بذكر طائفة منها، ولنبدأ بأخبار الله تعالى:

١ - أخبار الله تعالى:

أخبره تعالى المصراحة بوجود الجن والشياطين كثيرة، منها: قوله تعالى في خلق الإنسان والجان: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِّنْ نَّارٍ﴾ (الرحمن: ٦٤، ٦٥). وقوله في بيان العلة في خلقه للإنس والجن: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ

مِنْهُمْ مَنْ رَزَقَ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿الذاريات: 56 - 58﴾. وقوله تعالى في الإخبار عن طاعة ملائكته له، وفسق إبليس عن أمره، وفي النهي عن اتخاذ إبليس وذريته أولياء: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ (الكهف: 50).

وقوله تعالى في إخباره بخلق الإنسان، وتصويره، وأمر ملائكته بالسجود له، وامتناع إبليس عن ذلك، وتوبيخه على عدم السجود، واعتذار إبليس عن عدم السجود لآدم، وهو عذر أقبح من ذنب، وعن طرد الله تعالى له من الجنة وإبلاسه، وإيعاده هو ومن تبعه من الناس بعذاب جهنم: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يَبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُ مِنْهُمْ مِيقَاتٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا ﴿١﴾ لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: 11 - 18).

وقوله في الإخبار بأن شياطين الجن وشياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض الباطل والكذب، لتضليل الناس، وإغوائهم بالفتن والشُرور: ﴿شَیَاطِینَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: 112).

وقوله تعالى في الإخبار بما امتن به على عبده ورسوله سليمان عليه السلام، وتسخير الجن والشياطين له، حيث كان يستخدمهم عليه السلام في شتى الأعمال والأغراض: ﴿وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ (سبأ: 12، 13). وفي آية أخرى يقول: ﴿وَالشَّيَاطِينُ كُلُّ بَنَاءٍ وَغَوَاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص: 37 - 39).

وقوله تعالى في الإخبار عن جن نصيبين الذين حضروا صلاة الصبح مع الرسول عليه الصلاة والسلام في بطن نخلة⁽²⁾، وكيف رجعوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإيمان بالرسول ﷺ وينذرونهم مما يترتب على عدم إيمانهم من العذاب الأليم: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ

(1) المذؤوم: المعيب بأسوء العيوب، والمدحور: المطرود المبعد. (2) مكان بين مكة والطائف.

يَسْتَمْعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيَجْرِكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (الأحقاف: ٢٩، ٣٠).

وقوله تعالى في أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر بما أوحى إليه من استماع الجن لقراءته، وبالذي دار بين الجن من أحاديث عجيبة، تحوى حقائق مذهشة عظيمة عن الجن، وعقائدهم، وأعمالهم، وأحوالهم: ﴿قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿ (الجن: ١، ٢). في كذا آية من سورة الجن.

وقوله تعالى في الأمر بالاستعاذة من الشيطان في ثلاث آيات منها: ﴿وَمَا يَنْزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٢٠٠). ومنها ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿ (النحل: ٩٨-١٠٠). ومنها: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ (١) مَلِكِ النَّاسِ (٢) إِلَهِ النَّاسِ (٣) مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ (٤) الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ (٥) مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾.

٢- أخبار الرسول ﷺ

وهي كثيرة منها قوله ﷺ في الإخبار عن القرين من الجن، والذي وكل بكل إنسان: «ما من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن» قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير» (١). وقوله ﷺ في الإخبار عن دخول الشيطان مع الإنسان بيته، وتناوله من طعامه وشرابه وذلك من رواية مسلم: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه قال الشيطان (لأولاده ومن معه من الشياطين): لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر الله عند دخوله قال الشيطان: أدركتم المبيت، وإذا لم يذكر الله عند طعامه قال: أدركتم المبيت والعشاء» (٢)، وقوله ﷺ في النهي عن الأكل والشرب بالشمال والتعليل بأكل الشيطان وشربه بشماله: «لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشربن بها؛ فإن الشيطان يأكل بشماله، ويشرب بها» (٣)، وقوله ﷺ وهو يحذر المؤمنين من أن يبيت أحدهم وفي يده أثر طعام، أو إدام من أن يأتي الشيطان للحس ذلك من يده فيؤذيه: «إن الشيطان حساس لحاس فاحذروه على أنفسكم، من بات وفي يده غمر فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه» (٤)، وقوله ﷺ لما سأله الجن الزاد في حديث الصحيح:

(١) مسلم (٨/ ١٣٩). (٢) مسلم (٦/ ١٠٨). (٣) رواه مسلم (٦/ ١٠٩)، ومالك، وأبو داود. (٤) أخرجه الترمذي (أطعمة/ ٤٨)، وأبو داود (١/ ٣٠)، وابن حبان وغيرهم، ومعنى حساس: شديد الإحساس، ولحاس: كثير اللبس، غمر بفتح الغين والميم: رائحة الطعام.

«كل عظم ذكر اسم الله عليه وقع في يد أحدهم أوفر ما يكون لحماً، وكل بعير علف لدوابهم»⁽¹⁾ ومن هنا نهى رسول الله ﷺ عن الاستجمار بالعظم والروث، وقال معللاً النهي: «فإنه زاد إخوانكم من الجن»⁽²⁾، وقوله ﷺ في صلاته بالليل: «إن عفريتاً من الجن تفلت على البارحة ليقطع على الصلاة فأمكنني الله منه، فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تصبحوا وتنظروا إليه كلكم ... الحديث»⁽³⁾. وقوله ﷺ في إرشاده لأمته أن تسأل الله تعالى عند سماع صياح الديك وتستعيذ بالله من الشيطان عند سماع نهيق الحمار: «وإذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله فإنها رأت ملكاً، وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان فإنه رأى شيطاناً»⁽⁴⁾، وقوله ﷺ في الإرشاد إلى الآداب في حديث البخاري: «الثأوب من الشيطان»⁽⁵⁾، وقوله ﷺ أيضاً وهو يرشد أمته إلى كيفية رد كيد الشيطان ومجاهدته بدفع ما يلقيه من الشبه في نفس العبد: «يأتى الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»⁽⁶⁾، وقوله ﷺ في الصحيح كذلك: «إذا كان جنح الليل أو أمسيتم، فكفوا صبيانكم، فإن الشياطين تنتشر حينئذ ... الحديث»⁽⁷⁾.

وجوب الإيمان بوجود الجن والشياطين:

للك الأدلة العقلية والفعلية، التي سقناها كان الإيمان بوجود الجن والشياطين واجباً حتماً، بل كان جزءاً من عقيدة المؤمن لا يتجزأ وكل محاولة لإخلاء العقيدة الإسلامية من التصديق بوجود عالمي الجن والشياطين تعد كفرأ صراحاً، مخرجاً من الملة المحمدية، لأجل ما في ذلك من التكرار للعقل، ورفض بدهياته، ولتكذيب الله تعالى في أخباره، ولتكذيب الرسول ﷺ، وكفى بتكذيب الله تعالى، وتكذيب رسول الله ﷺ كفرأ وباطلاً.

بعض معلومات عامة عن الجن والشياطين:

وها هي ذى بعض المعلومات عن عالمي الجن والشياطين، ونوردها تقريراً لمبدأ الإيمان

(1) رواه البخاري من حديث أبي هريرة وجاء فيه: «فقلت: فما بال العظم والروثة؟ قال: هما من طعام الجن، وإنه أتاني وفد جن نصيبين، ونعم الجن، فسألوني الزاد، فدعوت الله لهم أن لا يمروا بعظم ولا بروثة إلا وجدوا عليها طعاماً» (59/7).

(2) رواه أبو داود والترمذي والنسائي. (3) متفق عليه، واللفظ للبخاري، اللؤلؤ والمرجان (1/109).

(4) متفق عليه واللفظ للبخاري، اللؤلؤ والمرجان (3/233)، متن البخاري (4/155).

(5) متفق عليه واللفظ للبخاري، اللؤلؤ والمرجان (3/327)، متن البخاري (4/152).

(6) متفق عليه واللفظ للبخاري، اللؤلؤ والمرجان (1/26).

(7) متفق عليه واللفظ للبخاري، اللؤلؤ والمرجان (3/16).

بوجودها، وتوضيحاً لكثير من معالم ذلك العالم الغيبي المجهول عند الذين يعيشون بعيدين عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

١- مادة خلق الجن:

الجان هو أبو سائر الجن، وهو مخلوق من مادة النار المعروفة، وكان خلقه قبل خلق الإنسان، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ﴾ (الحجر: 26-27).

وهل السنة في خلق الجن وذريته كالسنة في خلق آدم وذريته؟ بمعنى أن الجان الأول خلق من نار وأولاده خلقوا بطريقة أخرى كالتناسل؟ محتمل والله أعلم.

٢- لم سمى الجن جنّاً؟

سمى الجن جنّاً لا جنتانهم، وهو استتارهم، وعدم ظهورهم للناس، لأن الاجتنان هو الاستتار، وهو مأخوذ من جن الليل إذا أظلم، فستر الأشياء بظلامه، ومنه سُميت جنة المقاتل وهي الخوذة التي يجعلها على رأسه في الحرب وسميت الجنة دار النعيم جنة، لأنها تستر بأشجارها الكثيرة الملتفة من يدخلها، كما سمى الجنين في بطن أمه جنيناً لاستتاره ببطن أمه، وعدم ظهوره. قال تعالى في الشيطان من الجن: ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ (الأعراف: 27).

٣- افتقار الجن إلى الغذاء:

إن الجن مفتقرون إلى الغذاء المناسب لذواتهم كافتقار سائر الحيوانات والنباتات لأغذيتها المناسبة لها، والدليل على هذه الحقيقة: ما صح من أن الجن سألوا رسول الله ﷺ الزاد فقال لهم: «كل عظم يذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحماً»^(١) ونهى ﷺ عن الاستجمار بالعظم، وقال: «إنه طعام إخواننا من الجن». كما نهى عن الأكل بالشمال والشرب بها وعلل ذلك بأن الشيطان يأكل ويشرب بشماله.

فثبت بهذه الأحاديث الصحيحة المخرجة في البخارى ومسلم أن الجن والشياطين يأكلون ويشربون، وذلك لأجل التغذية اللازمة لهم حسب ذواتهم والطبيعة التي خلقهم الله تعالى عليها.

٤- الجن يتوالدون:

لا شك أن الجن والشياطين تتم بينهم عملية التوالد بحسب طبيعة خلقهم وتكوينهم، وأن

(١) تقدم تخريج هذا الحديث قريباً في فصل أخبار الرسول ﷺ.

لهم سنة في ذلك يتم بحسبها وجود ذرية لهم، كما تتوالد سائر الأحياء، كل على نظام السنة التي جعلها الله تعالى له. ويشهد لهذه الحقيقة ويقررها القرآن الكريم: حيث جاء فيه قول الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: 50).

فإن المنهي عن اتخاذه وذريته أولياء هو إبليس وذريته بدليل السياق إذ أوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (الكهف: 50).

كما ورد في صحيح مسلم أن الشيطان يشارك الإنسان في طعامه وشرابه وفرشه إن لم يذكر اسم الله تعالى عند أكله وشربه ومخالطة أهله⁽¹⁾. ولهذا قال رسول الله ﷺ: «لو أن أحدهم يقول حين يأتي أهله: باسم الله، اللهم جنبني الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما في ذلك، أو قضى ولد، لم يضره شيطان أبداً». (2)

٥- هل بين الجن والشيطان فرق ؟

نعم إن بين الجن والشيطان فرقاً كبيراً، ولكي تتجلى هذه الحقيقة واضحة نذكر أن الخلق الراقي أربعة أنواع وهي: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين.

فالملائكة: عالم روحاني مستقل، له خصائصه، وصفاته، وأحواله، وقد تقدم البحث مستفيضاً في بيان حقيقة هذا العالم العلوي الكريم.

والجن: نوعان، شياطين لا خير فيهم البتة، وجن منهم الصالح، ومنهم الفاسد، فحالهم كحال الناس، منهم البار ومنهم الفاجر، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر، بيد أن الشياطين أصلهم من الجن، وذلك، لأن إبليس كان من الجن لإخبار القرآن الكريم بذلك في قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف: 50).

ولما أبلس الشيطان، وطرد من الرحمة الإلهية، وانقطع من الخير كلية، كانت ذريته مثله بحكم الوراثية، لا خير فيهم أصلاً، فلا يعرفون إلا الشر، ولا يدعون إلا إليه. والمثل القريب لذلك أن الحية لا تلد إلا حية، فلم يطرأ ولن يطرأ على نسلها - منذ أن كانت - تغيير بحيث تلد أولاداً، لا سم فيهم، ولا خبث معهم.

ثم إن كل من يخبث، ويتمرد، وينقطع عن الخير من أفراد الجن والإنسان يصبح شيطانا، فإن

(1) تقدم هذا الحديث بلفظه قريباً في فصل أخبار الرسول ﷺ.

(2) متفق عليه واللفظ للبخاري، اللؤلؤ والمرجان (2/ 100)، والبخاري (7/ 29، 30).

عتا قيل فيه مارد. وإن زاد عتوه وطغيانه قيل فيه عفريت.

وقد أثبت القرآن العظيم هذه الحقائق كلها، إذ جاء فيه أن من الجن شياطين، ومن الإنس شياطين قال تعالى: ﴿شَيَاطِينُ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام: 112). كما جاء فيه أن من الجن صالحين، وذلك في قوله تعالى فيما حكاه عن الجن: ﴿وَأَنَا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ (الجن: 11).

كما أخبر تعالى أنه خلق الجن كالإنس لعبادته وطاعته في قوله جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (الذاريات: 56 - 58).

كما أخبر تعالى أن الشيطان يأمر بالفحشاء في قوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾ (البقرة: 268).

كما أخبر تعالى أن الشيطان يضل من يتبعه، ويهديه إلى عذاب السعير في قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ﴾ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (الحج: 3، 4). وهذا هو النوع الذي لا خير فيه من شياطين الجان، وهو إبليس عليه لعائن الله تعالى.

٦ - هل الجن والشياطين يتشكلون ؟

لا شك في أن الجن كالشياطين يتشكلون بأشكال مختلفة، ويتلونون بلونا كبيرا، وهذا مما دل عليه دليل السمع، والملاحظة. وهو من الممكنات الجائزة عقلا، إذ تصور وجودها لا يوجب تناقضا عقليا أبداً.

ومن الأخبار الدالة على تشكل الجان بأشكال متعددة ما يلي:

1 - مجيء الشيطان إبليس دار الندوة في مكة ورجال قريش مجتمعون فيها للتشاور في أمر النبي محمد ﷺ ودعوته الإسلامية التي أظهرها فيهم، فتحيروا لها، وعظم عندهم أمرها، فاجتمعوا يبحثون عن تخريج لهم منها، ولو كان قتل النبي ﷺ، أو حبسه، أو نفيه، فهم كذلك حتى دخل عليهم الشيطان في صورة رجل كبير محترم من رجالات نجد ومشائخها الموقرين وشارك في اجتماعهم، ومدا ولاتهم، ورجح لهم اقتراحاً حاز أغلبية الأصوات، وهو أسوأ اقتراح تقدم به إنسان وأقبحه، وأكثره شراً وفساداً، ألا وهو الحكم بقتل الرسول ﷺ. (1)

(1) ذكر القصة ابن كثير في البداية والنهاية (3/ 175-176)، وابن هشام (2/ 103-1-5).

فهذه الحادثة متواترة لا مجال للشك فيها فضلاً عن إنكارها وجحودها.

2 - تشكل جان من جنان المدينة النبوية في صورة حية، لما روى مسلم أن أبا سعيد الخدري قال: كان فتى منا حديث عهد بعرس، فخرجنا مع رسول الله ﷺ إلى الخندق، فكان ذلك الفتى يستأذن رسول الله ﷺ بأنصاف النهار، فيرجع إلى أهله، فاستأذنه يوماً، فقال له رسول الله ﷺ: «خذ عليك سلاحك، فإنني أخشى عليك قريظة» فأخذ الرجل سلاحه، ثم رجع، فإذا امرأته بين البابين قائمة، فأهوى إليها بالرمح ليطعن بها، وأصابته غيرة، فقالت له: أكف عليك رمحك، وادخل البيت حتى تنظر ما الذي أخرجني. فدخل فإذا بحية عظيمة منطوية على الفراش فأهوى إليها بالرمح فانتظمها به، ثم خرج فركزه في الدار فاضطربت عليه، فما يُدري أيهما كان أسرع موتاً: الحية أم الفتى؟؟ (1)

3 - تشكل شيطان في صورة إنسان، وسرقته من تمر الصدقة كما جاء في حديث أبي هريرة عند البخاري، إذ فيه ما معناه أن أبا هريرة جعله رسول الله ﷺ على حراسة تمر الصدقة «الزكاة» فكان الجان يأتيه في صورة إنسان ويأخذ من تمر الزكاة، فقبضه، وأراد أن يوقع به فاعتذر للعين فتركه، ثم أتى للمرة الثالثة، وعندها عزم أبو هريرة على أن يذهب به إلى رسول الله ﷺ غير أن الشيطان اعتذر كذلك بأن له عيالاً، وأنه مضطر، وطلب من أبي هريرة أن يعفو عنه، على أن يعلمه آية من كتاب الله تعالى من قرأها فإن الشيطان لا يقربه. وهذه الآية هي آية الكرسي، فعفا عنه وتركه. ولما لاقى أبو هريرة رسول الله ﷺ بادره النبي ﷺ قائلاً: ما فعل أسيرك البارحة. فقال له أبو هريرة: كان من أمره كذا وكذا... فقال له النبي ﷺ «صدقك وهو كذوب !!!». (2)

تنبيه:

على إثر تقريرنا أن الجن والشياطين يتشكلون، كما تتشكل الملائكة ننبه إلى أنه لم يثبت لدينا خبر صحيح عن كيفية تشكل الملائكة، والجان، والشياطين، غير أنه لا يبعد أن يكون الله تعالى قد علمهم أسماء يدعوهم بها، أو كلمات يقولونها فيتم لهم ذلك التشكل على الصورة التي يريدون، وفي حدود ما أذن لهم فيه، بدليل أن الشيطان لا يقدر على التمثيل بصورة الرسول ﷺ لقوله عليه الصلاة والسلام: «من رأى فقد رآني حقاً، فإن الشيطان لا يتمثل بي». (3)

(1) مسلم (40/7).

(2) رواه البخاري تعليقاً (125/3).

(3) متفق عليه واللفظ لمسلم، اللؤلؤ والمرجان (80/3)، والبخاري (42/9)، ومسلم (54/7).

٧- أين يسكن الجن ؟

الغالب في الجن والشياطين أنهم يسكنون الخرائب، والحشوش، والمزابيل، والقمام
لحديث أبي داود «إن هذه الحشوش محتضرة، فإذا أتى أحدكم الخلاء فليقل: أعوذ بالله من
الخبث والخبائث».

ومن هنا كانت الشياطين تنزل على أخبات الرجال والنساء من أهل الآثام والأفاكين،
الملوثين بالذنوب، والجرائم العظام. قال تعالى: ﴿ هَلْ أَنْتُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ
عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾ (الشعراء: 221 - 223).

٨- هل الجن تسترق السمع من الملائكة الأعلى ؟

نعم إن الله تعالى أعطى الجن والشياطين قدرة على الخروج إلى الملكوت الأعلى، فلذا
هم يعرجون كما تعرج الملائكة من الأرض إلى السماء، ويسترقون السمع من الملائكة،
ويهبطون به إلى الأرض، ومن كان له ولي من الإنس يفضي به إليه، ليحدث به الناس،
يفتنهم، ويغويهم ويشهد لهذه الحقيقة ويثبتها ما قصه الله تعالى في كتابه، وحكاها عن الجن
أنفسهم في قوله: ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا (٨) وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا
مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ بَيْنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ
أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (الجن: 8 - 10).

كما يؤكد هذه الحقيقة حديث البخاري، والذي فيه أن النبي ﷺ قال: «إن الملائكة تنزل في
العنان وهو السحاب، فتذكر الأمر قضى في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه فتوحيه
إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم» (1).

٩- الجن أقل قدراً وأدنى كرامة من الإنسان :

إن الجن حتى الصالحون منهم لأقل قدراً، وأدنى كرامة، وأنقص شرفاً من الإنسان، إذ قرر
الخالق عز وجل كرامة الإنسان، وأثبتها في قوله: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء: 70).

(1) البخاري (4/135).

ولم يثبت مثل هذا التكريم للجنان لا فى كتاب من كتب الله، ولا على لسان رسول من رسله عليهم السلام، فتبين بذلك أن الإنسان أشرف من الجن، ويدل على ذلك أيضاً شعور الجن أنفسهم بنقصانهم، وضعفهم أمام الإنسان، يدل على ذلك أنهم كانوا إذا استعاذ الإنس بهم تعاضموا وترفعوا لما فى استعاذة الإنسان بهم من تعظيمهم، وإكبارهم وهم ليسوا كذلك فيزدادون رهقاً أى طغياناً وكفراً. قال تعالى فى الحديث عنهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (الجن: 6).

ويشهد لذلك أيضاً أن الإنسان إذا توسل بهم أو بأسماء عظمائهم، أو أقسم بأشرافهم أجابوه، وقضوا حاجته، كل ذلك شعور منهم بالضعف، والحقارة أمام ابن آدم الكريم على الله تعالى إذا آمن بالله تعالى، وعبدته موحداً له فى ربوبيته، وعبادته، وأسمائه، وصفاته أما بدون ذلك فإن الإنسان كالجان، وصالحو الجن أفضل وأكرم من كفار بنى آدم ومشركيهم.

١٠ - هل صالحو الجن يدخلون الجنة ؟

قد سبق أن قررنا فيما تقدم، وبيننا بوضوح أن الجن غير أولاد إبليس، خلُقوا لعبادة الله تعالى وطاعته، شأنهم فى ذلك شأن بنى الإنسان، وأن منهم الصالحين، ومنهم دون ذلك، وعليه فالصالحون منهم، وهم أهل الإيمان والتقوى يدخلون الجنة، وينعمون فيها إن هم ماتوا على الإيمان والتوحيد، والتقوى والعمل الصالح.

والدليل على هذه الحقيقة العلمية عموميات فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (البروج: 11). وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾ (الأنبياء: 94). وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (المائدة: 9).

فكلمة (مَنْ) من ألفاظ العموم فيدخل فيها كل من حقق الشرط الذى قرن بها من إنس وجن، ويتلقى الجزاء، وهو المغفرة والجنة كل من حقق الشرط من إنس وجن. وأصرح فى الدلالة من هذا قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ﴾ (الرحمن: 46). فى سياق ذكر الإنس والجن معاً.

١١- هل الجن يؤذون الناس ؟

إن أذى الجن للإنس ثابت لا يُنكر، حيث ثبت ذلك بالدليل السمعي، والدليل الحسي، والعقل لا يحيله، بل يجيزه ويقره، ولولا المعقبات من الملائكة التي أناط الله تعالى بها حفظ الإنسان لما نجا من الجن والشياطين أحد.

وذلك لعدم رؤية الإنسان لهم، ولقدرتهم على الانتقال والتحول بسرعة، لكون أجسامهم من اللطافة بحيث لا نشعر بها، ولا نحس، ومن هنا كان مما لا شك فيه أن بعض الجن يؤذون بعض الناس، إما لكون الإنسان قد تعرض لهم بالأذى فأذاهم بصب ماء حار عليهم، أو ببوله عليهم، أو بنزوله في بعض منازلهم وهو لا يشعر، فينتقمون فيؤذونه.

وإما لمجرد الظلم من بعضهم، فيؤذون الإنسان بدون سبب كما يحدث ذلك بين الإنسان وأخيه الإنسان؛ إذ أحياناً يؤذى الإنسان أخاه لسبب خاص، وأحياناً لمجرد الظلم، كما هو مشاهد في الناس عند فساد فطرهم، وضعف إرادتهم، وعقولهم، وقد تقدم حديث الصحيح وجاء فيه أن الشاب الأنصاري لما طعن الجنى المتمثل في صورة حية، ما ماتت الحية حتى انتقم منه الجن، وقتلوه فمات لفوره حتى قال أبو سعيد: «لم يدر أيهما كان أسرع موتاً من صاحبه الحية أم الفتى؟»^(١) ولشهرة هذه الحقيقة، وتسليم الناس بها لا نطلب لها إيراد شواهد أخرى، ونكتفي بحادثة الأنصاري الثابتة في صحيح مسلم، وبذكر حادثة أخرى تمت في بيتنا وعشنا آلامها، وعانينا آثارها السيئة.

إنه كان لي أخت أكبر مني تدعى «سعدية»، وكنا يوماً ونحن صغار نطلع عراجين التمر من أسفل البيت إلى سطحه بواسطة حبل يربط به القنو (الرجون) ونسحبه إلى السطح ونحن فوقه، فحصل أن أختي سعدية جرت الحبل، فضعفت عنه، فغلبها ف وقعت على الأرض على أحد الجنون، فكأنها بوقوعها عليه آذته أذىً شديداً، فانتقم منها فكان يأتيها عند نومها في كل أسبوع مرتين أو ثلاثاً، أو أكثر فيخنقها، فترفس المسكينة برجليها، وتضطرب كالشاة المذبوحة ولا يتركها إلا بعد أن تصبح أشبه بميتة، ونطق مرة على لسانها مصرحاً بأنه يفعل بها هذا؛ لأنها

(١) رواه مسلم وتقدم في (هل الشياطين يتشكلون؟).

آذته يوم كذا في مكان كذا .. وما زال يأتيها ويعذبها بصرعة تأتيها عند النوم فقط حتى قتلها بعد نحو عشر سنوات من العذاب الذي لا يطاق، فصرعها ليلة على عادته فما زالت ترفس برجليها وتضطرب حتى ماتت - غفر الله لها، ورحمها أمين.

هذه الحادثة عشتها، وبعيني رأيها، وما راء كمن سمع !!!

فائدة عظيمة

ونختتم هذا البحث في موضوع الجن والشياطين بفائدة جلييلة، وهي أن التحصن من الشياطين، والاحتراز منهم ممكن، إذا استعمل المؤمن واحداً من سبعة أشياء وهي :-

1 - الاستعاذة بالله تعالى، لقوله عز وجل: ﴿وَمَا يَنْزَعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (فصلت: 36). ولقول الرسول ﷺ في حديث الصحيحين: «إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب ذا عنه: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»⁽¹⁾.

2 - قراءة المعوذتين: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، لحديث النسائي وغيره وهو حديث حسن الإسناد «يا ابن عباس ألا أدلك أو ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول الله. قال: «قل أعوذ برب الفلق وقل أعوذ برب الناس هاتين السورتين»⁽²⁾.

3 - قراءة آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: 255). لحديث أبي هريرة في صحيح مسلم وقد تقدم⁽³⁾ حيث جاء فيه أن الشيطان لما ألقى أبو هريرة عليه القبض قال: «أطلقني وأعلمك آية لا يقرؤها أحد ويقربه شيطان أبداً»، وقد أقر الرسول ﷺ ذلك بقوله: «صدقك وهو كذوب».

(1) متفق عليه واللفظ لمسلم، اللؤلؤ والمرجان (3/ 199)، ومسلم (8/ 31)، والبخارى (8/ 34، 35).

(2) النسائي (8/ 220، 221).

(3) رواه مسلم، وتقدم في (هل الجن والشياطين يتشكلون؟)

4 - قراءة سورة البقرة بكاملها، لحديث مسلم وفيه: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة»⁽¹⁾.

5 - ذكر لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة، فإن من فعلها؛ كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا رجل عمل أكثر منه»⁽²⁾.

6 - ذكر الله تعالى، لحديث الترمذي وفيه قال يحيى بن زكريا: «وأمركم أن تذكروا الله تعالى؛ فإن مثل ذلك كمثّل رجل خرج العدو في إثره سراعاً حتى أتى على حصن حصين فأحرز نفسه منهم. كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى»⁽³⁾.

7 - الوضوء عند الغضب، فمن غضب فليتوضأ، فإنه يعصم نفسه من الشيطان أن يحمله على ارتكاب ما لا ينبغي، أو ما لا يحسن من قول أو فعل، وذلك لحديث أبي داود: «إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»⁽⁴⁾.



(1) رواه مسلم (2/188).

(2) متفق عليه اللؤلؤ والمرجان (1/525).

(3) الترمذي (أدب/78).

(4) أبو داود (2/550)، وأحمد (4/226).

الركن الثالث من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالكتب

تعريف:

الكتب جمع كتاب، والكتاب: مصدر كتب يكتب كتباً وكتاباً وكتابة، إذا جمع الحروف، وألف بينها، فكانت كلمات ذات معان خاصة، ثم كون من تلك الكلمات ذات المعاني جملاً مفيدة تسمى كلاماً.

فالكتاب إذاً هو ما حوى كلاماً مفيداً، ذا أغراض متعددة. وكتب الله تعالى التي يجب الإيمان بها: هي الصحف التي حوت كلام الله عز وجل الذي أوحاه إلى رسله عليهم السلام فكانت كتباً، أو بقيت صحفاً لم تجمع، ولم يتكون منها كتاب خاص، فالصحف كصحف إبراهيم وموسى عليهما السلام. والكتب كالتوراة، والزبور، والإنجيل والقرآن العظيم.

حقيقة الإيمان بالكتب:

إن معنى الإيمان بالكتب الإلهية الذي هو جزء من عقيدة المؤمن: التصديق الجازم بما أوحى الله تعالى من كلامه الخاص إلى من اصطفى من رسله عليهم السلام، فجُمع ودون فكان صحفاً مطهرة، وكتباً قيمة.

فما عرف منها آمن به المؤمن تفصيلاً، وما لم يعرف آمن به إجمالاً.

ما عرف من الكتب الإلهية

وما لم يعرف

إن المصدر الوحيد الذي يرجع إليه في معرفة الكتب الإلهية بالتفصيل هو القرآن الكريم وحده، إذ هو الكتاب المحفوظ حفظاً، لا يتطرق إليه معه الزيادة، ولا النقص، ولا التحريف، ولا التغيير، أو التبديل، بحال من الأحوال؛ لأنه من ساعة نزول الآية منه أو الآيات، أو السورة القصيرة أو الطويلة ورجال متوفرون لكتابته في سطورهم، وحفظه في صدورهم، فلم يتم نزوله في خلال الثلاث والعشرين سنة من عهد النبوة المحمدية حتى حفظه عن ظهر قلب مئات الرجال الأذكياء الأمناء، ثم لم يمض غير قصير زمن حتى أصبح حفاظ القرآن غيباً في الصدور عشرات آلاف من الرجال الأفاضل، والنساء الفضليات، واستمر محفوظاً في الصدور، ومدوناً في السطور، ترعاه دول، وأمم، وشعوب، وحكومات، وتتوارث حفظه، ورعايته الأجيال جيلاً

بعد جيل إلى يومنا هذا. وأكبر شاهد أنى أنا كاتب هذه العقيدة أحفظه عن ظهر قلب، وكذا والدى رحمه الله، وجدى كذلك، وقد يكون جد أبى كذلك. وسوف يستمر القرآن محفوظاً بحفظ الله تعالى له إلى قرب نهاية هذه الحياة، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: 9). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: 41، 42).

وقد ذكر القرآن الكريم من الكتب السابقة صحف إبراهيم، وصحف موسى وثلاثة كتب هي: تورا موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى عليهم السلام، ذكرها في مواضع متفرقة منه: نذكر منها قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا﴾ (الفرقان: 35).

والمراد من لفظ الكتاب في هذه الآية التوراة، وقوله تعالى في الحديث عن اليهود: ﴿وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤٣) إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾ (المائدة: 43، 44). وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (الإسراء: 55). وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ (الحديد: 27). وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ (١٨) صحف إبراهيم وموسى﴾ (الأعلى: 18، 19).

فقد جاء في هذه الآيات ذكر ثلاثة كتب إلهية مع كل من صحف إبراهيم وموسى، كما جاء في مواضع أخرى من القرآن ذكر بعض ما جاء فيها من أخبار نحو قوله تعالى في التوراة: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: 45).

حيث ذكرت حكماً من أحكام القصاص في الأطراف. ونحو قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَجِدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرْرَعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ (الفتح: 29).

فقد نصت هذه الآية القرآنية على أن وصف الرسول محمد ﷺ ووصف أصحابه في كل من التوراة والإنجيل بنفس المعنى الذى حوته هذه الآية القرآنية الكريمة. كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (٢٧) أَلَا تَرَى وَازِرَةً وَزَرَ أُخْرَى (٢٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ

إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠) ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى ﴿ (النجم: 36-41).

فقد نصت هذه الآيات من القرآن الكريم على أن فى صحف كل من إبراهيم وموسى: الإخبار بأن النفس المذنبه يوم القيامة لا يحمل عنها ذنبها غيرها، وأن الإنسان ليس له من نتائج العمل إلا ما عمله وسعى فيه بنفسه، كما أن سعى الإنسان سوف يعرف به، ويجزاه كاملاً غير منقوص.

فهذه الكتب التى ذكرت فى القرآن الكريم بأسمائها، وأسماء أصحابها الذين نزلت عليهم، يؤمن بها المؤمن تفصيلاً كما ذكرت مفصلة، ويؤمن بباقي كتب الله تعالى التى لم تذكر فى القرآن مفصلة، حيث لم يرد فى القرآن الكريم ذكر أسمائها، ولا أسماء من نزلت عليهم، وإنما ذكرت مجملة كما فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ (الحديد: 25). وكما فى قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة: 213).

فقد جاء فى هاتين الآيتين ذكر الكتب مجملاً فيؤمن بها المؤمن مجملة، وإن لم يعرف أسماءها ولا أسماء من أنزلت عليهم.

وهكذا تتلخص عقيدة المؤمن فى الإيمان بالكتب بأنه يؤمن بكل كتاب أنزله الله تعالى على من اصطفى من رسله، لحمل رسالاته، وإبلاغها إلى عباده، فما عُرف منها مفصلاً آمن به مفصلاً، وما عرفه منها مجملاً آمن به مجملاً. ولا يؤمن ببعض ويكفر ببعض تعصباً وضلاً، كما هو حال اليهود والنصارى الذين آمنوا بالتوراة المحرفة، والإنجيل المبدل المغير، وكفروا بالقرآن المحفوظ الباقي غضاً طرياً كما نزل، والصابى المحض، الذى لم يُشَب. فكانوا كمن آمن بالباطل وكفر بالحق. وهم - يعلم الله - لذلك.

على أى دليل آمن المؤمن بالكتب؟

إن المؤمن لم يكن فى حاجة إلى أدلة عقلية، ولا حسية سمعية ليؤمن بالكتب الإلهية بعد أن آمن بالله وملائكته إيماناً راسخاً، لا تزعزعه أعاصير الشك، ولا تعصف به عواصف الأوهام مهما كانت عنيفة قوية؛ لأنه يبنى دائماً أسس معتقده على العلم والمعرفة، ويتحاشى دوماً أن يؤمن بإيمان التقليد والتبعية، فلذا سنذكره هنا بأصل كل الأدلة، وأم كل البراهين ليقم اعتقاده بالكتب عليهما، كما أقام ويقيم كل معتقدهات عليهما؛ إذ هما الدليلان اللذان لا يسقطان، والبرهانان اللذان لا يُغلبان، وهما دليل الأثر والخبر اللذان ثبت بهما كل غيب، وآمن به كل

عقلاء البشر، فمن دليل الأثر نكتفى بأثر واحد وهو القرآن الكريم، الكتاب الذى دل وجوده دلالة قوية قطعية على وجود منزله، وعلى علمه، وقدرته، وحكمته، ورحمته، ودل على نبوة من أنزل عليه، وعلى رسالته، وعلمه، وحكمته، وفضله، وشرفه، وكماله، كما دل بالتالى على ذات نفسه، بأنه كتاب الله، ووحيه، وتنزيله، كما قرر نزول كتب الله السابقة النزول عليه، حيث ذكر صحف إبراهيم، وتوراة موسى، وزبور داود، وإنجيل عيسى عليهم السلام، وذكر طرفاً مما جاء فيها من أخبار وأحكام، كما قرر أن لله كتباً أخرى لم يكن اليوم بيد الناس منها شىء.

وبعد: فأى أثر من الآثار الدالة على غيرها دل دلالة القرآن الكريم على نفسه وعلى غيره من كتب الله تعالى؟؟

إن من يصغى إلى صوت العقل، ويستمع إلى شهادة الفطرة، ويحكم شواهد الوجدان البشرى ويرضى بحكمها، لا يسعه أبداً غير الإيمان بالله رباً، وبمحمد نبياً ورسولاً، وبالقرآن إماماً وحاكماً، وبالإسلام شرعاً وديناً، كل ذلك لدلالة القرآن العظيمة التى لا أرى ما هو أعظم منها فى باب الدلالات على اختلافها وتنوعها؛ إذ القرآن - وهو كتاب معجز - قد حوى علوماً ومعارف لم يتأت للبشر أفراداً وجماعات، وأممًا وشعوباً إلاّ تيان بمثله حتى ولو أضيف إليهم العالم الثانى (الجن)، والتحدى ما زال قائماً فى قوله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء: 88).

القرآن الذى هذا هو واقعه قد ثبت ثبوتاً قطعياً يغنيا أيضاً أنه نزل وحياً على محمد، النبى الأمى ﷺ، ولم يكن من تأليف أحد من الخلق، ولا من نظمه فضلاً عن أن يكون من تأليف محمد ﷺ، أو من نظمه، وهو الأمى الذى لا يقرأ ولا يكتب؛ إذ حكم العادة البشرية جار على أن من لم يقرأ ولم يكتب، ولم يجلس بين يدي معلم قط، يستحيل فى حقه أن يأتى بمثل القرآن فى علومه، ومعارفه، وشرائعه وآدابه، وقصصه وأخباره، يستحيل فى حقه أن يأتى بمثله من نفسه، لا سيما وأن المنزل عليه ﷺ قد قضى أربعين سنة من عمره المبارك لم يتكلم فيها بوحى، ولم ينطق فيها بقرآن قط.

وبالجملة فإن دلالة القرآن على ما ذكرنا من وجود الله تعالى، وعلمه، وحكمته، وقدرته، ورحمته، وعلى نبوة محمد ورسالته وفضله، وشرفه، وكماله، وعلى أن القرآن نفسه وحى الله، وكتابه، وأن الكتب التى سبقته هى كذلك كتب الله، مُنزلة وموحى بها إلى من نزلت عليه من رسل الله، وأنبيائه، دلالة عقلية منطقية، لا ترد بحال، وبرهان عقلى لا يغلب بآخر، وأن كل من

أراد أن ينفي عن القرآن دلالة العظيمة على ما ذكرنا إنما أراد أن يتورط في إثبات مستحيلات قضت كل العقول باستحالة إثباتها وهي:

- 1 - وجود كلام بدون متكلم
- 2 - وجود علم بدون عالم.
- 3 - وجود رسالة بدون رسول ولا مرسل.
- 4 - وجود نبوة بدون نبي ولا منبئ.
- 5 - وجود دلالة بدون دليل.
- 6 - وجود أثر بدون مؤثر.

هذه ستة مستحيلات كلها يقول بها من يركب رأسه، ويحاول أن ينكر دلالة القرآن على ما ذكرناه آنفاً. وهل يليق بعاقل أن يرتكب هذه الحماقات، ويقول. بتجوز هذه المستحيلات الستة؟ اللهم لا.

ودليل الخبر:

ما الذى نورده من الأخبار وهي متكاثرة متواترة ؟ إن العاقل الحى من الناس ليخجل إذا أراد أن يدل على وجود البدهيات العقلية، والضرورات الكونية.

أرأيت لو قام أحد فى وسط جمع حاشد من الناس، يدل لهم فى حماس على وجود الشمس والقمر، والأرض والسماء، أو على حاجة العطشان إلى الماء، والجائع إلى الطعام، أو المريض إلى الدواء، والخائف إلى الأمان، فكيف يكون حاله من الغرابة والعجب ؟ !

إذا فإن حال من نصب نفسه للناس يدل لهم على أن الله تعالى قد أنزل كتباً، أوحاها إلى رسله بعد أن قرأ الناس تلك الكتب، وعملوا بها، وانتفعوا بهديها، ورفعتهم إلى المستوى اللائق بهم من الكمال البشرى، ومنذ آلاف السنين، لأعجب وأغرب من حال الأول - والله المستعان !!.

ومع هذا فسوف نورد أخباراً هي أصدق أخبار تلقاها الإنسان منذ أن كان: هي أخبار الله تعالى الخلاق العليم، ومن أصدق من الله حديثاً؟ يقول تعالى فى تقرير إنزاله الكتاب على عبده ورسوله محمد ﷺ ليحكم بين الناس: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾ (النساء: 105).

ويقول فى الامتنان على رسوله بما فضله وأنعم به عليه: ﴿ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: 113).

ويقول فى الإخبار عن توحيده فى ألوهيته، وبيان إفضاله وإنعامه على خلقه بإنزال الكتاب بالحق على رسوله مصداقاً لما بين يديه من الكتب التى سبقته، وإنزال التوراة، والإنجيل، والفرقان: ﴿الْأَمَّ (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ (آل عمران: 1 - 4).

ويقول فى تقرير وحيه إلى أنبيائه ورسله، وإيتائه داود زبوراً، وتكليمه موسى تكليماً، وفى بيان الحكمة من إرسال الرسل: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً (١٦٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً (١٦٤) رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ (النساء: 163 - 165).

ونكتفى بهذا القدر من أخبار الله تعالى محيلين من أراد المزيد على كتاب الله القرآن الكريم، فإن فيه من أخبار الله تعالى المصرحة بوحيه وكتبه، وبأسماء كتبه، وأسماء رسله الذين أوحى إليهم، وأنزل كتبه عليهم، الأمر الذى لا يترك مجالاً لأدنى شك يمكن أن يوجد فى نفس إنسان فى شأن الكتب الإلهية، ووجوب الإيمان بها، والتصديق بما ورد فيها من أخبار وأحكام، وشرائع وآداب.

أدلة وجوب الإيمان

بالكتب الإلهية، وكونه ركن الإيمان

إن الإيمان بالكتب السماوية الإلهية لواجب شرعاً كما هو واجب عقلاً وهذا بيان ذلك:

أما كون الإيمان بالكتب الإلهية واجباً شرعاً فذلك لأن الله تعالى أمر به أمراً جازماً لا يقتضى إلا طاعة الله تعالى فيه، وتحريم معصيته إذ قال تعالى فى الأمر بالإيمان بكتبه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً بَعِيداً﴾ (النساء: 136).

إن هذه الآية وحدها كافية فى الدلالة على وجوب الإيمان بكتب الله تعالى عامة، وبالقرآن الكريم كتاب الإسلام والمسلمين خاصة، وفى تحريم التكذيب بها، وعدم التصديق بكل ما جاء فيها، مما هو وحي الله، وكلامه سبحانه وتعالى.

إن الإيمان بالكتب ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان الإيمان الستة التى لا يصح إيمان عبد إلا باستكمالها بالإيمان بها كلها. وإنه - الإيمان بالكتب - للركن الثالث من تلك الأركان،

التي هي بناء العقيدة الإسلامية، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة؛ ففي الكتاب يقول تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة: 177). ويقول: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: 285).

ومن السنة حديث مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه والذي جاء فيه سؤال جبريل للرسول ﷺ عن الإيمان، وجواب الرسول له بأنه: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره (حלוه ومره) (1).

وأما كون الإيمان بها واجباً عقلاً فإنه يظهر للمتأمل من حيث حاجة العباد إليها، وإقامة الحجة عليهم بها، فإن الرسول المبلغ عن الله شرائعه وأحكامه يحتاج غالباً في إثبات رسالته إلى كتاب من الله تقوم به الحجة له على تلك الأمة التي أرسل إليها حتى يؤمنوا به، ويصدقوه، ويتبعوه ويعملوا بما جاءهم به، والتشريع الإلهي نفسه يفتقر إلى كتاب يحويه، ويتضمنه، ويثبت فيه ليبقى بعد وفاة الرسول الذي جاء شريعاً محفوظاً، تعمل به الأجيال إلى المدى الذي حدد له بنسخه برسالة أخرى، أو بنسخ بعض ما جاء فيه كما حصل للتوراة والإنجيل، فقد نسخ الله تعالى بالإنجيل بعض أحكام التوراة ونسخ بالقرآن الكريم الإنجيل والتوراة كليهما.

ولولا بقاء الكتاب بعد الرسول لضاع الدين الذي جاء به، أو ضاع الكثير منه، وحينئذ يقول الناس: بم نعبد الله؟ وكيف نعبده ولم يكن لدينا من شرائعه ما نعبد به؟؟

وتكون لهم الحجة على الله تعالى، وهذا ما لم يرد الله تعالى حيث صرح بنفسه في قوله: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 165).

فهذه المسائل الثلاث:

- احتياج الرسول في إثبات رسالته إلى كتاب من ربه تقوم له به الحجة على قومه.
- افتقار التشريع الإلهي إلى كتاب يحويه، ويتضمنه، ويثبت فيه.
- عدم إعطاء الناس الحجة على الله تعالى ببقاء التشريع الإلهي محفوظاً في كتاب، ثابتاً

فيه، هي التي اقتضت عقلاً وجوب كتب إلهية كما اقتضت وجوب الإيمان بها، وتصديقها، والعمل بما فيها، لافتقار سعادة البشرية في الحياتين إليها، وتوقفها عليها.

منزلة القرآن الكريم

بين كتب الله تعالى

إن مما لا شك فيه - عند الدارسين للقرآن الكريم، الواقفين على أسرارهِ وعجائبه، العالمين بما حواه من أصول التشريع وقواعده، والمدرّكين للحقائق العلمية التي أثبتتها، ولفت النظر إليها - أن للقرآن الكريم منزلة خاصة بين سائر الكتب الإلهية التي تقدمته في النزول.

وقد تتجلى هذه المنزلة العلية للقرآن العظيم بإمعان النظر في النقاط الخمس التالية والتأمل فيها: -

1- كونه ناسخاً لها لفظاً وحكماً، فلا تُقرأ للتعبّد، ولا يعمل بما فيها من شرائع وأحكام وذلك: أولاً: لما داخلها من تحريف، وما أصابها من تضييع ونسيان؛ إذ لم يبق فيها ما يجزم بصحة نسبته إلى الله تعالى أبداً، عرف هذه الحقيقة وقررها المنصفون والمحققون من علماء أهل الكتابين معاً.

وثانياً: كان التشريع فيها خاصاً ببنى إسرائيل، وموقوتاً بزمن معين، وليس أدل على نسخ القرآن الكريم للكتب قبله من أمر الله تعالى لنبي القرآن محمد ﷺ أن يحكم بين سائر الناس على اختلاف ما ينتحلون من ديانات بالقرآن الحكيم، وذلك في قوله تعالى ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ (1) بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ (2) وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ (المائدة: 48). وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء: 105).

2- كونه مهيمناً عليها رقيباً شهيداً، فما صححه منها وأقره فيها صح وقرّ، وما أبطله منها ونفاه لكونه دخیلاً عليها ليس منها بطل وانتفى. كما جاء شاهد هذا في الآية السابقة: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾.

3- كون ما يحمل من التشريع الإلهي عاماً لكل الناس في أى مكان كانوا وفي أى زمان

(1) «أل» هنا تدل على الكمال فيه، فهو الكتاب الذي أكمل الله به الدين، فهو الحرى بأن ينصرف إليه لفظ الكتاب دون غيره من الكتب السابقة، ومعنى بالحق: متلبساً به مؤيداً له، مشتملاً عليه، مقررراً له.

(2) «أل» في الكتاب للجنس أى من جنس الكتاب، فيدخل في ذلك التوراة والزبور والإنجيل وغيرها.

وجدوا، وذلك لعموم رسالة صاحبه المنزل عليه ﷺ؛ إذ قال الله سبحانه وتعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان:1). وقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف:158). وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ:28). بخلاف الكتب التى سبقته فإنها كانت خاصة فى المكان والزمان، ولا عموم فيها البتة.

4- تعهد الرب تبارك وتعالى بحفظه إلى أن يرفعه إليه، إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:9). وقال: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت:41، 42).

فحفظه الرب تبارك وتعالى بأن قيض له رجالاً أمناء، حفظوه فى صدورهم، وسطورهم فلم تقو يد الزمان، ولا يد العدوان على أن تزيد فيه حرفاً، ولا أن تنقص منه حرفاً، بخلاف غيره من الكتب وخاصة التوراة فقد ضاعت كلها فى غزو بختنصر البابلى لمملكة بنى إسرائيل، ولم يعثر عليها إلا فيما بعد، ثم ما إن جمعت والله أعلم بصحة ما جمع فيها حتى تسلط عليها عبدة المادة فحرفوها وبدلوها حسب مصالحهم وأهوائهم، أما الإنجيل فيكفى فى الدلالة على عدم حفظه أنه اليوم خمسة أناجيل⁽¹⁾، بعد أن كان يوم نزوله إنجيلاً واحداً.!!!

5- شموله لأصول الهداية البشرية وفروعها، واحتواؤه على أعظم منهج ربانى محقق لسعادة الإنسان فى الدنيا وفى الآخرة متى آمن به وعمل بما فيه. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (المائدة:15-16).

لوحة مشرقة

بيان ما فى القرآن من الهدى والخير

إن فى القرآن المجيد من الهدى والخير لبنى الناس كافة ما لا يوجد اليوم -والله- معشار عشره فى كتاب غيره، وفى الأرقام التالية بيان ذلك وتحقيقه:-

1- الهدى الموصل إلى كل خير، والمرشد إلى كل كمال، والهادى إلى سعادة الدارين، قال

(1) هى إنجيل: متى ومرقص ولوقا ويوحنا وبرنابا والأخير أصحها وقد أخفى من القرن الرابع إلى القرن السابع عشر الميلادى.

منزله سبحانه وتعالى: ﴿الَمْ (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة: 1 - 2).

2 - الرحمة بآتم معناها، الرحمة التي تعم الإنسان، والجان، والحيوان، والكبير والصغير، والكافر والمؤمن، والحي والميت. قال تعالى في إثباتها: ﴿الَمْ (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ (لقمان: 1 - 3).

3 - الشفاء التام العام لجميع الأمراض العقلية، والنفسية، والقلبية شفاء من الكفر والشرك، والقلق والاضطراب، والحيرة والخوف، والكبر والحسد، والكسل والعجز، والبخل والشح، والظلم والخرف. قال تعالى في إثبات هذا الشفاء وتقريره: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الإسراء: 82).

4 - النور الكاشف لجميع الظلمات القلبية، والمبدد لسائر الجهالات النفسية، والمبين لسائر الحقائق والأسرار الكونية. قال تعالى في تقرير نورانيته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ (النساء: 174).

5 - الموعظة الداعية إلى اكتساب كل فضيلة، والزاجرة عن كل رذيلة، قال تعالى في ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ﴾ (يونس: 57).

6 - البشـرى بخير الدنيا والآخرة وسعادتـهما. قال تعالى في ذلك: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِّلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 89).

7 - الحق الإلهي الثابت في نفسه، المحقق المثبت لغيره من كل ما هو حق، فكل حق القرآن يؤيده، والقرآن يقرره، قال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ (الإسراء: 105). وقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ (المائدة: 48). أى متلبساً به مشتملاً عليه، مؤيداً له، ومقرراً.

8 - الذكر الإلهي الذي تحيا عليه القلوب، وتطيب بتلاوته الأرواح، وتزكو بالعمل به النفوس. الذكر المكسب للشرف، والموصل لحضرة القدس، والرافع إلى ملأ الأخيار. قال تعالى: ﴿صَ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ (ص: 1). وقال في الحديث عنه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ (الزخرف: 44).

9 - الخير العام لكل إنسان، وجان، وحيوان، فما من كائن في هذه الحياة إلا وناله من خيرية القرآن من يوم نزوله إلى يوم رفعه إلى الله، وقبضه إليه، اللهم إلا من كان من المطرودين من شياطين الإنس والجان، المبلسين من كل خير. قال تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ (النحل: 30).

10 - التبيان والبيان لكل شيء مما الإنسان في حاجة إليه مما تتوقف عليه سعادته دنيا وأخرى. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: 89).

11 - الروح التي تتوقف عليه حياة الإنسان، فالقرآن هو الروح اللازمة للحياة الفاضلة الكريمة. إن الناس بدون أن تسرى فيهم الروح القرآنية أموات حقاً، لا ينتفعون بوجودهم، ولا بحياتهم المادية، قال تعالى في هذا: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (الشورى: 52).

شروط الانتفاع التام بما في القرآن

من الخير والهدى

إنه بالرجوع إلى تلك اللوحة المشرقة بنور القرآن وهدايته يتبين لنا بحق وصدق أن في القرآن الكريم من الهدى والخير ما يكفل للإنسان سعادة، في دنياه وأخراه، غير أننا إذا عاودنا النظر لتلك اللوحة نجد أن ما في القرآن من الخير والهدى مخصوص بأناس وُصفوا بصفات أربع هي: الإيمان، والإسلام، والإحسان، والتقوى، فمن استجمع تلك الصفات فقد تهيأ لتلك الفيوضات الربانية، وفاز بما في القرآن من الخير والهدى، ومن قصر عنها، ولم يستكملها فإن حظه منه بقدر حظه منها.

وهذا إيضاح لتلك الصفات الأربع:

1 - الإيمان: بأن يؤمن المرء إيماناً عاماً بكل ما جاء به رسول الله عن الله، ويؤمن إيماناً خاصاً بما في القرآن من الهدى والخير إيماناً يحمله على تعرفه عليه، وطلبه منه، وذلك بدراسة القرآن، والعمل بما فيه من العقائد والشرائع، والآداب، والأخلاق.

2 - الإسلام: بأن يسلم المرء لله تعالى قلبه، ووجهه، فيسخر كل شيء فيه لله تعالى بحيث لا يكون له هم إلا الله تعالى، فيعيش طالباً لما يرضاه الله من اعتقاد، وقول، وعمل، متجنباً لكل ما يسخطه الله تعالى من اعتقاد، وقول، وعمل.

3 - الإحسان: بأن يحسن في إيمانه وإسلامه، فيعيش يراقب الله تعالى في كل ما يأتي ويذر، وما يقدم وما يؤخر، يراقبه في طاعته كما يراقبه في معصيته، وبعبارة أخرى يراقبه في محابه فيأتيها بصدق ويعملها بإتقان، وفي مساخطه فيتجنبها في بغض لها، ويتعد عنها في كره منه لها تام.

4 - التقوى: بأن يتقى الله تعالى في أن يشرك به، أو أن يعصيه بترك ما أوجب عليه، أو انتدبه إليه، أو بفعل ما حرمه عليه، أو كرهه له.

وكلمة أخيرة أن من استكمل هذه الصفات، وحققها كما هي موضحة أعلاه، ومبينة فيما سلف فقد استوجب كل ما فى القرآن من خير وهدى، وتحقق له ذلك كاملاً، فحصل له الشفاء فى صدره وبدنه، والرحمة فى قلبه، والنور فى بصيرته، والذكر والموعظة فى قلبه، والبيان فى لسانه، والحق فى حكمه، والبشرى فى حياته وآخرته.

وأما من لم يستكمل تلك الصفات: فإنه لم ينتفع بما فى القرآن من الهدى والخير، وليس ذلك عائداً إلى أن القرآن نفذ منه هداه وخيره اللذان كانا فيه، وإنما هو عائد إلى عدم أهلية المرء للاستفادة منه. وإن لذلك مثلاً نضربه هو وجود مريض يُوصف له دواء نافع، ويقدم له، ولم يكلف نفسه مشقة تناوله، فيبقى الدواء فى خزائنه، ويبقى هو يعانى من آلام مرضه إلى أن يكره على استعمال الدواء فيشربه، فيشفى من مرضه، أو لا يكرهه أحد على شربه واستعماله فيبقى يعانى من أسقامه، وأوجاعه حتى يهلك بها ويموت. فهل الذنب فى هذا ذنب الدواء؟ والجواب لا، إن الذنب ذنب المريض نفسه الذى لم يستعمل الدواء وهو بين يديه فكان حاله كحال من قال:

كالعيس فى البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

تقرير أخير لعقيدة المؤمن

فى الكتب الأربعة

القرآن، والتوراة، والزبور، والإنجيل

إن المؤمن قد آمن ويؤمن بكل ما أنزله الله من كتاب إجمالاً فيما لم يعرف، وتفصيلاً فيما عرف. فآمن بصحف إبراهيم، وألواح موسى وتوراته، وبزبور داود، وإنجيل عيسى، وفرقان محمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين وسلم تسليماً كثيراً.

كما آمن بالقرآن على أنه كتاب إلهى هو أكمل الكتب، نسخ الله تعالى به كل ما سبقه من الكتب؛ لأنه متأخر عنها فى النزول، وسنة النسخ وطريقته دائماً أن ينسخ المتأخر المتقدم، واللاحق السابق، ولأن الرسالة التى تضمنها رسالة عامة لكل الناس أبيضهم، وأحمرهم، وأصفرهم، وأسودهم، فلم تكن مخصوصة بشعب دون آخر من شعوب البشر، كما أن الكتب المتوفرة والموجودة لدى نزوله كالتوراة، والزبور، والإنجيل كان قد داخلها التحريف، والتبديل، والتغيير، والزيادة، والنقصان، وذلك بنسيان أهلها لأكثرها، ولانقطاع سندها إلى من أوحيت

إليهم من أنبياء بنى إسرائيل ورسلمهم، كما هو معروف ومسلم لدى عقلائهم، والمنصفين منهم. فأصبحت تلك الكتب لا تمثل حقيقة كتب الله تعالى، ولا تحمل الهدى، والنور، والرحمة، والموعظة لأهلها، فضلاً عن غيرهم فلم تكن قادرة على الإصلاح ولا الهداية للخلق، ومن ثم اقتضت رحمة الله تعالى بعباده أن يجدد لهم عهد النبوة بعد اندثارها، وعهد الوحي بعد اندراسه، فيبعث الله تعالى النبي الخاتم، النبي المنتظر، النبي الأُمِّي محمداً ﷺ، وأن ينزل عليه الكتاب الكامل الجامع، فينسخ به سائر الكتب، وضمنه هداية الأبيض والأسود، والعربي والعجمي من الناس أجمعين.

فهو الكتاب الذي أنزله مصداقاً لما بين يديه من الكتب، ومهيماً عليها، أمر محمداً عبده ورسوله أن يحكم به بين الناس كافة إذ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (المائدة: 48). وقال عز وجل: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء: 105).

فتعين لذلك نسخ القرآن لما سبقه من كتب الله تعالى، ونسخ الدين الإسلامي لسائر الأديان السابقة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (آل عمران: 19). وقال: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (آل عمران: 85).

وقال رسول الله ﷺ مبيناً نسخ كتابه «القرآن» لغيره من الكتب، ونسخ دينه «الإسلام» لغيره من الأديان، قال: «والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى». قاله لعمر بن الخطاب رضيه الله عنه لما أتاه بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأ عليه، فغضب، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية لا تسألوهم - أهل الكتاب - عن شيء فيخبروكم بحق، فتكذبوا به، أو يباطل فتصدقوا به، والذي نفسى بيده ... إلخ»⁽¹⁾ وكيف لا يكون إلا ما أخبر به رسول الله ﷺ وجزم به من أتباع موسى عليه السلام له فضلاً عن أمته، والله تعالى يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ (2) قَالُوا أَأَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: 81 - 82).



(1) رواه أحمد، والبخاري، وابن أبي شيبة، وإسناده صحيح.

(2) إصري: قال ابن جرير: عهدي ووصيتي.

الركن الرابع من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالرسول عليهم السلام

مقدمات:

(أ) إمكان الوحي:

تعريف الوحي:

الوحي اسم مصدر من أوحى إليه بكذا يوحي إيحاءً: إذا أعلمه بمراده في سرعة وخفاء.

فالوحي إذاً هو الإعلام السريع الخفي، وبأى واسطة حصل، إذ ليس شرطاً فيه أن يكون من قرب، أو بقول، أو بين متجانسين؛ فقد قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ (النحل: 68، 69).

وقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ إِذًا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾ (القصص: 7).

فقد أعلم الله تعالى النحل مراده ففهمت عند ذلك ونفذته كاملاً، ولم يكن هنا قرب ولا قول، ولا تجانس مما يعرف الناس في حياتهم المادية هذه. كما أنه تعالى أعلم أم موسى بمراده ففهمته، ونفذته كاملاً تاماً، وبدون قرب أيضاً، ولا قول، ولا تجانس أبداً بين الموحى، والموحى إليه.

فالوحي بهذا المعنى ممكن، ولا معنى لإنكاره أبداً، ونقول هذا تنزلاً مع الشاكرين فقط، وإلا فالوحي قد وقع، وتم، ومنذ وجد الإنسان الأول على هذه الأرض وهو آدم عليه السلام.

والذين كلت أذهانهم أمس عن فهم الوحي وإدراكه لم يبق لهم اليوم من عذر في دعوى كلال الذهن عن فهم الوحي وهم يشاهدون الاتصالات السلوكية واللاسلكية، والإذاعية وغيرها.

وقد بلغهم أن الاكتشافات العلمية أثبتت بما لا مجال للشك فيه أن الوحي بالمعنى الذي قررنا موجود حتى بين الحيوان وأخيه الحيوان، بل بين أصغر الحشرات كالقراش والنمل وما إلى ذلك، فيتم الإعلام السريع الخفي بين حيوان وآخر وبدون قرب بل أبعاد شاسعة، وبدون قول أيضاً، ولا مشابهة البتة.

فالوحي إذاً ممكن وموجود، وإنكاره يعد إنكاراً للحس، وتكذيباً بالواقع المشاهد. نعم الوحي تختلف وسائله، فالوحي الإلهي كان يتم بوسائل متعددة، وكيفيات مختلفة وفيما يلي بيان ذلك:

الوحي الإلهي وطرقه

تعريف:

الوحي الإلهي هو ما يوحى به الله تعالى من كلماته الصادقة في أخبارها، العادلة في أحكامها، بطريقة من طرق الوحي إلى من يصطفى من الناس، ولا شاهد أقوى على وجوده وإمكانه من كلام الله تعالى الموجود بين أيدي المؤمنين يقرأونه محضاً لم يشب بكلمة واحدة من كلام الناس، وهو القرآن الكريم الموحى به إلى النبي محمد ﷺ آيات وسوراً، شيئاً فشيئاً حتى اكتمل نزوله، ووحيه في خلال ثلاث وعشرين سنة.

وقد حاول خصومه منذ شروق أنواره أن يبعده عن حقيقته، ويخرجوا به عن كونه وحيّاً تلقاه النبي محمد ﷺ من ربه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ (النمل: 6). حاول أولئك الخصوم أن يخرجوا به عن حقيقته، فقالوا: سحر، وقالوا: شعر، وقالوا: أساطير الأولين، وقالوا غير ذلك. بيد أنهم لم تطل بهم الحياة حتى أذعنوا للحق، وسلموا أنه وحي الله وكلامه، الذي أوحاه إلى صفوة خلقه، وسيد أنبيائه ورسله محمد ﷺ، فآمنوا به، وعملوا بهدأته، فكمّلوا، وسعدوا، وسادوا أيضاً.

ولتلقى الوحي الإلهي طرق بينها الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لَبَشْرٍ أَنْ يَكْلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيّاً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (الشورى: 51).

فهذه ثلاث طرق لتلقى الوحي الإلهي:

الأولى: الوحي المباشر، وهو أن يعد الله تعالى قلب العبد إعداداً خاصاً بتصفيته من الكدورات والرعونات النفسية، ثم يلقي إلى صاحبه بكلماته التي أراد أن يوحى بها إليه، فيتلقاها ذو القلب الطاهر وهو النبي من أنبياء الله تعالى ويعيها وعياً كاملاً صحيحاً، وهو جازم بأنها كلام الله تعالى ووحيه إليه، وذلك لما يجد في نفسه من ضرورة تحتم عليه ذلك وتضطره إليه أكثر من ضرورة معرفة أحدنا بوجوده إنساناً حياً بين الناس، أو بضرورة معرفة صوت أبيه أو أمه أو أخيه، ذلك الصوت الذي عاش دهرأ يسمعه، ويفرق بينه وبين سائر الأصوات.

الثانية: أن يخاطب الله تعالى من أعده لذلك من أنبيائه ورسله فيُسمعه كلامه المباشر مع القرب وبدونه، ولكن من وراء حجاب، فيسمع النبي الكلام ولا يرى المتكلم، وقد تم هذا للنبي محمد ﷺ ليلة الإسراء والمعراج في الملكوت الأعلى؛ إذ عُرج به ﷺ حتى بلغ سدرة المنتهى، وكلمه ربه تعالى، وفرض عليه الصلوات الخمس هذه التي يصلّيها المؤمنون خمس مرات في

كل يوم وليلة، غير أنه لم ير ربه تعالى، فقد سئل عن ذلك فقال: «نور أنى أراه؟»⁽¹⁾. أما قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (النجم: 13-18).

فإن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ عائد إلى جبريل عليه السلام، وليس عائدًا إلى الله تعالى.

كما تم هذا التكلم من وراء حجاب لموسى بنى إسرائيل عليه السلام، وكان بجبل الطور من سيناء حيث ناداه ربه بالواد المقدس طوى، ونبأه، وأوحى إليه، وأرسله إلى فرعون وملئه، كل هذا وموسى عليه السلام يسمع كلام الله تعالى المباشر ولا يرى الله تعالى مكلمه عز وجل حتى تأقت نفسه لرؤيته، فسأل ربه ذلك فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ارْنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فقال الله تعالى له: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ (الأعراف: 143). وأقنعه بعجزه عن الرؤية لله تبارك وتعالى، فأمره أن ينظر إلى الجبل وقد تجلّى له فصار دكاً، فنظر موسى إلى الجبل فلم يقو على رؤيته فخر مغشياً عليه، فلما أفاق من غشيته قال: ﴿سُبْحَانَكَ تَبَّتْ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأعراف: 143).

الثالثة: أن يوحى الله تعالى إلى من اصطفى من رسله بواسطة ملك يرسله إليه، وكان جبريل عليه السلام موكلاً بالنبى ﷺ، وهو الذى صحبه فى إسرائه ومعراجّه⁽²⁾؛ وما زال معه

(1) حديث الإسراء ثابت فى الصحيحين وغيرهما. اللؤلؤ والمرجان (1/ 35)، وقوله ﷺ: «نور أنى أراه» رواه مسلم (1/ 111).

(2) إن الإسراء والمعراج المجيدان ثابتان بالكتاب والسنة، وفى الكتاب من سورة الإسراء يقول تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ وفى هذه الآية تصريح بالإسراء وأنه كان من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، وفى قوله: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ إشارة إلى المعراج بعد التصريح بالإسراء إذ المعراج تم مع الإسراء فى رحلة واحدة، كما بينت ذلك الأحاديث الصحيحة. وفى قوله تعالى من سورة النجم: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ تصريح بالمعراج ووصول الرسول ﷺ فيه إلى سدره المنتهى عند جنة المأوى، وفى الملكوت الأعلى وما فى الآيات من إجمال لحادثة الإسراء والمعراج فقد بينته السنة وفصلته أيما تفصيل، إذ أغلب كتب الصحاح والمسانيد قد روت حادثة الإسراء والمعراج مفصلة، ولما كانت عقيدة المؤمن مبنية على أساس تصديق الله والرسول فى كل ما أخبرا به وجاء عنهما فإن تصديق المؤمن بحادثة الإسراء والمعراج ليس موضع شك أبداً كما أن إثبات هذه الحادثة لا يتطلب دليلاً بعد إثبات الكتاب والسنة لها. إن الإسراء والمعراج ثبنا للنبي محمد ﷺ بروحه وجسده، ويقظة لا مناماً، وذلك فى السنة الحادية عشرة من البعثة المحمدية، ولا التفات إلى رأى من يقول بحصولها بالروح دون الجسد، أو فى المنام دون اليقظة، إذ هذا الرأى فاسد وباطل لمنافاته لمعنى ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ ولرفض سلف هذه الأمة له وإنكاره على قائله ومرتبته.

يأتيه بوحى ربه حتى قبض ﷺ، والملك الرسول يأتي أحياناً فى صورته الملائكية، وأحياناً يتمثل بشراً كما تمثل لمريم البتول عليها السلام، وقال لها لما استعازت بالرحمن منه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿ (مريم: 19 - 21).

كما كان يأتي النبي ﷺ فى صورة دحية بن خليفة الكلبي، وجاء مرة فى صورة أعرابي فدخل المسجد وجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبته إلى ركبته، ووضع يديه على فخذه، وأخذ يسأل الرسول ﷺ والرسول يجيبه وهو يصدقه بقوله: «صدقت» حتى عجب الصحابة منه، كيف يسأله ويصدقه؟ ولما انصرف أمر الرسول أصحابه أن يردوه عليه فطلبوه فلم يظفروا به، فقال لهم: «إنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم» (١).

ب - ضرورة الوحي، وحاجة الناس إليه:

إن الوحي الإلهي ضرورة من ضرورات شتى قد اقتضاها وجود الإنسان على هذه الأرض، يكابد فيها حياة طويلة فُرِضت عليه، وقدرت له، ولا ينتهي منها إلا بانتهاء هذا الكون وانقراضه حيث ينقل إلى ملكوت آخر، فهو فى هذه الرحلة الطويلة من حياته لابد له من تعاليم من ربه تنظم حياته، ولابد له من هدى يعيش عليه، وكيف يتم له ذلك بغير الوحي؟ فالوحي إذاً ضرورة من الضرورات لا غنى عنه بحال من الأحوال.

وضرورة الوحي وحاجة الإنسان إليه تظهران بوضوح إذا عرفنا أن الإنسان مكون من روح وجسد، وأن العالم عالمان علوى وسفلى، وأن الحياة حياتان: أولى تنقضى، وثانية تدوم ولا تنتهى، وتبقى أبداً ولا تنقص، وأن بين الحياتين برزخاً تنقضى فيه الأرواح فترة ما بين موت الإنسان وبعثه للحياة الثانية، وبيان ذلك: أن كون الإنسان روحاً يقتضى وحيّاً إلهياً يخبره عن الروح، وصفاتها، وأحوالها، وأسباب كمالها ونقصانها وسعادتها وشقائها. وأن كون الإنسان جسماً يقتضى كذلك وحيّاً إلهياً يُبين له فيه طرق المحافظة على جسمه، ويضع له القوانين التى تساعد على بقاءه صالحاً المدة المحددة له من هذه الحياة. وأن كون العالم عالمين علوياً وسفلياً يقتضى وحيّاً إلهياً يخبره عن العالم العلوى وما فيه، لعجز الإنسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصة وإدراكه دون الوحي الإلهي. وأن كون الحياة حياتين يقتضى كذلك وحيّاً إلهياً يعرف الإنسان بواسطته الحياة الثانية ماذا فيها؟ وما الذى يتم للإنسان يوم ينقل إليها؟ إذ مثل هذا لا يدركه الإنسان بواسطة عقله مجرداً عن الوحي الإلهي بحال من الأحوال.

(١) مسلم (1/28، 19).

فهذه أكثر من ضرورة قد اقتضت الوحي الإلهي، وجعلته حاجة من حاجات الإنسان التي لا يستغنى عنها بحال، فالوحي إذاً مع إمكانه هو ضرورة من ضرورات حياة الإنسان، وحاجة من حاجاته، وإنكاره والتكذيب به يُعد خطأ عقلياً كبيراً، وعجزاً فكرياً مُشيناً، وفساداً فطرياً خطيراً؛ لأن إنكار ما هو موجود وواقع، وجحود ما هو ضرورة للحياة، وحاجة أكيدة لها - لا تفره العقول، ولا توافق عليه بحال أبداً.

(ج) النبوة:

تعريف:

النبوة: اسم مشتق من نبا الشيء ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً غيره، ومنه قولهم: نبا السيف ينبو نبوة إذا ارتفع متجاوزاً مضرب الفارس، أو هي اسم مشتق من أنبأ فلان غيره ينبئه إنباء إذا أخبره بخبر ذي شأن، ولهذا يقال: «النبوة» بالهمزة بعد الواو، وبها قرأ ورش عن نافع: ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (الأنعام: 89).

وقرأ حفص عن عاصم النبوة بواو مشددة، ويمكن رد القراءة الأولى إلى هذه وذلك بقلب الهمزة واواً وإدغامها في الواو، وهو إعلال معروف عند النحاة.

وبناء على هذا فالنبوة الشرعية هي إعلام الله تعالى من اجتبي من الناس لرفعته والإعلاء من شأنه؛ بإنبائه بالوحي الذي أراده له، أو له ولغيره.

والأنبياء: جمع نبي، ويمد مهموزاً فيقال ﴿نبي﴾ كما هي قراءة ورش عن نافع في جميع القرآن أو في غالبه، وهو عائد إلى الاشتقاق الأول الذي تقدم في كلمة النبوة.

والنبي: ذكر من بنى آدم أوحى الله تعالى إليه بأمر، فإن أمر بتبليغه إلى الناس فهو نبي ورسول، وإن لم يؤمر بتبليغه فهو نبي غير رسول، وبهذا يظهر الفرق بين كل من النبي والرسول، وهو أن الرسول من أمر بإبلاغ ما أوحى إليه، والنبي من أوحى إليه بشيء ولم يؤمر بإبلاغه؛ لاختصاصه به دون غيره من الناس، وعليه فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً، ومثال النبي غير الرسول يوشع بن نون صاحب موسى وفتاه عليهما السلام، فقد نبأه الله تعالى، وخلف موسى وهارون في بني إسرائيل، وهو الذي غزا بيت المقدس وفتحها الله تعالى عليه.

ومثال النبي الرسول نبينا محمد ﷺ؛ إذ هو نبي الله ورسوله إلى الناس أجمعين، وكذا سائر الأنبياء والمرسلين المذكورين في القرآن الكريم كما سنقف عليه إن شاء الله تعالى في بحث هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن.

د- مؤهلات النبوة:

الذى ينبغى أن يُعلم هنا أن النبوة لا تأتى من طريق الكسب والاجتهاد أبداً، فلو انقطع المرء إلى العبادة كلية، وتخلّى عن سائر الحظوظ النفسية، وعن كل الرغبات والشهوات وسائر متع الحياة، ولذا نذرها لم يؤهله ذلك؛ لأن يكون نبياً أو رسولاً بحال من الأحوال، إن النبوة هبة خاصة، يختص بها الله واهبها من أهله لها من عباده المؤمنين، بيد أن الله يهيئ لها بإعداد خاص عبداً من عباده، فيحفظه من التلوث النفسى، والضلال العقلى، والفساد الخلقى، والانحراف الفطرى، ويضفى عليه من الكمالات النفسية والعقلية والخلقية ما يؤهله به لمقام النبوة الشريف. ومن المؤهلات للنبوة، وتلقى الوحي الإلهى:

1 - المثالية: ونعنى بالمثالية ذلك الكمال البشرى الذى يحوزه المرء المرشح لمقام النبوة، والذى لا يسمو إليه سواه من المرشحين لها من سائر الناس.

2 - شرف النسب: إن عامل الوراثية سبق أن قررناه، ولم ننكره، وهو أن كثيراً من الصفات والخصائص والمميزات تنتقل بهذه السنة الإلهية (عامل الوراثية) من الأصل الوالد إلى الفرع المولود، ومن هنا كان الأنبياء يبعثون فى أشرف أقوامهم، والمراد من الشرف بالمعنى العام: الترفع عن الدنيا والخلقية، والتنزّه عما يخل بالمرءات، ويهبط بالقيم البشرية، من كل سلوك شائن منحرف، تكرهه الطباع البشرية السليمة، وتشمئز منه النفوس الكريمة.

3 - عامل الزمن: إن المراد من عامل الزمن هو وجود مقتضيات فى الزمن المعين تحتم بعثة نبي وإرسال رسول، وتقتضيه، ومن ذلك وجود فراغ روحى تسبب عنه فساد اجتماعى كبير؛ فأصبحت الحال تتطلب نبياً مصلحاً، يرد للحياة اعتبارها، وللإنسان قيمته، وذلك كالفراغ الذى كان قبل إرسال موسى وأخيه هارون عليهما السلام، وكالذى كان قبل نبوة عيسى ورسالته عليه السلام، وكالذى كان قبل بعثة محمد عليه الصلاة والسلام، فإن الأحوال التى كانت سائدة فى تلك الأزمنة الثلاثة كانت تلح مطالبةً بنبوة نبي ورسالة رسول؛ لإصلاح البلاد والعباد، وكان الناس يومها يشعرون بالحاجة الملحة إلى نبوة تغير الأوضاع الفاسدة التى سادت يومئذ، والذين قالوا لفرعون: إن زوال ملكك سيكون على يد رجل من بنى إسرائيل - وبنو إسرائيل يومئذ مستعبدون مضطهدون أكثر من غيرهم، لا شوكة لهم ولا قوة - هذا القول وإن نسب إلى الكهنة فإنه هو نفسه عامل الزمن، وهو الشعور العام بالحاجة إلى مصلح يُصلح الأرض بعد أن أفسدها الطغيان الفرعونى، وجبروت الكبر، وفساد العلو فى الأرض، والإسراف فى الشر.

كما أن زمن ما قبل البعثة المحمدية كان يوحى بقرب نبوة مُصلحة، بحيث تطلع كثير من أهل الكتاب لها، بل صرحوا بقربها، وجأهروا به، وانتظروه ؛ لذا بادر كثير منهم بالإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولم يترددوا فى ذلك بمجرد ظهورها، وذلك كالنجاشى من النصارى، وعبد الله بن سلام من اليهود، وغيرهما من أحبار اليهود ورهبان النصارى، وذلك لما شاهدوا من الفساد العام الذى انتظم العالم بأسره وبخاصة جزيرة العرب، وبلاد الروم، وفارس، وهى تمثل العالم الإنسانى تقريباً⁽¹⁾.

ومجمل القول أن وجود فساد عام فى الأرض من شأنه أن تتطلع معه النفوس إلى مصلح يصلح الله به البلاد والعباد، وذلك لما عَزَزَ الله تعالى فى الفطر البشرية من الشعور بالرحمة الإلهية، وقربها كلما عم الشر، وعظم الفساد، شعور كشعور العطشان بالحاجة إلى الماء، وتطلعه إليه.

وها هى ذى البشرية اليوم فى حاجة ملحة إلى نبوة إلهية تصلح فسادها، وتخرجها من محتتها المادية التى تعانى منها، والنبوة الإلهية موجودة بين أيدينا ولكن الذى أعوزنا العبقري الملهم الذى يحملنا على الاهتداء بهديها، والسير على ضوء هدايتها ؛ حتى ننجو من هلكتنا ؛ ونسعد فى حياتنا. إن النبوة المطلوبة هى نبوة محمد ﷺ، وهى محفوظة لم تُشب بفساد، ولم تخلط بباطل، ولم يمسها سوء، ولأمر ما حفظها الله تعالى صالحة نقية بعد مضى زمن طويل على ظهورها، وما يدرينا أن الله تعالى قد ادخر لنا عبداً من عباده المؤمنين، سيظهر فى يوم ما من الأيام ؛ فيملأ به الأرض طهراً وعدلاً بعد ما ملئت خبثاً وظلماً.

هـ - صفات الأنبياء:

إن للمؤهلين لحمل رسالة الخالق إلى الخلق صفات كمال لا تفقد فى أحدهم أبداً ؛ إذ هى واجبة لكل من يحمل رسالة الله تعالى إلى عباده، ومن تلك الصفات:

1 - الصدق: صدق النية والإرادة، صدق القول والعمل، بحيث يستحيل أن يتصف المؤهل للنبوة بصد الصدق وهو الكذب والنفاق، أو الإهمال واللامبالاة، والمتتبع لسير الأنبياء يعرف هذه الحقيقة، ويؤمن بها.

(1) ويشهد لهذا القرآن الكريم إذ جاء فيه قوله من سورة الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ (الأعراف: 85) فهى الإقرار بأن الأرض كانت قبل البعثة المحمدية فاسدة، وأن الله تعالى قد أصلحها بها.

2 - الأمانة: الأمانة في كل شيء في القول والعمل، في الحكم والقضاء، في الحديث والنقل، في الرواية والتبليغ، في السر والعلن معاً؛ إذ يستحيل أن يتصفوا بضدها وهي الخيانة بحال من الأحوال، فلا خيانة فيهم أبداً، ولو في أقل الأشياء وأنفهاها، ومتى وجد شيء من الخيانة فلا نبوة ولا أهلية لها أبداً.

3 - التبليغ: والمراد منه أن يبلغ الرسول كل ما أمر بتبليغه فلا يخفى منه شيئاً، ولا يكتمه بحال من الأحوال، فلا تحمله رغبة ولا رهبة على أن يكتم بعضاً مما أوحى إليه، وأمر بإبلاغه إلى الناس، والكتمان للوحي الإلهي يتعذر على المرسلين، ويستحيل في حقهم، ولا يتأتى لهم، لأن الله تعالى أهلهم للبلاغ عنه ما أراد له عباده من الهدى والخير، فمتى وجد الكتمان بطلت النبوة، وانتفت الرسالة.

4 - الفطنة: إن الفطنة ليست الفهم والذكاء فحسب، بل هي مع ذلك رقة الشعور، وصفاء الذهن، ورهافة الحس وصدقته، وسرعة البداهة. على حد قول حسان بن ثابت في النبي محمد ﷺ:

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر
إذ الفطنة من المؤهلات لتلقى الوحي والأمانة عليه، فالغباء وبلادة الحس وبطء الإدراك تتنافى مع مقام النبوة وشرف التلقى عن الله تعالى، وسوف تكشف عن هذه المؤهلات ونجلي الكثير من معانيها إن شاء الله تعالى عند الحديث عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ؛ إذ هو المقصود بهذه الدراسات كلها؛ وذلك لوجود رسالته قائمة بين أيدي الناس، ولحاجة الناس إليها.

الرسول عليهم السلام

الرسول فى التاريخ

لقد سبق أن عرفنا الرسول فى اصطلاح الشرع، وهو: ذكر من بنى آدم أوحى إليه بشرع وأمر بتبليغه، وأنه بوحي الله تعالى إليه أصبح نبياً، ويارسالة كان رسولاً.

والآن نعرض لجملة من تاريخ الرسل فنقول: إن التاريخ الذى كتبه يد البشر. ومهما كانت اليد الكاتبة أمينة وعليمة، لتاريخ ناقص عن توفية الرسل حقهم فيما وهبهم الله تعالى من الكمال، وقاصر على إعطاء الصورة الواضحة لرسول الله وأنبيائه الذين لم تخل من وجودهم فيها أمة من الأمم، ومن بدء الخليقة إلى أن خُتِموا بإمامهم وسيدهم محمد ﷺ تسليماً كثيراً؛ لقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

ومع هذا فإنه لا يوجد فى مصادر التاريخ اليوم ما يعول عليه فى هذا الشأن، وما يعتمد عليه فى هذه المهمة العظيمة، وهى التاريخ الصادق الكامل لصفوة الخلق وخلاصة البشر الرسل عليهم السلام، اللهم إلا ما كان من كتاب الله تعالى القرآن الكريم، فإنه المصدر الوحيد الموثوق، الذى لا يُعدّل به غيره، ولا يلتفت معه إلى سواه؛ إذ لا يعرف الأنبياء كمن نبأهم، ولا يعرف المرسلين المصطفين كمن اصطفاهم وأرسلهم، فحسبنا إذاً القرآن فى هذا الشأن، فنكتفى بإيراد بعض ما جاء فيه عن رسل الله من حيث عددهم، وبيان زمن وجود كل منهم، ومعرفة أسمائهم، ومعرفة أعاضهم وأولى العزم منهم، وذكر بلادهم، وأقوامهم، وما إلى ذلك من تاريخ حياتهم.

عدد الرسل:

لم نشك أبداً فى أن الرسل كانوا جمّاً غفيراً؛ وذلك لقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل: 36). وقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: 24).

غير أننا لا نستطيع أن نحزم بعدد معين لا نزيد عليه، ولا ننقص منه؛ ذلك لعدم ثبوته عن الوحي الإلهي، والخبر النبوي الصحيح، وكل ما ورد عن النبي ﷺ فى بيان عدد الأنبياء والمرسلين حديث أبى ذر الغفارى فى مسند أحمد، وسنده ليس بالقوى كما قيل، ولفظه: «قلت: يا رسول الله أى الأنبياء كان أول؟ قال: «آدم»، قلت: يا رسول الله أنبى كان؟ قال: «نعم، نبي، مكلم»، قلت: يا رسول الله كم المرسلون؟ قال: «ثلثمائة وخمسة عشر جمّاً غفيراً». وفى لفظ: «كم وفاء عدد الأنبياء؟ قال: مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل منهم ثلثمائة

وخمسة عشر جملاً غفيراً⁽¹⁾. ففي هذا الخبر المرفوع بيان أن آدم كان نبياً يكلمه الله تعالى ويوحى إليه، وبيان عدد كل من الأنبياء والمرسلين، ولا يبعد أن يكون هذا الخبر صحيحاً - وإن ضعف سنده - وذلك لما فيه من آثار طابع النبوة وروحها.

ولما لم يجد علماء الإسلام بديلاً عنه قالوا بالمعنى الذى جاء فيه فحكموا بنبوة آدم، وحدثوا أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألفاً، وأن المرسلين منهم ثلاثمائة وخمسة عشر، ولا تثريب عليهم فى ذلك لعدم وجود ضرر يترتب على القول بهذا الخبر؛ إذ هو كأخبار بنى إسرائيل تصح روايتها للاعتبار بها إذا لم يوجد فى الإسلام ما ينافيها،⁽²⁾ أو يتنافى معها.

زمن وجود كل منهم:

إن تاريخ الرسل عليهم السلام يبتدىء بآدم أبى البشر عليه السلام، ووجوده فى الأرض، وتكاثر أبنائه فيها مقتضى للوحى الإلهى؛ إذ به تكمل آدمية الإنسان، وبه يتم شرفه، وعليه تزكو نفسه، ويتأهل للسعادة فى الحياتين الأولى والآخرة.

ولم يعرف الناس نبياً من أولاد آدم لصلبه اللهم إلا ما كان من «شيث» عليه السلام؛ فإنه روى أنه كان حفيداً لآدم أبى البشر النبى عليه السلام، وقد أنزل عليه عدة صحف تعرف بصحف «شيث» عليه السلام، وجاء بعد شيث نبى الله ورسوله إدريس عليه السلام، وهو مذكور فى الكتاب الكريم، وتقول الأخبار إنه من ذرية شيث عليه السلام.

ثم جاء نوح عليه السلام وهو أول رسول كما صرح بذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء: 163).

ثم جاء بعده هود، فصالح، إبراهيم، فلوط، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، يوسف، ثم شعيب، فموسى، فهارون، فداود، فسلیمان، ثم إلياس، فأيوب، واليسع، وذو الكفل، ويونس، وزكريا، فيحى، وعيسى، ثم خاتمهم محمد صلى الله عليهم وسلم أجمعين.

وهذا الترتيب الزمنى صحيح إلى حد ما، ولولا الخفاء فى زمن كل من يونس وأيوب وذى الكفل واليسع لكان إلى الصحة أقرب منه إلى غيرها، والحقيقة فى هذا أنه من باب علم لا ينفع

(1) أحمد (5/ 178، 179، 266).

(2) ولا يقولن قائل: بل جاء فى القرآن ما يتنافى معها وهو قوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء: 164) فإننا نقول: المنافى هو أخبارهم وأحوالهم مع أمهم، أما خبر إجمالى كهذا فإنه لا يتنافى مع الآية أبداً.

وجهالة لا تضر؛ إذ المطلوب هو الإيمان بالرسول، وتوقيرهم، وتعزيزهم، واتباعهم، والاقتداء بهديهم في أي زمان كانوا، وفي أي أرض وجدوا.

ديار الرسل:

إن عامة من ذكر من الرسل في القرآن الكريم كانت ديارهم في الشرق الأوسط، منها بُعثوا، وفيها عاشوا مع أقوامهم، وفيها ماتوا ودفنوا، فإبراهيم عليه السلام بعث بالعراق، وهاجر منها إلى أرض كنعان، فتنقل بين الحجاز والشام وأرض المعاد حتى توفاه الله تعالى. وإسماعيل عليه السلام ولد بالشام وعاش بمكة المكرمة لم يفارقها، وفيها بعث، وبين القبائل العربية دعا إلى الله حتى توفاه الله. وإسحاق كان بأرض المعاد، وكذا يعقوب ولده، إلا أن الأخير هاجر إلى أرض مصر، فعاش بها مع أولاده، ولعله توفي بها وأرسل من بعده يوسف، فعاش بمصر حتى هلك بها، ثم أرسل موسى وهارون، وعاشا بين مصر وسيناء إلى أن توفاهما الله تعالى، وجاء داود وسليمان فكانا في أرض القدس، وتوالت أنبياء بني إسرائيل على أرض الشام، وكان آخرهم عيسى عليه السلام فولد في بيت لحم، وعاش بأرض المقدس حتى رفعه الله تعالى إليه. ثم بُعث خاتم الأنبياء محمد ﷺ بمكة، فولد بها وعاش إلى أن هاجر إلى المدينة من أرض الحجاز، فعاش بها عشر سنوات، وبها توفي، وبها قبره الشريف ﷺ.

أما نوح عليه السلام فلا يبعد أنه كان كذلك بين الشرقين الأوسط والأدنى، وأما هود وصالح وشعيب فقد كانوا بأرض العرب، هود في الجنوب ما بين حضرموت والشجر، وصالح بالشمال ما بين الحجاز والشام، وشعيب بغرب الجزيرة جنوب الأردن الشرقي بأرض مدين، ولوط عليه السلام كان قد هاجر مع عمه إبراهيم الخليل من أرض بابل بالعراق، فبعثه الله تعالى إلى المؤتفكات، وكانت خمس مدن كبيرة أشهرها سدوم وعمورة فأهلك الله أهل تلك البلاد لفسادهم وخبثهم ونجى لوطاً ومن معه من المؤمنين، فارتفعوا إلى أرض الشام وأقاموا بها.

أولوا العزم من الرسل:

نما يعتبر جزءاً من العقيدة الإسلامية معرفة أولى العزم من الرسل عليهم السلام؛ إذ جاء في القرآن قوله: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ (الأحقاف: 35).

فتعينت معرفتهم لذلك، كما جاء في القرآن بيان عددهم وأسمائهم معاً، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ (الأحزاب: 7).

فالكاف من قوله: ﴿وَمِنْكَ﴾ (الأحزاب: 7)، حرف خطاب تعنى محمداً ﷺ، فهو مقدم فى اللفظ للفضل، ويأتى أربعتهم بعده وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى، مرتبون فى الفضل والزمن، فنوح أولهم وعيسى ابن مريم آخرهم فصلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وجوب الإيمان بالرسول عليهم السلام

بعد أن عرفنا إمكان الوحي وعرفنا الوحي وطرقه الخاصة به، وعرفنا ضرورته، وحاجة الناس إليه، كما عرفنا النبوة ومؤهلاتها، وعرفنا صفات الأنبياء والرسول، وتاريخهم العام - نذكر إتماماً للبحث فى هذا المعتقد أن الإيمان بالرسول إجمالاً وتفصيلاً جزء من عقيدة المؤمن لا يتجزأ، بحيث لا تصح عقيدة المؤمن، ولا تكمل إلا به.

ومعنى الإيمان بالرسول إجمالاً: أن يؤمن المرء بكل ما نبأ الله من نبي، وبكل ما أرسل من رسول ممن عرف نبوتهم ورسالاتهم ومن لم يعرف، فيؤمن إيماناً إجمالياً.

ومعنى الإيمان بالرسول تفصيلاً: أن يؤمن المرء بكل نبي ورسول عرف نبوته ورسالته عن طريق الوحي إيماناً تفصيلياً، فمن عرفهم من طريق الوحي الإلهى بأسمائهم آمن بهم واحداً واحداً على التفصيل، ولا يؤمن برسالة بعض ويكفر برسالة بعض آخر؛ إذ الكفر بواحد منهم يعتبر كفراً بجميعهم. وقد تقدم أنفاً بيان الرسل الذين ذكروا فى القرآن الكريم، وهم خمسة وعشرون نبياً ورسولاً، منهم ثمانية عشر قد ذكروا فى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (٨٣) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿ (الأنعام: 83 - 86).

وذكر السبعة الباقون مفرقين فى عدة سور من القرآن وهم آدم، وإدريس، وهود، وصالح، وشعيب، وذو الكفل، وخاتمهم محمد ﷺ (١).

(١) آدم فى (33) من آل عمران، وإدريس فى (56) من مريم، وهود فى (50) من سورة هود، وصالح فى (73) من الأعراف، وشعيب فى (85) من الأعراف، وذو الكفل فى (85) من الأنبياء، ومحمد فى (40) من الأحزاب.

والإيمان بالرسول ضروري، لا يتوقف على نظر ولا استدلال بالنسبة إلى المؤمنين بالله تعالى؛ لأن الله تعالى هو الذي نبأهم، وأرسلهم، وأخبر عنهم، وأمر بالإيمان بهم، وتصديقهم، والإيمان بالله تعالى مستلزم للإيمان بكل ما أمر الله بالإيمان به من الملائكة والكتب، والرسول، والبعث، والجزاء، والقدر، والقضاء، وبكل غيب أمر الله تعالى بالإيمان به، فيكفي المؤمن دليلاً أن يبلغه خبر الله، وأمره بالإيمان بالرسول، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ (النساء: 136). وقوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ (البقرة: 285).

فلهايتين الآيتين وغيرهما يؤمن المؤمن برسل الله تعالى، ولا يفرق في الإيمان بهم بين رسول ورسول منهم، كما فعل اليهود والنصارى، حيث آمن اليهود بأنبياء بنى إسرائيل وكفروا بعيسى ابن مريم ومحمد ﷺ، ولا كما آمن النصارى بكافة الأنبياء وكفروا بخاتمهم وإمامهم محمد ﷺ. وقد كفر الله وتوعد بالعذاب المهين من يؤمن ببعض الرسل ويكفر ببعض في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (النساء: 150، 151).

هذا ونظراً لنسخ جميع شرائع الرسل عليهم السلام بشريعة خاتمهم محمد ﷺ؛ فإنه لم يبق هناك ما يلزم المؤمن إزاء أولئك الرسل سوى الإيمان بهم واعتقاد عصمتهم وكمالهم، ووجوب تعظيمهم واحترامهم.

ولهذا نكتفى بما سبق من البحث في اعتقاد المؤمن بالرسول عليهم السلام لنخص بالبحث النبي الخاتم، صاحب الشريعة المتممة لسائر الشرائع، والعامّة لكل الناس، وهو النبي الأمي محمد رسول الله ﷺ.

محمد رسول الله ﷺ

التعريف به ﷺ :

نسبه: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن كعب بن مرة بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن معد بن عدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام.

نشأته:

ولد ﷺ بمكة بدار أبي يوسف، ولدته آمنة بنت وهب بن زهرة بن عبد مناف بن قصي بن كلاب. ولدته صبيحة يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول عام الفيل، الموافق لأغسطس عام (570) ميلادية، ومات والده عبد الله وهو حمل في بطن أمه، وكفله جده عبد المطلب، وماتت والدته آمنة وهو ابن ست سنين، وحضنته أم أيمن جارية أبيه، ومات جده فكفله عمه أبو طالب.

زواجه وأولاده:

ولما بلغ الخامسة والعشرين من عمره ﷺ تزوج بخديجة بنت خويلد إحدى شريفات قريش، فأنجب منها ولدين هما القاسم وعبد الله⁽¹⁾ ماتا صغيرين، وأربع بنات: هن فاطمة الزهراء وزينب ورقية وأم كلثوم رضى الله عنهن، ولم يزاول من الأعمال ﷺ في هذه الفترة من عمره سوى رعى الغنم، إذ قال ﷺ: «ما بعث الله نبياً إلا ورعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»⁽²⁾، والتجارة حيث خرج مع عمه إلى الشام مرة واحدة وخرج بعد ذلك في تجارة لخديجة فربح لها ربحاً عظيماً.

وكان ﷺ في هذه المدة من حياته يتمتع بأفضل الأخلاق، وأطيب السمائل، فلم يؤثر عليه ما يخل بمكارم الأخلاق قط، فلم يأت ولو مرة ما كان يأتيه بنو قومه أبداً، فلم يسجد لصنم، ولم يشرب خمراً، ولم يلعب قماراً ولا ميسراً، ولم يستقسم بركم، ولم يظلم أحداً في عرض ولا مال ولا دم، لقد كان بشهادة أعدائه وخصومه مثالياً في أخلاقه، وناهيك بإجماع قريش على إضفاء لقب الأمين عليه، هذا اللقب الذي لم يظفر به أحد في ديارها أبداً، لقد كان ﷺ أميناً في سره وفي علنه، أميناً في قوله وفي عمله، أميناً في غيبه ومشهده، أميناً في كل شيء وعلى كل شيء.

وإذا كانت قريش قد اضطرت إلى منحه ذلك اللقب السامي، الرفيع الكريم - لقب الأمين -

(1) ومن أصحاب السير من يزيد الطيب فيجعل الأبناء ثلاثة والله أعلم بالحقيقة.

(2) البخاري (3/ 109، 110)، كتاب الإجارة، باب رعى الغنم على قراريط.

فإن الله تعالى قد أقسم له في مطلع نبوته على أنه على خلق عظيم، وهى شهادة - والله - لا تعادلها شهادة أبداً؛ إذ قال: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ (١) مَا أَنْتَ بِنِعْمَةٍ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢) وَإِنَّ لَكَ لَأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ (٣) وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 1 - 4).

عناية الله به:

لم يكن الكمال الذى عاش عليه محمد ﷺ وعرف به قبل نبوته، لم يكن نتيجة أم أو أب، أو أثر تعليم أستاذ أو مرب قط، وإنما كان أثر عناية الله تعالى له، فالله الذى خلقه؛ لأن يكون واسطة بينه وبين عبادته؛ ليبلغهم شرعه ودينه - هو الذى حماه من كل ما يلوث نفسه، أو يعكر صفاء روحه، إعداداً له لحمل رسالته إلى خلقه، وحمل مثل تلك الرسالة يتطلب كمالاً نفسياً يكون صاحبه فيه مثلاً أعلى لغيره من سائر الناس، وكذلك كان رسول الله ﷺ، ولنستشهد على عناية الله للرسول، وحمايته تعالى له من التلوث النفسى منذ ولادته بشاهدين اثنين نستغنى بهما عن عشرات الشواهد والأمثلة وهما:

1 - ما روى البيهقي عن محمد بن إسحاق عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا ليلتين، كلتا هما عصمنى الله عز وجل فيهما، قلت ليلة لبعض فتيان مكة ونحن في رعاء غنم أهلها، فقلت لصاحبي: أبصر لى غنمى حتى أدخل مكة أسمر فيها كما يسمر الفتيان. فقال: بلى، قال: فدخلت حتى جئت أول دار من دور مكة، فسمعت عزفاً بالغرايل والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة، فجلست أنظر، وضرب الله على أذنى، فوالله ما أيقظنى إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ماذا فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً، ثم أخبرته بالذى رأيت (وذكر أنه حصل له مرة أخرى فتم له مثل الذى حصل فى الأولى) ثم قال: فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك حتى أكرمنى الله عز وجل بنبوته»⁽¹⁾.

2 - ما روى البخارى ومسلم أن النبى ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة (لما أرادوا تجديد بنائها) وعليه إزاره، فقال له العباس عمه: يا ابن أخى لو حللت إزارك فجعلته على منكبيك دون الحجارة، قال: فحلله فجعله على منكبيه، فسقط مغشياً عليه، فما روى بعد ذلك عريانا ﷺ⁽²⁾.

(1) ذكر هذه الحادثة ابن كثير فى البداية والنهاية، وقال: هذا حديث غريب جداً، وقد يكون عن على نفسه، ويكون قوله فى آخره «حتى أكرمنى الله بنبوته» مقحماً، والله أعلم، اهـ. (2/ 288)، الطبعة الأولى 1966 أشرف عليها مكتبة المعارف ومكتبة النصر.

(2) اللؤلؤ والمرجان (1/ 72)، البخارى (1/ 97)، ومسلم (1/ 184)، وما بين القوسين ليس من الحديث.

نبوته وبعثته:

وعلى رأس الأربعين كما هي سنة الله في الأنبياء نبي محمد ﷺ، إذ جاءه الحق وهو بغار حراء، بعد أن كان قد حُبب إليه الخلاء فيه مدة شهر رمضان، فجاءه جبريل وهو به فضمه إلى صدره وأرسله ثلاثاً وقال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ، وفي الرابعة قال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ (العلق: 1-3).

فذهب بها ﷺ إلى خديجة زوجة الكريمة ترجف بوادره، وهو خائف على نفسه، وهي تقول له: «كلا، والله ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وانطلقت به ﷺ إلى ورقة بن نوفل بن أسد ابن عمها، وكان امرأً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً^(١)، يا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال النبي ﷺ: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي^(٢).

وبعد فترة فتر فيها الوحي تبدى له جبريل في صورته الملائكية وقد سد الأفق وله ستمائة جناح، ثم أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله ما أوحى، ونزل عليه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنْذِرْ (٢) وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ (٣) وَتِبْيَاطُ فَطْهَرٌ (٤) وَالرُّجْزُ فَاهْجُرْ﴾ (المدثر: 1-5) فأرسل بها ﷺ. (3)

بدء الدعوة:

وبدأ ﷺ دعوته إلى الإيمان بالله ورسوله، وكتابه، ولقائه، وتوحيده تعالى في عبادته، بدأها فردية، وتلقى هو ومن آمن به صنوفاً من الأذى، وأنواعاً من الاضطهاد، مما اضطر بعض

(1) جذعاً منصوب على أنه خبر كان المحذوفة والتقدير: ليتني أكون فيها جذعاً، أو الخبر متعلق بالجار والمجرور، وجذعاً منصوب على الحال.

(2) لم ينشب: أي لم يتعلق بأى عمل من الأعمال، كناية عن كونه مات بعد قليل ولم تطل حياته، والحديث بطوله أخرجه البخاري في أول كتابه (1/5، 6)، ومسلم (1/97، 98)، واللوئ والمريجان (1/32).

(3) الحديث رواه البخاري ومسلم إلا أنه ليس فيهما -في هذا الحديث- أن له ستمائة جناح وأنه أخذ يدنو منه ويتدلى حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى الله ما أوحى، راجع للوئ والمريجان (1/34)، ومسلم (1/98، 99)، والبخاري (1/6).

أصحابه إلى الهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة النبوية، كما حُوصِر هو وأسرته الشريفة والمؤمنون من بنى هاشم، حوصروا في شعب أبي طالب ثلاث سنوات، جاعوا فيها جوعاً أكلوا معه ورق الشجر، مع كامل الأسف.

وفي هذه الأثناء توفيت أم المؤمنين خديجة زوجة المفضلة ﷺ، كما توفي عمه أبو طالب الذي لم يألُ جهداً يدفع عن رسول الله ﷺ ويحميه من كيد أعدائه له، فكان ذلك العام يدعى عام الحزن كما قيل.

وفي نهاية السنة العاشرة من بعثته ﷺ ومطلع الحادية عشرة عُرِجَ به ﷺ إلى الملكوت الأعلى حتى بلغ سدره المنتهى عند جنة المأوى، وتجاوزها إلى مقام أسمى سمع عنده صريف الأقاليم، وناجاه ربه، وناداه، وفرض عليه وعلى أمتة الصلوات الخمس⁽¹⁾، وفي هذه الأثناء عقد ﷺ اتفاقية مع بعض رجالات الأوس والخزرج تنص على أن يحمى أولئك الرجال من يهاجر إليهم من المؤمنين مما يحمون به أنفسهم وأموالهم، وأن لهم عند الله تعالى الجنة، وسميت هذه الاتفاقية ببيعة العقبة الأولى، وتمت عندها أخرى مثلها فسميت ببيعة العقبة الثانية⁽²⁾، وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن كثرت بها الإسلام والمسلمون، وكانت قبل ذلك تسمى (يثرب) فصارت بحلول النبي فيها تسمى المدينة النبوية، والعامه تسميها المدينة المنورة، وفيها شرعت كل الأحكام والقوانين الجنائية والمدنية، وبها تكونت الدولة الإسلامية الأولى في تاريخ الإسلام. ومن المدينة انطلق المسلمون ينشرون راية العدل والحق في ربوع الأرض، ويخرجون الناس من ظلمات الكفر إلى أنوار الإيمان، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن جور السلطان إلى عدل الإسلام كما قال ربي بن خراش لكسرى ملك الفرس. ولم يقبض رسول الله ﷺ حتى انتظم الإسلام كامل شبه جزيرة العرب، وحتى تم التشريع الإسلامي أوفر وأقوى ما يكون، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: 3).

وقبض رسول الله ﷺ يوم الاثنين من شهر ربيع الأول بعد ما مضى عشر سنوات وشهران وبعض الليالي على هجرته إلى المدينة، والتي كانت مبدأ التاريخ الإسلامي، ولم يلتحق ﷺ بالرفيق الأعلى حتى لم يترك خيراً قط إلا دل أمة الإسلام عليه، ولا شراً إلا حذرهما منه، فصلوات الله عليه إلى يوم أن نسعد برؤيته وشفاعته.

(1) حديث الإسراء ثابت في الصحيحين، اللؤلؤ والمرجان (1/ 35).

(2) راجع أحاديث العقبة في البخاري (5/ 69، 70).

هذه نظرة سريعة ألقيناها متبركين بها على تاريخ محمد رسول الله ﷺ بمناسبة الحديث عن نبوته، فكانت مثل ترجمة قصيرة نقدمها بين يدي بحث دلائل نبوته، وعموم رسالته، وتقرير أن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة رهن ذلك ومتوقفة عليه.

مؤهلاته للنبوة:

لقد سبق أن ذكرنا أن من مؤهلاته للنبوة العامل الزمني، والمثالية، وشرف النسب، فلنتظر الآن فيما إذا كانت هذه العوامل الثلاثة متوفرة للنبي العربي ﷺ أم لا؟ ولنبدأ بالعامل الزمني فنقول:

لقد أجمع من أرخوا للدولتين الكبيرتين الفارسية والرومانية قبل البعثة المحمدية، أجمعوا على أن فساداً عاماً قد عم تينك الدولتين العظيمتين: فساداً في الدين، فساداً في الأخلاق، فساداً في الحكم، فسرى ضعف هائل في كل أجهزة تينك الدولتين، وخلايا تينك الأمتين الكبيرتين. هذا في دولة الفرس والروم الحضاريتين أما في غيرهما فإن الأحوال أسوأ، والأمور أردأ، والظلام في كل جوانب الحياة أحلك، ففي شبه جزيرة العرب أصنام تُعبد، وخمور تشرب، وبنات تواد، وكهانات حلت محل النبوات، وأعراف قبلية سائدة سيادة الشرائع الإلهية، من له يُعطى ويزاد، ومن ليس له يؤخذ منه، وليس حال غيرهم خيراً من حالهم، فالعالم يومئذ كله يعيش في ظلام دامس من الظلم والشر والفساد، وهي حال تدعو بل تصرخ بذى نبوة إلهية، ورسالة ربانية، يصلح الله به وعلى يديه فساد البلاد والعباد.

وحقاً فقد تطلع الناس إلى صاحب هذه النبوة، وحامل تلك الرسالة، ففي الجزيرة العربية إرهابات كثيرة، وبين أهل الكتاب تنبؤات أكثر، همسات خفية في كل واد، وممنية بقرب نبوة سماوية. كل الدلائل تشير إلى أن هذه النبوة ستكون هذه المرة في الأمة العربية، قد يلوح سناها بين جبال فاران (مكة)، وتطلع شمس ضحاها في يثرب ذات النخيل والظل الظليل، إنها مهاجر النبي الذي قد أطل زمانه.

وسابق بعض أهل الكتاب الأحداث، فهاجروا إلى الحجاز، ونزلوا يثرب نفسها، وتأكدت التنبؤات عند بعضهم، حتى استفتحوا على العرب جيرانهم بأن النبي المنتظر سيبعث فينا، ونقاتلكم معه.

وبالجملة فإن تلك الفترة - وهي السبعون سنة بعد الأربعمائة من ولادة السيد المسيح عليه السلام - كانت فترة إرهابات كثيرة، وتطلعات كبيرة، وتنبؤات لا حد لها، وفي أنحاء شتى من العالم إلى نبوة يتغير بها مجرى التاريخ الإنساني ويوقف بها تيار الفساد العام بين البلاد والعباد، ومن يا ترى يكون المؤهل لهذه النبوة؟

إنه كان محمداً ابن عبد الله، دعوة إبراهيم القائل: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: 129).

وبشارة عيسى القائل: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (الصف: 6).

إنه كان محمداً النبي الأمي الذي نادى قائلاً: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾

(الأعراف: 158).

فمرحباً بوفادته على الدنيا، ومرحباً بقيادته للإنسانية، ومرحباً به وهو الرحمة الإلهية، ومن العامل الزماني إلى المثالية، فلنلق نظرة سريعة على المثالية المحمدية التي أهلتها بإذن الله لقيادة البشرية، وهياته لتلقى الوحي من السماء؛ ليكون رسول الله إلى الناس كافة، فلننظر إليها في الجانب الخلقى الذاتي، ثم في الجانب الخلقى النفساني، وإن أصحاب السير وجميع من كتب في السيرة المحمدية مجمعون على أن محمد بن عبد الله والنبي الأمي كان أكمل الناس ذاتاً، وأجملهم وجهاً، وأحسنهم قدراً واعتدالاً، ولترك الرواة الصادقين يصفون لنا الذات المحمدية كما رأوها وعرفوها، قال البراء في رواية مسلم: «كان رسول الله ﷺ رجلاً مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، عظيم الجمة إلى شحمة أذنيه، عليه حلة حمراء ما رأيت شيئاً قط أحسن منه ﷺ» (1) وقال أنس في رواية مسلم: «كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ إذا مشى تكفاً، ولا مسست ديباجة ولا حريرة ألين من كفى رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكة ولا عنبرة أطيب من رائحة رسول الله ﷺ» (2)، ولنصغ أخيراً إلى ما قاله الحسن بن علي رضي الله عنهما حيث قال: «سألت هند بن أبي هالة عن حلية رسول الله ﷺ وكان وصافاً، وأنا أرجو أن يصف لي منها شيئاً أتعلق به، فقال: كان رسول الله ﷺ فخماً مفخماً، يتلألاً وجهه تلالؤ القمر ليلة البدر، أطول من المربع (بين القصر والطول)، وأقصر من المشذب (البائن الطول)، عظيم الهامة، رجل الشعر (ليس بسبط ولا جعد)، إن انفرت عقيقته فرقها، وإلا فلا يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا وقره، أزهر اللون، واسع الجبين، أزج الحواجب (3) سوابغ من غير قرن، بينهما عرق يُدره الغضب، أقنى العينين (4)، له نور يعلوه، يحسبه من لم يتأمله أشم، كث اللحية، أدعج،

(1) الحديث متفق عليه واللفظ لمسلم. اللؤلؤ والمرجان (3/ 107)، ومسلم (7/ 83)، والبخاري (4/ 228).

(2) مسلم (7/ 81). (3) الأزج: الحاجب المقوس الطويل الكثير الشعر.

(4) القنا: ارتفاع الأنف، واحديداب وسطه، ودقة أرنبته.

سهل الخدين، ضليع الفم، أشنب⁽¹⁾، مفلج الأسنان، دقيق المسربة⁽²⁾، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة، معتدل الخلق، بادناً (ذو لحم) متماسكاً، سواء البطن والصدر، بعيد ما بين المنكبين، ضخم الكراديس (رؤوس العظام)، أنور المتجرد، موصول ما بين اللية والسرة بشعر يجرى كالخط، عارى الثديين، أشعر الذراعين والمنكبين وأعلى الصدر، طويل الزندين، رجب الراحة، شثن الكفين والقدمين، سائل الأطراف، عبل الذراعين⁽³⁾، خمضان الأخصمين، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء، إذ زال زال تقلعاً، ويخطو تكفوفاً، ويمشى هوناً، ذريع المشية، إذا مشى كأنما ينحط من صبيب (علو) ارتقاه، وإذا التفت التفت جميعاً، خافض الطرف، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء، جل نظره الملاحظة، يسوس أصحابه، ويبدأ من لقيه بالسلام⁽⁴⁾.

هذا الجانب الخلقى الذاتى هو محض عطاء الله تعالى وهبته، ولا كسب فيه للإنسان، فإن النبى الأمى محمداً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قد أعطى منه ما لم يعط غيره، حتى كان فى جماله الذاتى مثلاً عالياً لا يسامى فيه، ولا يطاول أبداً. ولننظر إلى مثاليته ﷺ فى الجانب الخلقى النفسانى، متبعين عناصر الكمال فيه عنصراً بعد آخر فنقول - ولسنا بموفيه ﷺ كما له مهما حدثنا وكتبنا: -

رجاحة عقله:

نكتفى من عشرات الأمثلة الدالة على ما كان للنبى محمد ﷺ من كمال العقل ورجاحته بأربعة أمثلة، اثنين منها قبل نبوته واثنين بعدها، فأما اللذان قبل نبوته ﷺ فهما:

1 - حضوره حلف الفضول وقوله فيه: «لقد حضرت حلف الفضول بدار عبد الله بن جدعان، وما أحب أن لى بحلف حضرته فى دار عبد الله بن جدعان حمر النعم، ولو دعيت به لأجبت»⁽⁵⁾. فهذا الحلف تم على أساس نصرة المظلوم، والوقوف إلى جنبه حتى يؤخذ له الحق ممن ظلمه، فحضور النبى ﷺ له تأييداً للحق، واغتياباً به حتى قال: «ما أحب أن لى به حمر النعم» دالٌّ على كمال عقله ورجحانه بدون شك.

(1) الشنب: رقة الأسنان، ورونقها، وحسنها.

(2) المسربة: الشعر الذى بين الصدر والسرة.

(3) العبل: الغلط.

(4) محمد المثل الكامل (11/10).

(5) سيرة ابن هشام (143/1)، بمعناه، وذكر الحلف أحمد رحمه الله فى مسنده (1/190، 193)، وابن سعد

فى طبقاته الجزء (1)، القسم (1)، ص (82).

2 - حكمه بأن يوضع الحجر الأسود في ثوب، ثم تأخذ بأطرافه القبائل القرشية، حتى إذا بلغ الحجر مكانه من جدار البيت تناوله هو ووضعه في مكانه، فقضى بذلك على خصومه من أشد الخصومات، وحقن دماء كانت قد تُراق لولا ذلك التصرف الحكيم، الذي إن دل على شيء فإنه يدل على كمال العقل المحمدي ورجاحته بما لا مجال للشك فيه.

وأما المثلان اللذان في عهد نبوته فهما:

1 - تنازله لقريش على كتابة لفظة الرحمن الرحيم، وعلى لفظ رسول الله في كتابة وثيقة المعاهدة التي أبرمها مع قريش عام صلح الحديبية، إذ أمر الكاتب وهو على بن أبي طالب أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم، فقال ممثل قريش وهو سهيل بن عمرو: أمسك، لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم، فتنازل عن ذلك وكتب باسمك اللهم. ولما قال للكاتب اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، قال ممثل قريش: أمسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فتنازل عن ذلك وكتب⁽¹⁾، في حين أن أصحابه وعلى رأسهم عمر وعلى قد كرهوا ذلك وأبوا أن يفعلوه، ورأوه أنه إعطاء للندية في دينهم⁽²⁾، غير أن النتائج الطيبة التي أعقبت ذلك التنازل أدلت على قصر نظر القوم وبُعد نظر الرسول محمد ﷺ، وكمال عقله ورجاحته، الأمر الذي كان به مضرب المثل في كمال العقل، وحسن السياسة، والتدبير.

2 - لما دخل ﷺ مكة يوم الفتح منتصراً ووجد رجال قريش قد تجمعوا حول الكعبة ينظرون حكم الفاتح المنتصر فيهم ناداهم ﷺ قائلاً: «يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء»⁽³⁾.

إن هذا الموقف المثالي في تاريخ العظماء ينم قطعاً على ما أوتي رسول الله محمد ﷺ من رجحان العقل وكماله، وما أصبح به مثلاً عالياً في هذا الشأن.

شجاعته:

إن شجاعة قلب النبي محمد ﷺ لم تكن أقل من رجاحة عقله، إنه قد بلغ فيها بحق المثالية

(1) متفق عليه بذكر (محمد رسول الله) دون بسم الله الرحمن الرحيم، اللؤلؤ والمرجان (2/224)، ورواه مسلم بقريب من هذا اللفظ المذكور في الكتاب في (6/175).

(2) جاء هذا في حديث متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (2/224)، والبخاري (3/228، 229)، ومسلم (5/173-175).

(3) سيرة ابن هشام (4/41).

التي لا توصف، وناهيك في إثبات هذا الخلق العظيم أن يقول أفذاذ الأبطال كعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وخالد بن الوليد، وغيرهم ممن عُرفوا بالبطولات النادرة، والشجاعات الفذة أن يقولوا: «كنا إذا حمى الوطيس، واشتد البأس نلوذ برسول الله ﷺ نتقي به»⁽¹⁾، لقد انهزم الجيش الإسلامي يوم حُنين شر هزيمة، وثبت رسول الله ﷺ في الميدان وحده، حتى ثاب إليه أصحابه، وقاتل بهم حتى انتصر نصراً ساحقاً على أعدائه، وأمسوا في قبضته وتحت سلطانه، ولهذا الموقف نظيره في أحد أيضاً، وهذا مصداق شهادة القرآن له بالشجاعة في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء: 84).

إن شخصاً يكلف بالقتال وحده، وقاتل من؟ إنه قتال كل أهل الكفر على الأرض، وما على الأرض يومها إلا كافر باستثناء تلك الخفنة من أصحابه المؤمنين - لشخص هو أشجع من طلعت عليه الشمس وغربت في دنيا الناس، ذلك هو محمد رسول الله ﷺ.

تيسيراً للمستمع:

إن سياسة النبي محمد ﷺ وفي كلا مجالها المدني والعسكري، أو السلمى والحربى كانت وبدون شك ولا مبالغة مضرب المثل، وكانت على نحو لم يطمع في الوصول إلى مثله أحد من الناس ومهما أوتى من الكمال في هذا الخصوص. ولنكتف في الاستشهاد على هذه المثالية في السياسة المحمدية الرشيدة السديدة بذكر مسائل معينة منها:

1 - إذنه ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة بعد أن اشتد أذى المشركين لهم، حيث علم أنه لا يقدر على دفع الأذى عنهم، وأن بالحبشة ملكاً صالحاً كريماً، سيكرم وفادة أصحابه، ويحسن جوارهم وهو أصحمة النجاشي، فكان هذا الإذن بالهجرة تديراً سياسياً جديراً بالتقدير والاحترام⁽²⁾.

2 - اتخاذه دار الأرقم بن أبي الأرقم مركزاً للدعوة الإسلامية أيام اضطهاد المشركين لها، وثقيف أصحابه فيها، وتربيتهم، وتعليمهم - كان تديراً حكيماً دل على رشد في السياسة، وحسن فيها، مع حكمة التصرف، وكمال التدبير.

3 - عقده اتفاقيتي العقبة - وهما بيعتان بايع فيهما رجالاً من أهل المدينة لتأمين الهجرة إليها، وحماية المهاجرين فيها، ثم أمره أصحابه بالهجرة، وبالتالي هجرته هو ﷺ إليها، مما جعلها في

(1) روى مسلم عن البراء قوله: «كنا والله إذا احمر البأس نتقي به» (5/168).

(2) ذكر البخارى رحمه الله الهجرة إلى الحبشة في (5/62-64). وراجع البداية والنهاية (3/66)، وما بعدها، وسيرة ابن هشام (1/330)، وما بعدها.

بضعة أعوام دار إسلام، وعاصمة خلافة في الأرض، ومنطلق فتح، وهداية لكافة البشر⁽¹⁾.
4- معاهداته لطوائف اليهود الثلاث بالمدينة، وما حققته تلك المعاهدات من فوائد للدعوة الإسلامية، وما وفرته من حماية لها أيام حاجتها الملحة إلى الحماية والتأمين، وذلك لضعفها، ومناوأة كل الناس لها.

5- مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار، تلك المؤاخاة التي لحمت ما بين المهاجرين النازحين وأهل البلاد المواطنين فجعلتهم كجسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرهم بالحمى والسهر، تلك المؤاخاة التي لم يتم نظيرها على وجه الأرض قط، تحققت بفضل الله تعالى، ثم بتلك الحنكة السياسية والرشد المنقطع النظر فيها.

6- زواجه ﷺ من خديجة وهي بنت أربعين سنة، وهو شاب لم يتخط الخامسة والعشرين من عمره، ثم زواجه من عدة أرامل من النساء المسنات، وزواجه من أم المؤمنين عائشة بنت الصديق وسنها لم يتجاوز التاسعة من عمرها، كل ذلك دال على بُعد نظر، وعمق سياسة، وحسن تصرف، وكمال تدبير؛ حيث أعطى به لدعوة ربه الإسلامية دفعا قويا إلى النصر، والتقدم، والانتشار، ما لم تكن لتصل إليه وتحققه لولا تلك السياسة الحكيمة الرشيدة.

7- سراياه وغزواته العديدة، والتي تجلت في جميعها الخبرة العسكرية، والقيادة المثالية الحكيمة، والأمر الذي اعترف به الصديق والعدو على حد سواء، وكفى في تقرير ذلك أنه في خلال عشر سنوات من جهاده المقدس انتظم الإسلام أرض الجزيرة العربية كلها، واستنارت بنوره كل ديارها، وأن قتلى تلك الحروب والمعارك الهائلة التي دارت رحاها مدة عشر سنوات تقريبا، ودانت نتيجة لها أرض شبه الجزيرة كلها بالإسلام - لم يتجاوزوا الألفين والخمسمائة ما بين شهيد وقتيل.

رحمته:

إن الرحمة التي كان يحملها قلب محمد النبي ﷺ لرحمة مثالية، لا تتأتى لغيره من بني الناس، وإذا أردنا أن نذكر بعض مظاهرها؛ تقريراً لها، فماذا عسانا أن نذكر منها بعد أن قال الله تعالى فيه: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة: 128).

ومع هذا فلنشر إلى بعض المظاهر للرحمة المحمدية والتي منها:

1 - رفع إليه ولده إبراهيم ابن مارية القبطية رضي الله عنه، وهو مريض يجود بنفسه، فوضعه بين يديه

(1) يبعث العقبه المذكورتان في البخارى (5/ 69، 70)، وابن هشام (2/ 47-56)، والبداية والنهاية (3/ 147 / 158).

وبكى ﷺ، وقال: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون!»⁽¹⁾.

2 - زار مرة قبر أمه بين مكة والمدينة، وقف عليه وبكى طويلاً، وانصرف وهو يقول: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي ..»⁽²⁾.

3 - ولما فتح رسول الله ﷺ القموص حصن بنى أبي حقيق (من خير) أتى رسول الله ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب وبأخرى، فمر بهما بلال على قتلى يهود، فلما رأتهم الجارية التي مع صفية صاحت، وصكت وجهها، وحثت التراب على رأسها، فلما رأى رسول الله ﷺ بتلك الجارية ما رأى قال: «أنزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بامرأتين على قتلى رجالهما؟»⁽³⁾. ولم تكن رحمته ﷺ قاصرة على بنى الناس فحسب بل تعدتهم إلى الحيوانات، فكان يقول ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر»⁽⁴⁾، ويقول: «عذبت امرأة في هرة أو ثقتها فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت»⁽⁵⁾. وأخبر مقررًا الرحمة وآثارها في أهلها فقال: «بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش؛ إذ رأته بغي من بغايا بنى إسرائيل، فنزعت موقها فسقته، فغفر لها به»⁽⁶⁾.

كرمه:

إن الكرم النفسى الذى كان يتحلى به محمد رسول الله ﷺ لا يأتى عليه الوصف، وكيف يوصف كرم من لم يسأل شيئاً طول حياته وهو فى حوزته وقال: لا قط؟ خرج يوماً وعليه حلة من أجمل اللؤلؤ، فرآه أحد أصحابه، فعزم أن يطلبها ليلبسها فتشمس جلده بعد أن مست جلد الرسول ﷺ، فقال: يا رسول الله، أعطينها. فدخل رسول الله ﷺ بيته، فخلع الحلة وأتاه بها. جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: «يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطى عطاء لا يخشى الفاقة»⁽⁷⁾.

وبايع مرة جابر بن عبد الله فى جمل له كان قد كَلَّ فى السفر، فباعه إياه بكذا مائة درهم، ولما جاء يتقاضاه الثمن أعطاه الثمن والجمل⁽⁸⁾.

(1) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/103).

(2) أخرجه مسلم (3/65).

(3) ذكر هذا ابن كثير عن ابن إسحاق فى البداية والنهاية (4/197). (4) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/75).

(5) متفق عليه واللفظ لمسلم. اللؤلؤ والمرجان (3/73)، مسلم (8/35)، وقوله: «حتى ماتت» فى رواية أخرى لمسلم فى الصفحة المذكورة.

(6) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/75).

(7) رواه مسلم (74/7).

(8) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (2/185).

الله أكبر ماذا يذكر عن كرم محمد ﷺ؟ إنه في هذا الباب كما في غيره المثل الأعلى في الكرم النفسى.

عدله:

إن المثالية في عدل محمد ﷺ تتجلى في مواقف عديدة، نقتصر منها على موقفين لم يفهما غيره ﷺ قط، أولهما: حينما سرقت المخزومية، وجاء أسامة بن زيد مدفوعاً برجالات قريش يشفع لها في إسقاط الحد عنها، فقال له الرسول ﷺ وهو في غضب شديد: «أتشفع في حدٍّ من حدود الله يا أسامة؟ والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»⁽¹⁾، وثانيهما: أن رسول الله ﷺ عدل صفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قدح يعدل به القوم، فمر سواد بن غزية حليف بنى عدى بن النجار وهو مستنزل - أى متقدم - من الصف فطعن في بطنه بالقدح وقال: «استو يا سواد» فقال: يا رسول الله أوجعتنى، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقذنى!! فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال: «استقد..»⁽²⁾.

عفو وحلمه:

إن الاستقصاء للشمال المحمدية غير محتمل أبداً وأحسن من قال:

إنما مثّلوا صفاتك للناس كما مثّل النجوم الماء

ولذا فإننا نكتفى دائماً بنماذج لذلك الكمال المحمدى في كل مظهر من مظاهره. ومن شمائل الحلم والعفو عنده ﷺ نذكر الأمثلة التالية.

1 - صح أنه كان ﷺ في غزاة فأعطى رجاله فرصة للاستراحة فيها، فانتشروا في واد يستريحون تحت ظلال أشجاره، وأتى هو شجرة فعلق سيفه في أحد أغصانها ونام، فجاء أعرابى من المشركين فاخترط السيف وقال للرسول: من يمنعك اليوم منى يا محمد؟ فرفع إليه رسول الله ﷺ رأسه وقال: «الله» فارتاع الرجل، وسقط السيف من يده، فتناوله الرسول ﷺ وقال: «من يمنعك أنت الآن منى؟» فقال الأعرابى: لا أحد، فعفا عنه الرسول وانصرف⁽³⁾.

إنه عفو بعد مقدرة، وهو من العفو الكريم الذى يستحق صاحبه كل إجلال وتقدير.

2 - قسم ﷺ مالا بين الناس فجاءه أعرابى فجذبه من طرف رداءه وقال: هذه قسمة ما أريد بها وجه الله: فغضب رسول الله ﷺ وما زاد أن قال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟»

(1) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (2/ 185، 186).

(2) البداية والنهاية (3/ 271)، وسيرة ابن هشام (2/ 301).

(3) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (2/ 162)، واللفظ المذكور قريب من لفظ البخارى (5/ 146، 147).

رحم الله موسى قد أودى بأكثر من هذا فصبر»⁽¹⁾.

3 - دخل أعرابي مسجده ﷺ، واضطرته الحاجة إلى البول، فانتحى ناحية من المسجد وأخذ يبول، فانتهره أصحاب الرسول ﷺ وصاحوا فيه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «دعوه لا تزرموه»⁽²⁾، فتركوه حتى قضى حاجته من بوله، ثم أمر رسول الله ﷺ بدلو من ماء فصب عليه، فحلم الرسول ﷺ أنطق الأعرابي فقال: اللهم ارحمني ومحمداً، ولا ترحم معنا أحداً، فقال الرسول ﷺ: تحجرت واسعاً»⁽³⁾.

كانت هذه نماذج من المثالية المحمدية، وهي أحد مؤهلات ثلاثة تقدم اثنان منها وبقي الثالث، وهو شرف النسب، وطيب الأصل. فلنلق نظرة على تلك الأرومة الطاهرة، وذلك المحتد الشريف، فنقول: إن من ينظر بإنصاف في النسب النبوي الشريف يجده بحق أشرف نسب وأطيبه، وأزهاه على الإطلاق، إنه لم يعرف التاريخ البشرى نسباً كان أوضح وأنصع، ولا أطيب، ولا أطهر من نسب النبي محمد ﷺ؛ إذ قرش كانت أشرف القبائل العربية بلا منازع ولا مدافع، وبنو هاشم كانوا أشرف قبائل قرش أيضاً بلا منازع، والأنبياء يبعثون دائماً في أشرف أقوامهم هذه كلمة قالها هرقل ملك الروم وعظيمها⁽⁴⁾.

ولنستمع إلى الرسول ﷺ نفسه وهو يقرر هذه الحقيقة فيقول: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قریشاً من كنانة، واصطفى من قریش بنى هاشم، واصطفاني من بنى هاشم»⁽⁵⁾، فكان ﷺ خياراً من خيار من خيار.

وأخيراً فهذه مؤهلات النبوة كلها قد توفرت لمحمد رسول الله ﷺ وبصورة لا أكبر منها، ولا أوضح، فهل يصح في العقول نفى نبوته، أو جحود رسالته؟ اللهم، لا. إلا أن يكون ذلك من جاهل متعصب، أو من مغرض ذي طمع فاسد، يجاهد ويعاند، ومع هذا فسنورد طرفاً من الأدلة العقلية والنقلية ما نؤكد به نبوته ﷺ، ونقرر به وجوب الإيمان به، وبكل ما جاء عن الله من الهدى والخير، وتحتم أتباعه، وأتباع دينه، توخياً للحق، وطلباً للنجاة من العذاب، وفوزاً بالنعيم الآخروي في الملكوت الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء، والصالحين.

(1) متفق عليه بقريب من هذا اللفظ. اللؤلؤ والمرجان (1/ 229، 230).

(2) لا تزرموه: أي لا تقطعوا عليه بوله.

(3) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (1/ 64)، وزيادة «اللهم ارحمني ومحمداً...» إلخ عند أبي داود في أول الحديث مثل مسألة البول. متن (1/ 91).

(4) راجع حديث أبي سفيان في البخاري (1/ 7).

(5) مسلم (7/ 58)، ورواه الترمذي أتم منه (2/ 281).

وجوب الإيمان بنبوّه محمد ﷺ

وأدلة ذلك

إن تلك المؤهلات العقلية والشرعية الدينية، وقد توفرت كاملة للنبي محمد ﷺ لكافية في إيجاب الإيمان بنبوته ورسالته ﷺ، بيد أنه لا مانع من المزيد من ذكر الأدلة والبراهين؛ تأكيداً لنبوته ﷺ، وتقريراً لها؛ حتى تجعل الإيمان بها اضطرارياً لا يمكن دفعه إلا على ضرب من التحمل والمكابرة والعناد والمجاهدة.

ومن تلك الأدلة ما يلي:

(أ) شهادة الكتب السابقة له على نبوته، وتبشير الأنبياء السابقين بها، فقد جاء في إنجيل يوحنا:

1 - إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطلب من (الأب) فيعطيكُم معزياً (فارقليط) آخر ليملك معكم إلى الأبد⁽¹⁾.

فالفارقليط ترجمته: محمد أو أحمد. وبقاؤه معهم إلى الأبد هو بقاء دينه وكتابه وسنته؛ إذ هذه محفوظة بحفظ الله، وباقية ببقاء هذه الحياة وهذا معنى إلى الأبد في قوله: «يبقى معكم إلى الأبد».

2 - لكني أقول لكم الحق، إنه خير لكم أن أنطلق، لأنني إن لم أنطلق لم يأتكم المعزي (الفارقليط) ولكن إن ذهبت أرسلته إليكم⁽²⁾. فالفارقليط هو محمد ﷺ، ولو لم يذهب عيسى ﷺ برفع الله تعالى له لما بعث محمد ﷺ؛ إذ بعثة النبي محمد ﷺ كانت على فترة من الرسل كما قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فِتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (المائدة: 19).

3 - «والفارقليط روح القدس الذي يرسله الأب، باسمي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم بكل ما قلته لكم»⁽³⁾.

فالفارقليط روح القدس هو محمد ﷺ الذي يرسله الله إلى الناس كافة ومن بينهم اليهود والنصارى كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: 170).

(1) الباب الرابع عشر الفقرتان (15-16).

(2) الباب السادس عشر الفقرة (7).

(3) الباب الرابع عشر الفقرة (26).

فجاء في هذه الآية القرآنية لفظ الرسول معروفاً بالألف واللام، وهى وإن دلت على تفخيم الرسول ﷺ وتعظيمه فى كماله فإنها دالة على العهدية، فهى إشارة إلى ما فى الكتابين - التوراة والإنجيل - من البشارة بالرسول محمد ﷺ كما ذكرنا ونذكر، وكما اعترف به الصالحون والمنصفون من علماء الطائفتين - اليهود والنصارى -.

وجاء فى سفر التثنية من التوراة قوله: «جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير، واستعلن من جبال فاران ومعه ألوف الأطهار»⁽¹⁾.

فهذه شهادة صريحة من التوراة واضحة لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته؛ إذ معنى هذا اللفظ: أن الله تعالى ناجى موسى وأوحى إليه بسيناء، وأرسل عيسى وأوحى إليه بساعير وهى من أرض الجبل بالقدس، وبعث محمداً ﷺ رسولاً معلناً كلمة «لا إله إلا الله» مستعلنين بها من مكة الواقعة بين جبال فاران كجبل أبى قبيس وحراء وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها.

ب - شهادة علماء أهل الكتابين:

جاء من سورة الشعراء قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (الشعراء: 197). فقد وبخ الله العرب الكافرين على عدم إيمانهم برسالة محمد ﷺ مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته، وثبوت رسالته، وهى معرفة علماء بنى إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبي الله، وما جاء به هو من عند الله.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٤٦) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿ (البقرة: 146، 147).

فقد أخبر تعالى فى هذه الآية أن الذين أوتوا الكتاب - التوراة والإنجيل - يعرفون نبوة محمد ﷺ وصدقه فيها معرفة مثل معرفتهم لأولادهم، كما أخبر أن فريقاً كبيراً منهم يكتُمون الحق بعد معرفتهم له، ولذا لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ بعد معرفتهم لها تمام المعرفة.

ونكتفى بشهادة عبد الله بن سلام رضي الله عنه عن غيرها من شهادة كثير من علماء اليهود وأخبارهم، روى البخارى فى صحيحه من كتاب الأنبياء عن أنس بن مالك: «أن عبد الله بن سلام بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه فقال: «إني أسألك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال:

ما أول أشراط الساعة؟

(1) الباب الثالث والثلاثين، هذه النصوص الأربعة من التوراة والإنجيل نقلت عن العقيدة الإسلامية وأسسها ثم صححت على التوراة والإنجيل.

وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟

ومن أى شىء ينزع الولد إلى أبيه ؟

فقال رسول الله ﷺ: أخبرنى بهنَّ أنفأ جبريل، قال عبدُ الله بن سلام: ذاك عدوُ اليهود من الملائكة، فقال رسولُ الله ﷺ: «أما أولُ أشراف الساعة: فنارٌ تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أولُ طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه فى الولد: فإن الرجل إذا غشى المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها. قال عبد الله بن سلام: أشهد أنك رسول الله، ثم قال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامى قبل أن تسألهم بهتوني عندك. فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت، فقال الرسول ﷺ: أى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا: أعاده الله من ذلك. فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا: أشرنا وابن أشرنا ووقعوا فيه !!» (1).

وبعد: فإن شهادة عبد الله بن سلام هذه تُعد من أكبر الشهادات بعد شهادة الله ورسوله ﷺ لمحمد بالنبوة والرسالة، ولذا لم نذكر بعدها من شهادات علماء اليهود شهادة غيرها.

أما علماء النصارى فإن لهم من الشهادات برسالة محمد ونبوته ما لا يسعه المقام، فلذا إنا نكتفى من كل ذلك بشهادة عظيمة أقرها القرآن، وسجلها فى صفحاته، ألا وهى شهادة الملك الصالح أصحمة النجاشى ؛ إذ جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيْنَ وَرِهْبَانًا وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: 82، 85).

فقد أجمع علماء التفسير والأخبار والسير على أن هذه الآيات نزلت فى النجاشى وأصحابه المؤمنين، فقولهم: ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾. قولهم هذا يعد شهادة عظيمة بالإسلام، ونبیه، وكتابه، وأمته، ولنستمع إلى شهادة النجاشى رحمه الله تعالى من خلال رده على كتاب رسول الله ﷺ الذى ورده وهو فى دار ملكه، وحاضرة بلاده، إذ جاء فيه:

(١) البخارى (4/160).

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر

«سلام عليك يا نبي الله من الله ورحمة الله وبركاته. لا إله إلا الله هو الذي هداني إلى الإسلام، فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فو رب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقرّبنا ابن عمك (جعفر) وأصحابه، فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصداً، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وأسلمت على يديه لله رب العالمين. وبعثت إليك يا نبي الله بأريحا بن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي. وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله» (1).

جـ - شهادة بالايين من المسلمين:

إن إيمان بالايين البلايين من المسلمين الذين شهدوا لمحمد ﷺ بنبوته ورسالته وآمنوا به حق الإيمان، واتبعوا ما جاء به من الحق والهدى، وجاهدوا دونه، وبينهم العلماء والحكماء، والصلحاء الصادقون الذين يفوق عددهم الحصر، ويتعذر الإحاطة بهم علماً - لهو من أعظم الشهادات، وأقواها، وأكثرها إقناعاً للعقول، وجلباً للطمأنينة والسكون في نفوس المؤمنين بنبوته محمد ورسالته ﷺ.

د - شهادة الحق عز وجل وملائكته:

إن شهادة الله عز وجل وشهادة ملائكته للنبي محمد ﷺ بالنبوة والرسالة لشهادة مغنية عن كل شهادة. قال تعالى: ﴿لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً﴾ (النساء: 166).

ولولا كزازة النفوس، ورعوناتها (2)، وظلمات الجهل بالله تعالى التي تغشى كثيراً من قلوب الناس لما ذكرنا مع شهادة الله تعالى لمحمد ﷺ بالرسالة شاهداً أبداً، ولكن نظراً لما ذكرنا أوردنا تلك الشهادات السابقة وقفينا عليها بشهادة الله تعالى التي لا يردّها عاقل أبداً.

وشهادة الله تعالى تنقسم إلى قسمين: شهادة إخبار، وشهادة معجزات. فشهادة الإخبار هي: إخباره تعالى في كتابه عن وحيه واصطفائه لرسوله وإرساله، ونصرته إياه، وشهادة المعجزات هي: ما أظهره الله تعالى على يد نبيه من خوارق العادات؛ إذ كل خارقة تقول بلسان حالها عن

(1) البداية والنهاية (84/3)، وجاء في أبي داود أن النجاشي قال: أشهد أنه رسول الله ﷺ، وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم (2/189).

(2) الكزازة: القبح والانتقاض، والرعونة: الحمق.

الله تعالى: صدق محمد عبدي ورسولي فيما أخبر عني من أني أرسلته وهو رسولي.

ومن شهادة الإخبار ما يلي:

- قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ (الفتح: 29).
- قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: 158).
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (البقرة: 119).
- قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (النساء: 163).
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ (٤٥) ودَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ (الأحزاب: 45، 46).

- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ (المائدة: 67).
- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (النساء: 170).

ومن شهادة المعجزات ما يلي:

1 - نزول القرآن الكريم عليه وحياً أوحاه الله تعالى إليه، فإنه أكبر معجزة عرفها الوجود البشري؛ إذ العادة قاضية بأن أمياً لم يقرأ ولم يكتب ولم يجلس بين يدي أستاذ أو مرب أو معلم قط، قاضية باستحالة تكلمه بالعلوم والمعارف ومعرفته لها وتفوقه فيها، فضلاً عن أن يأتي بما لم يأت به غيره من كل معاصريه ومن يأتي بعدهم إلى انقراض الحياة ونهاية الكون.

فالقرآن الكريم وقد حوى أعظم تشريع، واشتمل على قدر من العلوم الإلهية، وعلى أثبت الحقائق العلمية كنظام الزوجية⁽¹⁾ والقوانين الكونية⁽²⁾، كما تعرض لبدء الخليقة، وذكر من قصص الماضين وأخبار السابقين الشيء العجيب، وأخبر بمغيبات عديدة فكانت كما أخبر حرفياً بلا زيادة أو نقصان⁽³⁾ هذا الكتاب يأتي به أمي يتحدى كل الخلق على الإتيان بمثله، أو بعشر

(1) يشير إلى هذا القانون قوله تعالى من سورة يس: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الآية: 36).

(2) كعملية إنزال المطر المشار إليها بقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَيُرِي الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ (الروم: 48).

(3) كالأخبار بنهاية حرب الروم مع فارس، وغلب الأولى للأخيرة بعد أن كانت قد غلبت وانهزمت، وذلك في قوله تعالى من سورة الروم: ﴿الَّتِي غَلَبَتِ الرُّومَ﴾ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الآيات: 1-3).

سور من مثل سوره، أو سورة واحدة⁽¹⁾؛ فتعجز البشرية ومعها الجن كلهم، وتطأطئ رأسها وتسكت عن المعارضة لأكبر معجزة أوتيتها محمد ﷺ لتدل على صدق نبوته، وثبت رسالته، عرف هذا فداه أبى وأمى حين قال: «ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطى من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيت وحياً أوحى إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»⁽²⁾.

وهذه صورة التحدى قائمة إلى يوم القيامة تحويها آية واحدة هي قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ (٢٣) فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴿(البقرة: 23، 24).

فقوله تعالى: ﴿ولن تفعلوا﴾ أى الإتيان بسورة قرآنية من أمى مثل محمد ﷺ فى أميته، هذا التحدى وهو نفى الإتيان بسورة من أمى مثل محمد فى أميته ما زال قائماً، وقد مضى عليه الآن قرابة الألف والأربعمئة سنة، ولا يؤمل أبداً أن يأتى أحد فيبطله بأن يأتى بسورة قرآنية من رجل أمى لم يقرأ ولم يكتب قط، هيهات هيهات أن يأتى أحد بمثل هذا القرآن والله يقول: ﴿ولن تفعلوا﴾.

2 - فيضان الماء من بين أصابعه بالحديبية حتى سقى وروى جيشاً كاملاً قوامه ألف وأربعمائة رجل وامرأة⁽³⁾.

3 - تكثير الطعام يوم الخندق حتى أطعم بصاع من شعير وجدى صغير جيشاً كاملاً تعداده ألف رجل أو يزيدون⁽⁴⁾.

4 - حنين الجذع إليه ﷺ ونطقه وسماع مئات الرجال الأخيار له، وعدم سكوته إلى أن أتاه الرسول وهدده كما تهدد الأم طفلها فسكت⁽⁵⁾.

5 - رده ﷺ عين قتادة حيث خرجت حتى تدلت على وجنته بسبب ضربة أصابته يوم أحد فردها ﷺ، ومسح عليها فكانت أحسن منها قبل إصابتها⁽⁶⁾.

(1) يقول الله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ (الإسراء: 88)، ويقول: ﴿قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات﴾ (هود: 13). ويقول عز وجل: ﴿قل فاتوا بسورة مثله﴾ (يونس: 38).

(2) متفق عليه واللفظ لمسلم. اللؤلؤ والمرجان (30/1)، ومسلم (92/1)، والبخارى (224/6).

(3) رواه البخارى (234/4، 156/5، 157).

(4) متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/20، 21). وكان هذا فى غزوة الخندق.

(5) رواه البخارى بمعناه (2/11).

(6) سيرة ابن هشام (3/33).

6 - تسبيح الطعام بين يديه ﷺ وأصحابه يسمعون، وهم عدد كبير من خيار البشر (1).

7 - انشقاق القمر له ﷺ (2) حين طلبت قريش ذلك استدلالاً على نبوته ﷺ فانشق القمر فكان فلقتين على جبل أبي قبيس وأهل مكة كلهم يشاهدون، ويعجبون، أثبتت هذه الحادثة في القرآن بقول الله تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (القمر: 1).

8 - تسليم الشجر والحجر عليه على مرأى من الناس ومسمع، عشرات المرات (3).

9 - الإسراء به ﷺ، والعروج من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ثم إلى السماء السابعة حيث سدرة المنتهى عند جنة المأوى، فبلغ مستوى سَمِعَ فيه صريف الأقلام، وناداه ربه، وفرض عليه وعلى أمته الصلوات الخمس (4)، كل هذه المعجزات وغيرها كثير قد ثبت بما هو أشبه بالمتواتر من الأخبار.

10 - إخباره بالمغيبات الكثيرة (5) فكانت كما أخبر. ونذكر منها على سبيل المثال خبراً واحداً من أعجب الأخبار، وهو قوله في رواية أحمد بسند صحيح: «سيكون في آخر أمتي رجال يركبون على السروج كأشباه الرحال، ينزلون بها على أبواب المساجد، نساؤهم كاسيات عاريات على رؤوسهن البخت العجاف، العنوهن فإنهن ملعونات» (6).

(1) رواه البخارى (235 / 4).

(2) حديث الانشقاق ثابت في الصحيحين. اللؤلؤ والمرجان (280 / 3).

(3) حديث تسليم الحجر عليه ﷺ بمكة وإخباره بهذا ثابت في مسلم (58 / 7)، وتسليم الأحجار والأشجار عليه ﷺ وسماع على رضى الله عنه هذا في الترمذى في المناقب برقم (3630)، من كتاب المناقب، باب (6، 3).

(4) راجع تعليقات الصفحات السابقة من الكتاب تجد آيات وأحاديث الإسراء والمعراج.

(5) من ذلك قوله في الحسن بن على رضى الله عنه فيما أخرجه البخارى (32 / 5): «إن ابني هذا سيد ولعل

الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين» من المسلمين» فكان كما أخبر، وقوله في عمار بن ياسر وهو يحمل

اللبن لبناء المسجد: «تقتلك الفئة الباغية» فكان كما أخبر كذلك، فقد قتل عمار في حرب على ومعاوية

قتله جيش الشام، والحديث ثابت في مسلم (186 / 8).

(6) رواه أحمد، والطبراني في الثلاثة، ورجال أحمد رجال صحيح، هكذا قال الساعاتي في شرحه على الفتح

الرباني (17 / 301، 302).

فما هذه المركوبات يا ترى التى أخبر أنها سيركبها رجال من أمته ؟ إنها كسرج الفرس، وليست بفرس وإنما لتشبه رحل البعير ولكن ليست على البعير، إنها قطعاً السيارة بنت القرن التاسع عشر الميلادى، فهل كانت البشرية تحلم يومئذ بالسيارة التى تقطع مئات الأميال فى بضع ساعات حاملة الركاب وأمتعتهم ؟ والجواب: لا. ولكن الوحي المحمدى أخبر بقدر ما يمكن أن يفهمه السامعون يومئذ، وانتظر المؤمنون حتى يتم هذا الخبر، وتمضى الأجيال جيلاً بعد جيل إلى القرن الثالث عشر الهجرى حيث ظهر ما أخبر به ﷺ، وركب الناس على السروج كأشباه الرحال، ونزلوا بها على أبواب المساجد .. ثم هل عرفت الدنيا يوم أخبر الرسول ﷺ عن (المنى جيب) ؟ وهل يعقل أن امرأة مؤمنة تمشى فى الشوارع بين المسلمين وهى كاشفة عن فخذيها وكل جسمها ما عدا بطنها وظهرها إلى ركبتيها؟ وهل عرفت النساء وكل النساء كفكفة الشعر على الرأس حتى يكون كذروة البعير الهزيل فى غير القرن العشرين ؟ وهل يعقل أن امرأة مسلمة تفعل بشعرها هكذا، وتخرج بارزة فى الشوارع والطرقات ؟ والجواب: لا. ولكن ما أخبر به محمد الرسول ﷺ قد تحقق وهو من الغيب البعيد فى أعماق المجهول، فكان ذلك آية أن محمداً رسول الله ﷺ اللهم صلى على محمد وآله وصحبه والمؤمنين به، الناهجين نهجه، المستقيمين على صراطك المستقيم إلى يوم الدين.



ختم النبوات

والكلمة الأخيرة في مبحث الإيمان بالرسول عليهم السلام نتناول فيها أمرين هامين:

أولهما: ختم سائر النبوات.

وثانيهما: النبي الخاتم.

أما عن الأمر الأول فنقول: إن الله تعالى قد ختم سائر النبوات بآخر نبوة، وهي نبوة محمد رسول الله ﷺ، فلم يبق من مطمع لأحد في أن يدعى النبوة، أو يؤتاها بعد نبوة محمد النبي الأمي أبداً، ومن جهل هذه الحقيقة، أو تجاهلها تضليلاً وخداعاً وادعى النبوة فقد كذب على الله، وأعظم الفرية عليه، وكذبه في قوله، وكذب على خلقه، ولم يلبث طويلاً حتى يفتضح شر فضيحة ويُلعن بين الناس كما حصل لعدد من الدجالين الكذابين مثل مسيلمة الكذاب في الأولين، وأحمد مرزا غلام⁽¹⁾ في الآخرين عليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر بختم النبوات بنبوة محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: 40).

وبهذا كان الإيمان بمحمد ورسالته والعمل بها ضرورياً للنجاة من عذاب يوم القيامة، وللغفور بالنعيم المقيم فيه، وأيما عبد لا يؤمن بهذه الرسالة ولا يعمل بمحتواها في حدود طاقته وما يستطيع إلا وهو من أهل الخسران يوم القيامة، ولا ينفعه إيمان بالله ولا بأنبيائه، وذلك لعدم عمله برسالة محمد الختامية، التي جعلها الله تعالى مزكية للنفوس، مطيبة للأرواح، فلا تركو نفس امرئ إلا على الإيمان بها والعمل بما جاء فيها، وزكاة النفس هي المؤهل للفرد لأن ينجو من النار ويفوز بالجنة دار الأبرار، وذلك لقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس: 9-10). وعن الأمر الثاني نقول: إن خاتم الأنبياء قطعاً هو النبي محمد ﷺ، لقول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: 40).

وإن الواجب على كل إنسان في هذا الوجود البشري أن يؤمن به ويتبع ما جاء به من الحق والهدى، وذلك لأمر الله تعالى بالإيمان به واتباع ما جاء به في مثل قوله: ﴿قَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ (التغابن: 8).

ولتخصيص الرب تبارك وتعالى رحمته وهي الفوز بالجنة بعد النجاة من النار بمن آمن به واتبعه فيما جاء به ﷺ قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ

(1) غلام أحمد بن غلام مرتضى القادياني هو صاحب القاديانية الباطلة الكافرة.

الرَّكَاءَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿ (الأعراف: 156، 157).

ولتعليق الله تعالى هداية الإنسان إلى الكمال البشري، وحصوله على مؤهلات الفرد للسعادة في الدنيا والآخرة على الإيمان به واتباعه إذ قال تعالى: ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: 158).

وأخيراً فإن من الأدلة السمعية على ختم النبوة، وأن محمداً هو خاتم الأنبياء حديث الصحيحين الذي فيه يقول الرسول الخاتم ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين». (1)

ومثل هذا الحديث في الدلالة على ختم النبوة بنبوته محمد ﷺ وأنه الخاتم للأنبياء قبله - قوله فداه أبي وأمي في رواية الصحيحين: «إنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدى». (2)

وقوله: «إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعده أحد». (3)

ومن أقوى الأدلة وأعظم البراهين على ختم نبوة محمد ﷺ سائر النبوات أن يمضي الآن ما يقرب من ألف وأربعمائة سنة على الإعلان بختم النبوات بنبوته ﷺ. ولم تأت نبوة حق، ولا نبي صدق، في كل هذه الحقبة من الزمن الطويلة، في حين أنه كان قبل نبوة محمد ﷺ تظهر النبوات في كل عصر ومصر، وقد يوجد العدد من الأنبياء في الأمة الواحدة، والبلد الواحد (4)، كما هو معلوم من التاريخ البشري وفي جانبه الديني بالخصوص.

(1) اللؤلؤ والمرجان (3/ 94).

(2) رواه أحمد والترمذي وأبو داود واللفظ له (2/ 414)، وهو متفق عليه. اللؤلؤ والمرجان (3/ 309)، ورواه البخاري بلفظ: «ولا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريباً من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله» (4/ 243)، وكذا مسلم (8/ 189).

(3) متفق عليه واللفظ لمسلم، وفي رواية لمسلم: «وأنا العاقب، والعاقب الذي ليس بعده نبي» (7/ 89)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 110)، والبخاري (4/ 225).

(4) كما وجد داود وسليمان في عصر واحد، وكما وجد زكريا ويحيى وعيسى في بلد واحد وأمة واحدة. والأمثلة كثيرة وما هناك حاجة إليها.

الركن الخامس من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان باليوم الآخر

تعريف:

ما المراد باليوم الآخر؟

إن المراد من اليوم الآخر أمران: الأول: فناء هذه العوالم كلها وانتهاء هذه الحياة بكاملها، والثاني: إقبال الحياة الآخرة وابتدائها. فدل لفظ اليوم الآخر على آخر يوم من أيام هذه الحياة وعلى اليوم الأول والأخير من الحياة الثانية؛ إذ هو يوم واحد لا ثاني له فيها البتة، فالإيمان باليوم الآخر مقتض للتصديق بأخبار الله تعالى بفناء هذه الحياة الدنيا، وبما يسبقه من أمارات وما يتم فيه من أحوال واختلاف أحوال، كما هو مقتض كذلك لتصديق الله تعالى في إخباره عن الحياة الآخرة، وما فيها من نعيم وعذاب، وما يجرى فيها من أمور عظام، كبعث الخلائق، وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم على أعمالهم الإرادية الاختيارية التي قاموا بها في هذه الحياة الدنيا.

إمكان الفناء:

هل الفناء ممكن؟

والجواب: نعم. الفناء ممكن؛ لأن العالم ليس أزلياً أبداً، وما لم يكن أزلياً فهو حادث، وما كان حادثاً فالفناء من صفاته اللازمة له، والتي لا تنفك عنه بحال، وطروء الفناء على الحوادث مُشاهد في هذه الحياة لا يحتاج إلى دليل. إنه قد ثبت بالبراهين العقلية والمادية معاً حدوث العالم، إن التغير الجارى والمستمر على العوالم دالٌّ على حدوثها، وإن حدوثها دالٌّ على فنائها، كما إن قانون الطاقة المتاحة - وهي نظرية علمية في غاية الصحة - قد أثبت حدوث العالم، وبالتالي قد أثبت وجود الله تعالى الأزلى الموجد لكل موجود، وكما أثبت حدوث العالم أثبت إمكان فنائه أيضاً؛ إذ حقيقة هذا القانون العلمى الهائل هي أن الحرارة تنتقل دائماً من وجود حرارى إلى آخر غير حرارى، واستمرار هذه العملية سيترتب عليها أن تتساوى حرارة جميع الموجودات، وحينئذ لا تبقى أية طاقة مفيدة للحياة والعمل؛ فتنتهى العمليات الكيماوية الطبيعية، وعندها تنتهى الحياة تلقائياً، وبهذا بطلت أزلية العالم أى قدمه اللابندى؛ إذ لو كان أزلياً لفقد طاقته منذ زمان بعيد وانتهت بذلك الحياة.

وثبت أيضاً إمكان فنائه اللازم له، والذي هو فى طريقه إليه، لأن عملية انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى خلافها مستمرة، ولا بد أن يأتى عليها يوم تتساوى فيه حرارة جميع الأجسام، وعندها تتوقف العمليات الكيماوية الطبيعية، وتنتهى الحياة، ويعم الفناء هذا الكون كله.

ودليل آخر: أن العالم كلُّه أجزاء، ونحن نشاهد الفناء يجرى فى أجزاءه باستمرار. فالإنسان كالحىوان كالنبات كلها تفنى أمامنا، وتحت سمعنا وبصرنا وتفقد وجودها باستمرار ودون انقطاع، وهى قطعاً أجزاء من هذا العالم، كما أننا نرى الزلزال من الفينة إلى الفينة يدمر مدناً وقرى كبيرة، ويغير معالم الأرض فى كثير من البلاد فى العالم، فظاهرة الفناء هذه لأجزاء العالم دالة على فناء العالم كله؛ إذ ما أمكن الفناء فى أجزاءه أمكن فناء كله.

وبناء على هذا فالיום الآخر ممكن الوقوع وهو مرتقب جداً ومنتظر أنباءه، وهو اليوم الذى لا يأتى بعده يوم من أيام هذه الحياة، وذلك لخراب العالم وفناؤه.

إمكان المعاد:

هل المعاد ممكن؟

ولم لا يكون ممكناً وإثباته لا يوجب أى تناقض عقلى أبداً، وكل ما لا يوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً فهو من قبيل الجائز الإمكان.

وهل تصور وقوع الحياة بعد فنائها كما كانت وأفضل مما كانت يوجب تناقضاً عقلياً؟ وإذا كان الجواب: لا، أبداً. فالمعاد إذاً وهو بعث الخلائق أحياء بعد فنائهم الذى طرأ على حياتهم الأولى ممكن وجائز.

وشىء آخر وهو إذا كان المعاد غير مستحيل ولا واجب؛ إذ المستحيل ما أوجب تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وقوع الشىء موجوداً غير موجود، والواجب ما أوجب عدم تصور وقوعه تناقضاً عقلياً كتصور وجود مصنوع بدون صانع، أو مخلوق بدون خالق، أو معلول بدون علته، فهو - أى المعاد - إذاً ممكن جائز، وهكذا ثبت بالقياس العقلى، والبرهان المنطقى إمكان البعث وجواز وقوعه.

أدلة البعث (1)

لقد سلك القرآن الكريم فى إثبات المعاد والحياة الثانية مسالك عقلية هى غاية فى الوضوح والسهولة منها:

• أن الشىء إذا لم يكن ثم كان وأعدم كانت إعادته أيسر وأهون على من بدأه أول مرة ثم أعدمه وأفناه. فالذى بنى داراً، ثم هدمها لا يستحيل عليه ولا فى حقه إعادة بنائها كما كانت أو خيراً مما كانت.

(1) البعث والمعاد واليوم الآخر ألفاظ مختلفة ومدلولها واحد، وهو وجود حياة ثانية بعد فناء الأولى.

والذى يصنع آلة من الآلات مخترعاً لها لا يستصعب عليه أن يعيدها كما كانت إذا هو كسرها بإرادته واختياره ؛ ليحولها إلى آلة أفضل منها قبل، ورد هذا المسلك من الاستدلال فى قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الروم: 27). وقوله تعالى: ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ (يس: 79). وقوله: ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (يس: 78).

● الاستدلال بنوم الإنسان والحيوان واستيقاظهما، فالنوم يعتبر موتاً مصغراً، والاستيقاظ يعتبر حياة مصغرة أيضاً، فكما تتم عملية النوم للإنسان والحيوان، وعملية الاستيقاظ لهما تتم عملية الموت والحياة الكاملة لهما. جاء هذا الاستدلال فى قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الأنعام: 60).

● الاستدلال بالأرض الميتة بسبب المحل، والجدب، والقحط حيث تنعدم فيها الحياة تماماً، ثم ينزل بها الغيث، أو تسقى بالماء فتعود إليها كما كانت وخيراً مما كانت نماء وازدهاراً. قال تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (فصلت: 39). وقوله تعالى: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحج: 5، 6).

● الاستدلال بالقدرة الكافية التى بها خلق آدم من تراب، وذريته من نطفة على إمكان المعاد والبعث وتقرير وقوعهما، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ وَنَقْرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِّتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّنْ يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ (الحج: 5).

● الاستدلال بالقدرة على خلق العوالم على إمكان إعادة حياة الناس بعد موتهم، وفناء أجسامهم، قال تعالى: ﴿ لَخَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (غافر: 57). وقال عز وجل: ﴿ أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمَ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا (٢٨) وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا (٢٩) وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا (٣٠) أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا (٣١) وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا (٣٢) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾ (النازعات: 27 - 33). وقال تعالى - رداً على من قال: ﴿ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ

الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿ (يس: 78-81).

● الاستدلال باختلاف سلوك الناس في هذه الحياة بالخير والشر والصالح والفساد على وجود حياة أخرى يُجزى فيها كل عامل بما عمل من خير وشر؛ لعدم استكمال المجازاة في هذه الحياة، قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: 185). وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيُجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ (يونس: 4). وقال تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (١) (٤) فَأَمَّا مَن أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ (٦) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (٧) وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ (الليل: 4-11).

● الاستدلال بالتكاليف الشرعية على وجود حياة أخرى يتم فيها الجزاء على القيام بتلك التكاليف، وعلى تركها وإهمالها؛ إذ لم يتوفر جزاء كاف في هذه الحياة الدنيا على تلك التكاليف قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الملك: 1، 2). وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا (2) وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (المؤمنون: 115). وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (3)﴾ (القيامة: 36).

أدلة أخرى:

1 - شعور كل أفراد البشر في جميع العصور والدهور - وسواء منهم المتحضرون، أو المتبدون - شعور الجميع بوجود حياة ثانية يلقي فيها الإنسان جزاء عمله الذي قام به في هذه الحياة الدنيا من خير أو شر وصالح وفساد، هذا الشعور العام دال على وجود المعاد والحياة الثانية؛ إذ لا يمكن أن يعم هذا الشعور كل أفراد البشر ولا يكون له حقيقة في نفس الأمر، ولا صورة له في الخارج، وهو شعور كشعور الإنسان بالحاجة إلى الطعام والشراب الذي دل بوجوده وعمومه على وجود غذاء للإنسان لجوعه وماء لعطشه.

(1) شتى: متنوع ومختلف.

(2) عبثاً: أى لا تأمركم ولا تنهاكم، إذ فعل الأمر وترك المنهى هو العبادة التي خلق الإنسان من أجلها.

(3) سدى: أى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى ولا يبعث ليحاسب ويجزي.

2 - ما تأكد لدى الناس اليوم من مناجاة الأرواح. ومخاطبتها ورؤيتها - دال على أن وراء هذه الحياة المادية حياة أخرى روحية وجثمانية⁽¹⁾.

3 - رؤى الناس المتعددة التي واكبت الحياة الإنسانية ولم يخل منها زمان ولا مكان، هذه الرؤى لأموات الناس فى المنام، والحديث معهم، ومعرفة أحوالهم وسؤالهم، وإخبار الأموات من رآهم فى منامه بأموار غيبية فتكون طبق ما أخبروا به دلالة قطعية على الحياة الثانية.

آخر الأدلة:

وآخر الأدلة وأعظمها على البعث، والجزاء، والحياة الآخرة أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ إن من آمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله لا يجد داعياً للشك، ولا مثاراً للجدل والنزاع فى ثبوت المعاد، وكل ما يتم فيه من حساب وجزاء؛ إذ أخبار الله تعالى كلها صدق وحق، فقد أخبر تعالى بالآلاف الأخبار فلم تكن إلا وفق ما أخبر، كما أخبر رسوله بالآلاف الأخبار فلم يتخلف منها خبر واحد عن مدلوله، فكيف يُعقل إذاً أن يخبر الله تعالى ويخبر رسوله بمئات الأخبار عن ثبوت الحياة الثانية، وعن كل ما يجرى فيها من بعث، وحساب، وجزاء، ثم لا يصح شيء من ذلك ولا يثبت؟ اللهم إن هذا باطل لا يصح، ومحال لا يقبل ولا يعقل.

إن حتمية الفناء ووجود معاد كامل، وحياة أفضل تحوى نعيماً للمحسنين الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وجحيماً للمسيئين الذين أشركوا وعملوا السيئات مما أخبر الله تعالى به، وقرره فى كل كتبه، وعلى ألسنة جميع رسله فالشك فيه ضرب من المرض العقلى والهبوط الشخصى، والعياذ بالله تعالى من ذلك.

الحكمة من المعاد:

إن الحكمة من المعاد الأخرى الذى هو بعث الخلائق أحياء بعد موتهم وفنائهم، أحياء كما كانوا يوم بدأ الله تعالى خلقهم، هو مجازاة المكلفين منهم بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى الذى كسبوه فى هذه الدنيا؛ لأن الدنيا دار عمل، والآخرة دار جزاء قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنْ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: 185).

فالناس يعيشون فى هذه الحياة الدنيا متفاوتين تفاوتاً كبيراً فى أرزاقهم، وأجالهم،

(1) أصحاب هذه الفكرة يعتقدون أنهم يناجون أرواح البشر، والحق أنها أرواح لبعض الجن والشياطين، وليست أرواح من مات من البشر، وذكرنا هذا لما فيه من إثبات عالم الغيب وحياة روحية تخالف هذه الحياة المادية.

وأعمالهم، وفي سعادتهم، وشقائهم، فمنهم الظالم الغشوم، ومنهم المظلوم المهضوم، ومنهم الصحيح السليم، ومنهم المريض السقيم، ومنهم الغنى الثرى، ومنهم الفقر الشقى، ومنهم العزيز، ومنهم الذليل، ومنهم المحسن، ومنهم المسىء، إلى غير هذا من التفاوت والاختلاف، فلو أنهم يموتون بانقضاء آجالهم ولا يبعثون لكان ذلك منافياً للحكمة، مجاناً للعدل والرحمة، ومن هنا قضى الله تبارك وتعالى بالبعث والجزاء، وحكم بهما، فهما كائنان لا محالة، فقد أمر رسوله محمداً ﷺ أن يقسم عليهما في قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعْتَرَأَ قُلُوبُهُمْ وَلَهُمْ آيَاتُ الْآخِرَةِ وَلَهُمْ آيَاتُ الْآخِرَةِ وَلَهُمْ آيَاتُ الْآخِرَةِ﴾ (التغابن: 7). وقال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل: 38-40).

وجوب الإيمان باليوم الآخر

إن الإيمان باليوم الآخر هو عبارة عن التصديق الجازم بانقلاب هائل يتم في الكون، ويكون انتهاء هذه الحياة الدنيا بكاملها، وابتداء حياة أخرى، وهى الدار الآخرة بكل ما فيها من حقائق مذهشة، من بعث الخلائق وحشرهم، وحسابهم، ومجازاتهم.

هذا الإيمان ليس واجباً فحسب بل هو أحد أركان ستة عليها تبنى عقيدة المؤمن، فلا تتم إذا عقيدته إلا به، ولا تصح إلا عليه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (البقرة: 177).

ولأهمية هذا المعتقد فى حياة المؤمن، ولآثاره الكبرى فى استقامة الفرد وصلاحه عني القرآن الكريم به عناية لا تقل عن العناية بالإيمان بالله سبحانه وتعالى، فقد ذكره فى عشرات السور منه، وفى مئات الآيات: مرة بوصفه والحديث عنه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةَ (١٧) يَوْمَئِذٍ تَعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَأُوا كِتَابِيهِ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهِ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتِ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩)

خَذُوهُ فَعْلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسَلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿ (الحاقة: 13-37).

ومرة تقريره وتأكيد مجيئه، كقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ (الحج: 6، 7) وقوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِبَلَاءٍ وَلَئِنْ رَجَعُوا إِلَى اللَّهِ لَجِدُوا عَذَابَهُمْ خَيْرًا مِنْ الَّذِي كَانُوا يُعَذِّبُهُمْ ﴾ (التغابن: 7).

ومرة بتعليق الاستقامة على الإيمان به، كقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَمُ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (الطلاق: 2). وقوله: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ (الأحزاب: 21).

ومرة بإثبات الهداية والفلاح للموقنين به، وذلك كقوله تعالى: ﴿ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٤) أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (البقرة: 4، 5).

ومما يؤكد أهمية هذا المعتقد، ويجعله كالصمام لحياة الاستقامة والطهر، والخير هو ذكره مقرّوناً بالإيمان بالله تعالى، وذلك كقوله تعالى من سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (البقرة: 62). وكقوله تعالى: ﴿ ذَلِكَمُ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (الطلاق: 2). وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النساء: 38). وقوله: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (النور: 2). في عدة آيات من كتاب الله تعالى.

فدلت هذه العناية القرآنية بهذين الركنين من أركان الإيمان على أنهما قوام حياة الروح، وعليهما مدار استقامة المرء في هذه الحياة، وأن الإيمان بدونهما ليس شيئاً، وأن من عدمهما قد عدم كل خير، وأن من افتقدتهما فقد افتقد كل عناصر الخير والفضيلة في نفسه وأصبح من شر البرية.

وبالجملة فإن معتقد الإيمان بالله واليوم الآخر هو رأس كل عقيدة، وأساس كل إيمان، وعليه مدار استقامة الإنسان، وصلاح خلقه، وطهارة روحه، وبدونه فالإنسان مخلوق لا خير فيه لا لنفسه، ولا لغيره، وهو شر كله، لا يؤمن جانباً، ولا يُطمأن إليه، ولا تسكن النفوس عنده، وذلك لما انعدم عنده، من أصول الخير ونباتات الفضيلة والكمال البشري.

ظواهر الانقلاب الكوني

أو أشرار الساعة

إن لكل كائن حي كالإنسان والحيوان، أو نام كالأشجار والنباتات علامات تظهر له عند دنو أجله، وقرب ساعة هلاكه.

فالإنسان يشيب ويهرم، ويمرض ويضعف، ويكون ذلك علامة دنو أجله، وقرب ساعة موته، والحيوان في غالب أحواله كالإنسان يعتريه الهرم والضعف، ويتتابه المرض؛ فتخور قواه، وتنحل بنيته ويهلك، والنبات كالزراع مثلاً يصفر ويبس، ثم يدوى، ويسقط ويبود.

هذه أجزاء من الكون يسبق هلاكها وفناءها علامات، تؤذن بقرب ذلك، والكون وهو كل له (حتماً) علامات تدل على قرب فناءه، ووقت دماره وخرابه، قد جاء الوحي الإلهي بذكر تلك العلامات وبيانها، ونبّهت الرسل عليها، ولفتت النظر إليها؛ تحذيراً وتعليماً، ففي القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ (محمد: 18).

• ومن أشرارها التي جاء الوحي بذكرها: بعثة النبي محمد ﷺ، وانشقاق القمر آية له عليه الصلاة والسلام، أما بعثته ﷺ: فقد كانت شرطاً من أشرار الساعة؛ لأن نبوته ختم الله تعالى بها سائر النبوات، فلا نبي بعده، وهذا إيذان بقرب نهاية الحياة حيث لم تتطلب الفترة المتبقية من عمر الحياة لقصر زمنها، لم تتطلب تحديد التشريع ببعثة أنبياء آخرين؛ ولذا قال الرسول ﷺ في الصحيحين: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وأشار إلى أصبعيه السبابة والوسطى وقرن بينهما (1).

• وأما انشقاق القمر: فقد كان شرطاً من أشرار الساعة؛ لأن الله تعالى ذكره مقروناً بالإخبار باقتراب الساعة، فقال تعالى: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (٢) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ (القمر: 1-3).

وقد انشق القمر فعلاً على عهد النبي ﷺ، حيث طلبت منه قريش تدل على نبوته فدعا الله، فانشق القمر فلقطين على جبل أبي قبيس على مرأى من أهل مكة، وهم ينظرون إليه (2). ونزيد هذه الحقيقة توضيحاً فنقول: إن الله تعالى ما زال يبعث بالأنبياء ويرسل بالرسول الهداية

(1) متفق عليه بمعناه. اللؤلؤ والمرجان (3/ 314)، البخارى (6/ 206)، ومسلم (8/ 208، 209).

(2) جاء هذا في حديث متفق عليه كما تقدم. اللؤلؤ والمرجان (3/ 208)، والبخارى (4/ 251)، ومسلم (8/ 132، 153).

الناس، وإصلاحهم، وإعدادهم للكمال الذي خلقوا له في الدنيا والآخرة حتى ختم الرسالات برسالة نبيه محمد ﷺ، وأتم الشرائع بشريعته، وجعله خاتم الأنبياء، وأخبر أنه لا نبي بعده، فدل ذلك على أن الوقت الباقي من عمر هذه الدنيا قصير، وأن الرسالة الأخيرة تُتممها إصلاحاً وهداية، فلا يحتاج معها البشر إلى وحى جديد، وإلى رسالة ناسخة أو مجددة للشرائع والأحكام، كما كانت الحال قبل هذه الرسالة الختامية، ولهذا كانت بعثته ﷺ علامة من علامات قرب الساعة، وانتهاء هذه الحياة الدنيا.

● ومن الظواهر الكونية الخارقة للعادة التي ستظهر وتكون علامات الساعة وأشراطاً لها ما جاء في الوحي الإلهي (القرآن الكريم) من نزول عيسى ابن مريم إلى الأرض حكماً عادلاً، فقد جاء قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا﴾ (الزخرف: 61). وذلك بعد الحديث عنه في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ (٥٧) وَقَالُوا آلَهِتَانَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (٥٨) إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ مِنْكُمْ مَلَأِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُقُونَ (٦٠) وَإِنَّهُ لَعَلَّمَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونَ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ (الزخرف: 57-61).

● ومن تلك الظواهر أيضاً ظهور دابة عجيبة الخلق، تخرج إلى الناس، فتكلمهم، فيفتنون بها أيما افتتان، فقد جاء قوله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ (النمل: 82).

● ومنها انكسار سد يأجوج ومأجوج، وخروج تلك الأمة المفسدة المدمرة لتعيث في الأرض فساداً وتروع الناس أيما ترويع؛ إذ جاء قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الأنبياء: 96، 97).

هذا في الكتاب، وأما في السنة وهي من وحى الله فقد أخرج مسلم من رواية حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قال: «اطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: «ما تذاكرون؟» قالوا: نذكر الساعة. قال: «إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات»، فذكر الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسوفٌ بالمشرق، وخسوفٌ بالمغرب، وخسوفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم» (1).

(1) مسلم (8/179).

وهذه من علامات الساعة الكبرى، وستسبقها علامات صغرى وهى كثيرة جداً، وقد ظهر منها من يوم الإخبار بها إلى الآن عدد كبير، وقبل ذكر بعضها ننبه إلى أن العلامات الكبرى إذا ظهرت آية منها تابعت حتى لكأنها خرزات فى خيط، متى سقطت واحدة تتابع باقى الخرزات حتى تسقط عن آخرها فى زمن وجيز محدود وبرهة من الزمن قصيرة - كما أن العلامات الكبرى أولها ظهوراً طلوع الشمس من مغربها، لحديث مسلم فى «أن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى، وأيهما كانت قبل صاحبتهما فالأخرى على إثرها قريباً» (1).

هذا ولنعلم هنا أن هذه العلامات الكبرى إذا ظهرت منها علامة أغلق باب التوبة على الناس، فلم يقبل إيمان عبد بعدها لم يكن قد آمن من قبل، كما لم يقبل منه خير لم يقدمه قبل رؤية الآية وظهورها؛ وذلك لقول الله تعالى من سورة الأنعام: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا﴾ (2)، وهذا جدول بالآيات الصغرى ما ظهر منها حتى الآن وما لم يظهر منها بعد، نقدمه كما ورد عن رسول الله ﷺ.

1 - قوله ﷺ فى رواية الصحيحين: «لا تقوم الساعة حتى تقتل فتان عظيمتان، وتكون بينهما مقتلة عظيمة، ودعواهما واحدة» (3)، هذه العلامة قد ظهرت كما أخبر بها رسول الله ﷺ؛ إذ المراد من الفتنتين على ومن معه، ومعاوية ومن معه ﷺ أجمعين، والمقتلة العظيمة كانت بصفين.

2 - قوله ﷺ فى رواية مسلم: «لا تقوم الساعة حتى يكسر الهرج، قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟ قال: القتل القتل» (4). وقد ظهرت هذه العلامة فعلاً فإن الحروب التى تقع فى هذه الظروف قتلاها لا يعدون بالعشرات ولا بالمئات، ولا حتى بالألوف بل بعشرات الألوف ومئاتها، فى حين أن قتلى حروب الإسلام الأولى التى كانت على عهد رسول الله ﷺ - والتى دامت زهاء

(1) مسلم (8/202).

(2) الآية (158)، وروى مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض» (1/95، 96)، وروى البخارى: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرأها الناس أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها ما لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً» (7/132)، واللؤلؤ والمرجان (1/31).

(3) اللفظ لمسلم (8/170)، واللؤلؤ والمرجان (3/303)، والبخارى (4/243).

(4) مسلم (8/170، 171).

عشر سنوات - لم تتجاوز ألفين وخمسمائة قتيل حسب إحصائية وثيقة ذكرها غير واحد⁽¹⁾.
3 - قوله ﷺ في رواية الصحيحين عن أبي هريرة: «لا تقوم الساعة حتى ينحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتتل الناس عليه»⁽²⁾، هذه العلامة لم تظهر بعد.

4 - قوله ﷺ في صحيح مسلم: «منعت العراق درهمها وقفيزها، ومنعت الشام مديها ودينارها، ومنعت مصر إردبها ودينارها، وعدتم من حيث بدأت .. الحديث»⁽³⁾.

وهذه العلامة قد ظهرت كاملة، فقد ذهبت الخلافة الإسلامية منذ زمن واستقل أهل العراق بعراقهم، وأهل الشام بشامهم، وأهل مصر بمصرهم، وانقطع ما كان يأتي أهل الحجاز من تلك البلاد من خراج وغيره، وعاد الأمر في الحجاز كما كان قبل فتح تلك البلاد، وفي هذا الحديث آية من أعظم الآيات على صدق نبوة محمد ﷺ، وثبوت رسالته؛ إذ أخبر بهذا الغيب والإسلام لم يتجاوز أرض الجزيرة العربية، فأخبر بأن العراق والشام ومصر ستفتح وتكون دار إسلام، ويأتي منها الخير الكثير لأهل الحجاز ثم بعد ذلك يطراً عليها ما يجعلها تمنع ما كانت تعطيه لأهل الحجاز، فتم كل ذلك حرفياً، ولم يتخلف منه شيء قط، فصلى الله وسلم على محمد نبي الله ورسوله صدقاً وحقاً. وبالحقيقة من كفر به، ولم يتبعه فيما جاء به.

5 - قوله ﷺ في الصحيحين: «لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى»⁽⁴⁾. وقد ظهرت هذه العلامة كما أخبر ﷺ؛ فقد احترقت الحرة الشرقية من المدينة النبوية، واستمرت النار ملتتهبة فيها مدة طويلة، ولهبها يرى من بصرى الشام، وما زالت حجارتها سوداء محترقة كالفحم إلى الآن، وكان ظهور هذه النار ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة من عام (654هـ).

6 - قوله ﷺ في الصحيحين: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس حول ذي الخلصة، وكانت صنماً تعبدها دوس في الجاهلية بتبالة»⁽⁵⁾. وقد ظهرت هذه العلامة وفق إخباره ﷺ، فقد عادت الجاهلية إلى أرض الجزيرة قبيل دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فعبدت الأشجار والأحجار، وانتشر ذلك في شتى بلاد العالم الإسلامي فذهبت

(1) لقد سمعت هذا واستقيته من أخينا الشيخ أبي الحسن الندوي، وأكد له بسند لا يتطرق إليه الشك.

(2) اللفظ لمسلم (8/114)، اللؤلؤ والمرجان (3/305)، والبخارى (9/73)، وللحديث تمة.

(3) مسلم (8/175).

(4) اللؤلؤ والمرجان (3/305)، والبخارى (9/73)، ومسلم (8/180).

(5) متفق عليه. واللفظ لمسلم (8/182)، واللؤلؤ والمرجان (3/306)، والبخارى (9/73).

الذبائح، وأوقدت الشموع، ونذرت النذور للمزارات والأضرحة والقبور بصورة عجيبة، وعلى مرأى ومسمع من كثير من علماء المسلمين ولا حول ولا قوة إلا بالله، وفي هذا الخبر النبوى الشريف والذي تم طبق ما أخبر به الصادق المصدوق عليه السلام رد على الذين يزعمون أن هذه الأمة لا يقع بينها الشرك، ولا يوجد بينها من يعمل به مستدلين بقوله عليه السلام: «إن الشيطان قد يئس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب»⁽¹⁾.

وفاتهم أن يفهموا أن يأس الشيطان ليس حجة في عدم وجود الشرك في الأمة الإسلامية، إن الشيطان يئس من أن يُعبد في الجزيرة العربية لما رأى أعلام التوحيد منشورة على ربوعها، وأهل كلمة التقوى الذين هم أحق بها وأهلها من أصحاب رسول الله عليه السلام يملأون كل أجوائها وأرجائها تهليلاً وتكبيراً، وتحميداً وتسييحاً فيئس اللعين، ولكن ما إن ذهب ذلك الجيل الذي ربه القائد الأعظم محمد عليه السلام وما تلاه من أجيال، وجاءت أجيال أخرى لم تذوق طعم تلك التربية النبوية، ولم تعرف بحق هدى الله الذي جاء به رسوله عليه السلام، فخالط أعمالها الشرك، وداخل بعض معتقداتها الزيغ والضلال حتى ذهب عن الشيطان يأسه الأول، وعاد إليه الأمل المفقود، وما زال يُحسن لكثير من أفراد الإسلام الشرك والعمل به، حتى أصبح الشرك أكثر فشواً في الأمة من التوحيد، وكفى بالواقع شاهداً على ما نقول ودليلاً، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ (يوسف: 106).

7 - قوله عليه السلام في الصحيحين: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»⁽²⁾. وهذه العلامة لم تظهر بعد.

8 - قوله عليه السلام في الصحيحين: «لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله إلا الغرق فإنه من شجر اليهود»⁽³⁾.

وقد بدت بوادر هذه العلامة تلوح في الأفق، فقد قاتل العرب المسلمون اليهود في عدة معارك في أرض فلسطين، وسوف يستمر قتالهم لهم حتى يكتب الله النصر للمسلمين، ويستأصلوا اليهود من أرض القدس نهائياً.

(1) رواه مسلم (138/8)، وله تنمة، ورواه الترمذى بلفظ: «ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلادكم هذه أبداً، ولكن ستكون له طاعة فيما تحتقرون من أعمالكم وسيرضى بها» «كتاب البر» «باب 25» وأحمد (2/368، 3/313، 354، 366، 384، 5/73). والترمذى في الفتن أيضاً باب (2).

(2) اللؤلؤ والمرجان (3/307)، ومسلم (8/183)، والبخارى (9/73).

(3) متفق عليه. واللفظ لمسلم (8/188)، والبخارى (4/51)، واللؤلؤ والمرجان (3/308).

9 - قوله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم: يصبح الرجل مؤمناً، ويمسى كافراً، ويمسى مؤمناً، ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا»⁽¹⁾ وقد أخذت هذه العلامة في الظهور، ووقع لعدد كثير من الناس ما حمّله هذا الخبر النبوي الصادق.

آيات قريبة جداً من قيام الساعة

هذه بعض آيات أخرى تدل على قرب الساعة، ولكنها قريبة جداً من قيام الساعة، ولذا لم يظهر منها شيء بعد، وهى:

1 - فى قوله ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي يقاثلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم فيقول أميرهم: تعال صل لنا! فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة الله هذه الأمة»⁽²⁾.

2 - فى قوله ﷺ فى الصحيحين: «تقوم الساعة والرجل يحلب اللقحة»⁽³⁾ فما يصل الإناث إلى فيه حتى تقوم، والرجلان يتبايعان الثوب فما يتبايعانه حتى تقوم، والرجل يلوط⁽⁴⁾ حوضه فما يصدر حتى تقوم»⁽⁵⁾.

3 - فى قوله ﷺ فى الصحيحين: «والله لينزلن ابن مريم حكماً عادلاً، فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية، ولتتركن القلاص»⁽⁶⁾، فلا يسعى عليها، ولتذهبن الشحناء والتباغض والتحاسد، وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد»⁽⁷⁾.

4 - فى قوله ﷺ فى صحيح مسلم: «إن الله يبعث ريحاً من اليمن ألين من الحرير فلا تدع أحداً فى قلبه - قال أبو علقمة - مثقال حبة من إيمان إلا قبضته»⁽⁸⁾.

(1) مسلم (76/1).

(2) (95/1)، وروى البخارى «كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم» (4/204، 205) واللؤلؤ والمرجان (31/1)، ومسلم (94/1).

(3) اللقحة: الناقة ذات اللبن.

(4) لا ط الحوض يلوطه إذا مدره بالطين لثلا ينشف الماء، وهذا اللفظ يروى بألفاظ أخرى: يلط، ويليط.

(5) اللفظ لمسلم (310/8)، وللبخارى معناه (74/9).

(6) القلاص: واحدها القلوص وهى الشابة من الإبل، الطويلة القوائم.

(7) متفق عليه، واللفظ لمسلم (94/1)، واللؤلؤ والمرجان (31/1)، والبخارى (3/101، 102)، بمعناه.

(8) صحيح مسلم (76/1).

5 - فى قوله ﷺ فى صحيح مسلم أيضاً: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الناس». (1)

(بداية الانقلاب الحقيقى)

إذا أذن الله جل جلاله وعظم سلطانه بانقراض الكون وانتهاء هذه الحياة الأولى، أمر ملكاً يدعى إسرافيل أن ينفخ فى الصور نفخة واحدة للفناء، فينفخ نفخة، فيصاب الكون كله بخلخلة عنيفة فتتحل بها كل الروابط التى كانت تربط بين أجزاء الكون، فترتج الأرض رجاً عنيفاً، وتزلزل زلزلاً مروعاً (2)، وتندك مع جبالها دكاً، فتصير هباء منبثاً.

وتصاب السماء بانفطار عظيم يبطل معه قانون الجاذبية المعروف الآن، فتتناثر الكواكب، وتنكدر الشمس، ويذهب ضوء الكل، ويفقد الجميع كيانه، فتنصهر تلك الأجرام السماوية بجميع مجراتها فإذا هى كالحساس المذاب تماماً (3)، وإذا العالم كله سديم وبخار كما كان قبل وجوده وخلق الله تعالى له.

تنبيه:

ولنبه هنا إلى أن كل هذا الذى ذكرناه من ظواهر الانقلاب الكونى لقيام الساعة لم يكن مستقى من مجرد النظريات الكونية، ولا مستقى من تقولات الناس وتنبؤاتهم، ولا من تكهنات المعنيين بمثل هذه الأحداث الكونية، وإنما هو الحق اليقين الثابت بالوحي الإلهى، الواصل بواسطة جبريل الروح الأمين المنزل على قلب سيد المرسلين محمد ﷺ.

وها هى ذى آيات الله رب الكون وخالقه تنطق بكل ما سيجرى فيه وعليه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (الحج: ١، ٢)﴾. وقال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ (١) مَا الْقَارِعَةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ

(1) (8/ 208) ورواه البخارى بلفظ: «من شرار الناس من تدرِكهم الساعة وهم أحياء» (9/ 61)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 314).

(2) أما الإنسان الذى يزعم أنه سيد هذا الكون، ولم يبرح يتناول ويتعالى حتى على خالقه جل وعلا فإنه عندما يشاهد هذه الأحوال بعينه. ويسمع دويها بأذنيه، يفقد كل رشده، وتخف أحلامه، ويطير لبه، ويفقد صوابه حتى يصبح كالفراس فى حمقه، وقلة تعقله هائجاً مائجاً سكران من شدة الفزع والهول، وما هو بسكران، مرضعه عما ترضع ذاهلة، وحوامله لما فى بطنها واضعة.

(3) مصداقه فى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (المعارج: 8)﴾، وقوله: ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (الرحمن: 37)﴾.

كَالْفَرَّاشِ الْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴿ (القارعة: 1 - 5). وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا (١٠) يُصْرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ (١١) وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤) كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى ﴿ (المعارج: 8 - 15). وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ﴿ (الزلزلة: 1 - 3).

وقال تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَشَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿ (الانفطار: 1 - 3). وقال تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْعُشَارُ عُطِّلَتْ (٤) وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ (٥) وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿ (التكوير: 1 - 6). وقال تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَازِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴿ (الواقعة: 1 - 6).

نشوء الحياة الثانية

بعد انتهاء الأولى

إنه لا مجال للعقل البشرى فى معرفة الحياة الثانية وإدراكها، ولا فى بدء نشأتها، وكيفية وجودها، وكل ما فى الأمر أن العقل البشرى يجهل ولا يحيل وجود حياة كهذه الحياة، أو أرقى منها بالقياس إلى هذه الحياة، إذ القدرة الفاعلة المختارة التى كان بها هذا الكون ووجدت بها هذه الحياة فى إمكانها عقلاً أن تحدث كوناً وحياة أرقى وأفضل من الكون السابق والحياة المتقدمة.

وبناء على هذا فإن نشأة الحياة الثانية مرد معرفتها إلى إخبار الله تعالى فى كتبه وإخبار رسله عليهم الصلاة والسلام، وأن مجمل ما عرفناه عن نشوء الحياة الثانية هو: أنه بعد فناء العالم بنفخة إسرافيل نفخة الفناء، كما تقدم آنفاً^(١) - وبعد مضى أربعين سنة لا ندرى هل أيامها وشهورها مقدرة بأيام حياتنا هذه أو بأيام وشهور أخرى لا تخضع للنظام الشمسى الذى كانت به أيامنا وأعوامنا هذه؟؟ بعد مضى هذا الزمن ينزل من السماء ماء، فتنبت الأجسام تحت الأرض كما ينبت البقل، وذلك بواسطة تفاعل الماء مع بذرة الحياة التى هى عبارة عن عظيم صغير يوجد فى آخر فقرات الظهر من كل إنسان وجد فى هذه الحياة الدنيا ويسمى عَجَب

(١) فى ص (198)، فصل: بداية الانقلاب الحقيقى.

الذنب، فإذا تم الخلق، واكتمل النمو، وأصبحت الأجسام هياكل تامة التكوين تحت الأرض لا ينقصها إلا أن تحملها الأرواح، فتدب فيها الحياة وتتحرك وتقوم، أرسل الله الخالق سبحانه وتعالى الأرواح التي قبضها ملك الموت يوم وفاة كل إنسان في هذه الحياة، وأودعت في مستودعات بعضها في العالم العلوى وهى الأرواح الطاهرة نتيجة إيمان صاحبها، وعمله الصالح وتركه الشرك والمعاصى، وبعضها في العالم السفلى وهى الأرواح الخبيثة نتيجة كفر صاحبها وارتكاب الجرائم والآثام. فتدخل تلك الأرواح الآتية من مستودعاتها الأجسام التي هيئت لها فتحيا، ثم ينادى منادى الله تبارك وتعالى: أن قوموا لربكم، فتسمع وتجيئ، وتنشق الأرض عنهم بسرعة ويقومون من قبورهم أحياء للحشر بعد أن تم النشر.

وهذه المعلومات اليقينية التي سقناها، وكشفنا بها عن كيفية المعاد وبدء الحياة الثانية، وطريقة نشوئها - جاءت بها آيات قرآنية وصحت بها سنن نبوته لا مجال أبداً لإنكارها، أو الشك فيها. وها نحن نوردها مجملين لها فيما يلى:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشُ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ (الحاقة: 13 - 18).

وقال تعالى: ﴿وَاسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادُ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمَ الْخُرُوجِ (٥) إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٦) يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سَرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق: 41 - 44).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعُ إِلَى شَيْءٍ نَكْرٍ (٦) خُشْعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ (٧) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ (القمر: 6 - 8).

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سَرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (٤٣) خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهُقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ (المعارج: 43 - 44).

وقال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: 51 - 52).

وقال رسول الله ﷺ فى حديث البخارى ومسلم واللفظ له: «ما بين النفختين أربعون. قالوا: يا أبا هريرة أربعون يوماً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون

سنة؟ قال: أبيت، ثم ينزل من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل. قال: وليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظماً واحداً وهو عجب الذنب، ومنه يركب الخلق يوم القيامة»⁽¹⁾.

الحشر

والموقف الصعب في عرصات القيامة

ما هو الحشر:

إن الحشر عبارة عن جمع الخلائق بعد بعثهم أحياء في ساحة واحدة تدعى عرصات القيامة، وذلك لفصل القضاء، وهو الحكم فيما بينهم من أجل مجازاتهم، فالناس إذا بُعثوا من قبورهم أحياء، حفاة، عراة، غُرلاً، كما بدأ الله تعالى خلقهم أولاً يعيده ثانياً، قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ (الأنبياء: 104).

وقال الرسول ﷺ في الصحيحين: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقى ليس فيها علم لأحد»⁽²⁾، وقال في الصحيحين أيضاً: «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرلاً»⁽³⁾ قلت: يا رسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟ قال ﷺ: «يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض»⁽⁴⁾. ويحشر الكافرون على وجوههم؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَائًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَنَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا إِنَّا لَمُبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿ (الإسراء: 97-98).

وقيل للرسول ﷺ: كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: «أليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟»⁽⁵⁾.

وتُدنى الشمس في ذلك اليوم من رؤوس الخلائق حتى تكون قريبة منهم جداً، فتشتد

(1) لم يجزم أبو هريرة راوى الحديث بتفسير لفظ الأربعين هل هو أربعون يوماً، أو شهراً، أو عاماً، غير أنه ورد في رواية أخرى مفسراً بلفظ (سنة) قاله النووى في شرحه على مسلم (5/ 813)، طبعة الشعب تحقيق وإشراف عبد الله أحمد أبو زينة. والحديث في اللؤلؤ والمرجان (3/ 315)، والبخارى (6/ 158، 205)، ومسلم (8/ 210).

(2) اللفظ لمسلم (8/ 127)، والبخارى (8/ 135)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 275)، ومعنى عفراء بيضاء تميل إلى الحمرة قليلاً، وقرصة النقى الخبز الأبيض السالم من الغش، النقى من النخالة..

(3) الغرل جمع أغرل وهو من لم يختتن.

(4) اللفظ لمسلم (8/ 156)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 294)، والبخارى (8/ 136).

(5) متفق عليه، واللفظ لمسلم (8/ 135)، والبخارى (6/ 137)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 282).

الحرارة في الموقف، ويعرق الناس لذلك حتى يذهب العرق سبعين ذراعاً، فقد جاء بهذا الحديث الصحيح، ففي مسلم عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فيكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه⁽¹⁾، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً» قال: وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه⁽²⁾.

فصل القضاء

والشفاعة فيه

ما هو فصل القضاء ؟

إن المراد من فصل القضاء هو أن الناس لما يحشرون إلى ربهم، ويبلغ العناء منهم مبلغاً عظيماً، وذلك من شدة الهول، وصعوبة الموقف، يرغبون في أن يحكم الله تعالى فيهم أو بينهم بما هو أهله، وبما هم متهيئون له بحسب طهارة أرواحهم، أو خبثها، فيريحهم من شدة الموقف وأتعابه، ومصدق هذا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ أَقْبَتْ (١١) لَأَيَّ يَوْمٍ أَجَلَتْ (١٢) لِيَوْمِ الْفَصْلِ (١٣) وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ (١٤) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (١٥)﴾ (المرسلات: 11 - 15). كما في قوله عز وجل: ﴿هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٣٧) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعَانَكُمْ وَالْأَوَّلِينَ (٣٨) فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا (٣٩) وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (٤٠)﴾ (المرسلات: 35 - 40).

ولما يطول موقفهم ويعظم كربهم يقول بعضهم لبعض: ألا ترون ما أنتم فيه ؟ ألا ترون ما قد بلغكم ؟ فيأتون آدم ليشفع لهم عند الله تعالى، فيعتذر لهم ويقول: «إن ربي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وإنه نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي!! اذهبوا إلى غيري، فيأتون المرسلين واحداً واحداً نوحاً، وإبراهيم، فموسى، فعيسى فيعتذر الكل، ويقول نفسي نفسي!! حتى ينتهوا إلى خاتم الأنبياء وإمام المرسلين محمد ﷺ فيقول: أنا لها فيأتي ربه فيخرُّ ساجداً تحت العرش، ويلهمه ربه تعالى محامداً يحمده بها، فلا يزال كذلك حتى يقول له الرب تبارك وتعالى: ارفع رأسك، وسل تعط، واشفع تشفع، فيرفع رأسه ويقول: يا رب أمتي. فيقال له: يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب

(1) الحق بفتح الحاء والجمع حقاء كبناء هو الخصر، أو الإزار لأنه يشد على الحقو.

(2) مسلم (8/158).

الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب⁽¹⁾»، ويجرى بعد ذلك القضاء مجراه فتعطى الكتب، وتوضع الموازين، ويحاسب الناس.

الحساب والميزان

إن الحساب يدور على محتويات الكتب التى يعطاها كل فرد من أفراد الناس فى ساحة فصل القضاء، ويقرؤها كل واحد من أهل الموقف، وسواء من كان يقرأ منهم ومن لم يكن يقرأ، ويختلف إعطاؤهم تلك الكتب، وتلقيهم لها؛ إذ منهم من يعطى كتابه بيمينه ومن أمامه، ومنهم من يعطى كتابه بشماله ومن وراء ظهره، وبمجرد إلقاء نظرة على محتوى الكتاب يعلم صاحبه بصيره، ويعلن على الفور عن فوزه وفرحه وسروره، أو عن خيبته وحزنه وخسرانه، قال تعالى فى بيان هذا وتقريره: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْرُورًا (٩) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَى سَعِيرًا (١٢)﴾ (الانشقاق: 7-12). وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (٢٤) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ (٢٥) وَلَمْ أَدْر مَا حِسَابِيهِ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ (٢٨) هَلْكَ عَنِّي سُلْطَانِيهِ (٢٩) خُدُّوه فَلُوهُ (٣٠) ثُمَّ الْحَجِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣) وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ (٣٤) فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (٣٧)﴾ (الحاقة: 19 - 37).

وبينما هم كذلك؛ إذ توضع الموازين القسط، ويتقدم الناس واحداً واحداً للحساب، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً وهو العرض الذى قال الرسول ﷺ فيه لعائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «من حوسب يوم القيامة عذب» فقلت: أليس الله عز وجل يقول: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق: 8).

فقال لها: «ليس ذاك الحساب إنما قال العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب»⁽²⁾.

(1) كل هذا الذى ذكرنا من بيان الموقف والشفاعة ثابت فى الصحيحين، وقد تقدم فى مبحث الشفاعة من هذا الباب فليرجع إليه.

(2) متفق عليه، واللفظ لمسلم (8/164)، اللؤلؤ والمرجان (3/299)، والبخارى (1/39).

ومنهم من يحاسب حساباً عسيراً، يستنطق الفرد، ويسأل عن كل صغيرة وكبيرة، فإن أجاب بالصدق والحق فيها ونعمت، وإن حاول الكذب أو الكتمان فإنه يختم على فمه، وتستنطق جوارحه، فتنطق بالذى عمل فى دنياه، ولا تخفى شيئاً، فيلومها على نطقها وشهادتها عليه، فيكون ردها عليه بقولها الذى حكاه القرآن الكريم: ﴿أَنطَقْنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (فصلت: 21). وقال تعالى فى بيان هذه الحقيقة: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النور: 24). وقال تعالى فى ذلك: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (يس: 65).

ويجرى هذا الاستجواب والاستنطاق فى جو رهيب للغاية؛ إذ تقوم فيه الأَشْهاد، ولا يؤذن للمرء فى الاعتذار فيعتذر، ولا تقبل من ظالم معذرة، وتعرض الأعمال عرضاً حياً ناطقاً، فيرى المرء عمله وهو يباشره ويا للفضيحة!! قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يُصْدِرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لَّيْرُوا أَعْمَالَهُمْ﴾ (٦) فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزلة: 6-8).

ثم توضع الموازين العادلة ذات الدقة المتناهية، وتحصر الأعمال فلا يترك منها عمل وإن قل ودق، فتوضع فى موازين العدل، وتوزن، وبحسب نتيجة الوزن تكون السعادة، أو يكون الشقاء. قال تعالى فى بيان هذه الحقيقة: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ (الأنبياء: 47).

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤) أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (المؤمنون: 102-105).

الصراط

وأخيراً الصراط:

إنه بعد وزن الأعمال والفراغ منها، وبيان السعيد من الشقى فى الجملة، يضطر الناس إلى المرور على الصراط، وهو جسر دقيق منصوب على ظهر جهنم وهى عقبة كأداء فى طريق الذهابين إلى دار السلام، وممر خطير للغاية يشهد لخطورته أن الرسول ﷺ يقف على جنباته

والناس يمرون، وهو يدعو: «رب سلم سلم»⁽¹⁾. ويكون مرور الناس بحسب أعمالهم في الدنيا، فمنهم من يمر بسرعة مدهشة حتى وكأنه البرق الخاطف، ومنهم من يمر دون ذلك إلى أن ينجو من ينجو ولو حبواً على يديه وركبتيه، ويهلك من يهلك بسقوطه في جهنم دار الشقاء، والهوان، والبوار، والخسران.

وقد وصف رسول الله ﷺ الصراط في معرض حديثه عن الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذي وعده به ربه تبارك وتعالى في قوله: ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مُمُودًا﴾ (الإسراء: 79).

فقال ﷺ: «فيأتون محمداً ﷺ فيقوم فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم فتقومان جنبتي الصراط يميناً وشمالاً فيمر أولكم كالبرق» قال: قلت بأبي أنت وأمي أى شيء كمر البرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال، تجري بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجيء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفاً، قال: وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة، مأمورة بأخذ من أمرت به، فمخدوش ناج، ومكدوس في النار»⁽²⁾



(1) رواه مسلم (1/ 129-130)، وفي البخارى الحديث عن القيامة والصراط «وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم» (1/ 193، 194)، واللؤلؤ والمرجان (42-44)، ومسلم بلفظ: «ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم» (1/ 112، 114).

(2) أخرجه مسلم (1/ 129، 130).

القنطرة بين الجنة والنار

هل هناك قنطرة بعد الصراط ؟

نعم: إنه بعد أن يجتاز المؤمنون الصراط بسلام وأمان من الوقوع في النار يوقفون على قنطرة بين الجنة والنار، لتهذيبهم وتطهيرهم من كل ما كان بينهم من عداوات أو شحناء، أو حقوقهم لبعضهم على بعض، ثم بعد ذلك يؤذن لهم بدخول الجنة فيدخلون، وقد روى حديث القنطرة هذه الإمام أبو عبد الله البخاري في صحيحه، وهذا نصه:

«يخلص المؤمنون من النار فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدي بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»⁽¹⁾.

دار السلام

إن من إتمام بحث عقيدة البعث والجزاء، وتوفية هذا الركن من أركان عقيدة المؤمن حقه في الدرس والبحث أن يخص كل من دار السلام ودار البوار⁽²⁾ بعرض خاص يجلى حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة في الفوز بدار السلام، ويتعد عن الثانية باجتنب الشرك، وترك معصية الله تعالى، ورسوله ﷺ.

ولما كان الحديث عن دار السلام شيقاً ومحبيباً إلى النفوس المؤمنة، فإن الإطناب فيه أولى من الإيجاز، والإسهاب أولى من الاختصار، ومن هنا فسيكون بحثنا لهذا الجزء من ركن عقيدة المؤمن في البحث والجزاء ضافياً، يتناول الحديث عن سعة دار السلام، وأبوابها، وأنهارها، وخدمها، ومطاعمها، ومشاربها، وسائر ألوان النعيم فيها، كما سيكون مصدر استقائنا لكل المعلومات في حديثنا عن دار السلام هو الكتاب والسنة؛ إذ الأول كتاب من أوجدتها، وأوجد نعيمها، وخلق أهلها، وهداهم، فأعدهم لها، وعرفهم بها، وأما السنة فإنها أخبار من دخلها، ووطئت أقدامه أرضها، وبلغ سدرة المنتهى فيها كما قال تعالى: ﴿أَفْتَمَارُوهُ عَلَى مَا يَرَى﴾ (١٢) وَلَقَدْ رَأَهُ نَزْلَةً أُخْرَى (١٣) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى (١٤) عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ﴿ (النجم: 12 - 15).

(1) البخاري (8/138، 139، 3/158، 159).

(2) دار البوار: جهنم، لقوله تعالى: ﴿وَأَحْلُوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴿ (إبراهيم: 28-29).

سعة دار السلام وطيب ريحها

ما أوسع دار المتقين !! وما أطيب ريحها !!

إن عرضها كعرض السموات والأرض، وإن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام؛ إذ قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (آل عمران: 133).

وقال رسول الله ﷺ: «إن ريحها ليوجد من مسيرة مائة عام» (1).

(أبوابها)

إن للجنة دار النعيم لثمانية أبواب (2)، أحدها يسمى الريان، وهو خاص بالصائمين (3)، ومنها باب خاص بالذين لا يحاسبون من أمة محمد ﷺ (4).

وأبواب الجنة في غاية الوسع والكبر حتى إن ما بين مصراع الباب مسيرة أربعين سنة، ومع هذا الوسع فسوف تكتظ بأفواج الداخلين معها، وتزدحم، وقد علم أن خلق تلك الأبواب مكونة من ياقوت أحمر، قائمة على صفائح من ذهب، فقد روى مسلم في صحيحه عن الصادق المصدوق ﷺ قوله: «إن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة بينهما مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليها يوم وهي كظيظ من الزحام» (5).

وقال ﷺ وهو يحدث عن أهل الجنة: «ويتنهنون إلى باب الجنة فإذا حلقة من ياقوتة حمراء على صفائح الذهب» (6).

(1) النسائي بلفظ: «وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين سنة» (8/22)، والترمذي (ديات 11) وابن ماجه (ديات/32)، وأحمد (2/171-186، 5/27، 50، 51)، والموطأ بلفظ: «وريحها يوجد من مسيرة خمسمائة عام» (3/103).

(2) حديث مسلم في فضل التشهد بعد الوضوء (1/144، 145)، والبخاري (4/145).

(3) ورد هذا في المتفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (2/19، 20).

(4) تقدم في حديث الشفاعة من فصل القضاء، وهو مخرج في الصحيحين. اللؤلؤ والمرجان (1/49-51).

(5) مسلم في كتاب الزهد (8/215).

(6) رواه ابن أبي الدنيا والبيهقي في حديث طويل في وصف الجنة، وصحح المنذرى وقفه على رضى الله عنه في الترغيب والترهيب (4/494)، ولكنه في حكم المرفوع، لأن مثله مما لا يقال بالرأى.

عند باب الجنة

ماذا عند باب الجنة ؟

إن عند باب الجنة شجرة عظيمة ينبع من أصلها عينان، قد خُصِّصت إحداهما لشراب الداخلين وثانيتهما لتطهيرهم، فإذا شربوا من الأولى جرت في وجوههم نضرة النعيم فلا يبأسون أبداً، وإذا اغتسلوا من الثانية لم تشعث أشعارهم أبداً، وفي القرآن الكريم مصداق هذا قال تعالى: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ (الإنسان: 21).

وفي الحديث يقول الرسول ﷺ: «وإذا شجرة على باب الجنة ينبع من أصلها عينان، فإذا شربوا من إحداها جرت في وجوههم نضرة النعيم، وإذا توضأوا من الأخرى لم تشعث أشعارهم أبداً»⁽¹⁾.

استقبال أهل الجنة

إن دخول الجنة سيكون قطعاً في فترات متتالية، وقد يبعد ما بين الفترة والأخرى؛ إذ صح أن فقراء المسلمين يدخلون الجنة قبل ذوى الحظوظ بخمسمائة عام⁽²⁾، وذلك لعدم ما يستلزم وقوفهم طويلاً في ساحة فصل القضاء، وموقف الحساب بخلاف أهل الحظ والغنى. وفي القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طُبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: 73).

وفي الصحيحين من أخبار الرسول ﷺ: «إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب درى في السماء إضاءة، لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون، ولا يتفلون، أمشاطهم الذهب، ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوة»⁽³⁾، أزواجهم الحور العين، أخلاقهم على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء»⁽⁴⁾ إن هذا التفاوت بين أهل الجنة في دخولهم وحسن هيئتهم وجمال وجوههم عائد إلى تفاوت أعمالهم في الدنيا، في كمياتها وكيفياتها، وهو أمر من الوضوح بحيث لا يخفى على ذى لب، ففي الدنيا تكتسب النفس البشرية حسناتها وجمالها من إيمان صاحبها وأعماله الصالحة، وفي الآخرة يكتسب جمال الذات وكمال النعيم من نفس الزكاة الروحية التي كانت لها نتيجة إيمانها، وصالح أعمالها في الحياة الدنيا.

(1) قال الحافظ المنذرى: «رواه ابن أبي الدنيا والبيهقى وغيرهما عن عاصم بن حمزة عن على موقوفاً عليه بنحوه وهو أصح وأشهر» الترغيب والترهيب (4/ 494-496).

(2) أبو داود (2/ 290).

(3) العود يتبخر به.

(4) اللفظ لمسلم (8/ 146)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 289)، والبخارى (4/ 160).

وتستقبل الملائكة وفود الرحمن عند دخولهم إلى دار السلام، وأول المستقبلين هو رضوان خازن الجنان، ثم الملائكة الموكلون بنعيم الجنة وأهله، وفي القرآن الكريم: ﴿وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (الأنبياء: 103). وفيه أيضاً ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (الزمر: 73)، وفيه أيضاً: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (الرعد: 23 - 24).

قصور دار السلام وتفاضلها

نكتفى بوصف قصور دار السلام، وبيان تفاضلها بما جاء في رسالتي «الجنة دار الأبرار والطريق الموصل إليها» إذ قلت: من الذي يقوى على وصف قصورهم، أو يحسن التعبير عن نعيمهم وسرورهم والله مكرمهم والمنعم عليهم يقول: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمَلَكًا كَبِيرًا﴾ (٢٠) عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ سَنَدُسٌ خَضَرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا (٢١) إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإنسان: 20-22). وقلت أيضاً: إن الذي يمكن أن يحدثنا بعض الحديث عن قصور الجنة وما حوت من النعيم المقيم هو رجل واحد فقط، ذلكم هو النبي الأمي محمد رسول الله ﷺ؛ إذ هو الذي تشرفت دار السلام بقدمه عليها، ورؤيته لها في هذه الحياة الدنيا يقظة مرة، ومناماً مرات أخرى، ورؤيا الأنبياء وحى، فلنستمع إليه ﷺ وهو يحدث عنها ويقول محدثاً عن آخر رجل يدخل الجنة: فيقول: يارب ألحقني بالناس.... فينطلق يرمل في الجنة حتى إذا دنا من الناس رُفِعَ له قصرٌ من درة، فيخر ساجداً، فيقال له: ارفع رأسك، ما لك؟ فيقول: رأيت ربى.... فيقال له: ارفع رأسك إنما هو منزل من منازلك. قال: ثم يلقي رجلاً فيتبهاً للسجود له، فيقال له: مه. فيقول: رأيت أنك ملك من الملائكة، فيقول له: إنما أنا خازن من خزانك، وعبد من عبيدك... فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر، قال: وهو من درة مجوفة، سقائفها وأبوابها وأغلاقاتها ومفاتيحها منها، تستقبله جوهرة خضراء مبطنة بحمرء، فيها سبعون باباً، كل باب يفضى إلى جوهرة مبطنة، كل جوهرة تفضى إلى جوهرة على غير لون الأخرى، في كل جوهرة سرر، وأزواج، ووصائف، أدنانهن حوراء عيناء عليها سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء حليلها، كبدها مرآته وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفاً، فيقال له: أشرف. فيشرف، فيقال له: ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك» (١).

(١) قال الحافظ المنذرى: رواه ابن أبي الدنيا، والطبراني، والحاكم هكذا عن ابن مسعود مرفوعاً.. وأحد طرق الطبراني صحيح، واللفظ له، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وهو في مسلم بنحوه باختصار عنه. الترغيب والترهيب (4/ 503-506).

هذا وأما تفاوت درجات أهل دار السلام وتفاضل ما بينهم بحسب كمال إيمانهم، وكثرة صالح أعمالهم فلنورد له الحديث الصحيح التالي؛ إذ فيه يقول الرسول ﷺ: «إن أهل الجنة يتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى الغابر فى الأفق من المشرق أو المغرب؛ لتفاضل ما بينهم، قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم، قال: بلى، والذي نفسى بيده رجال آمنوا بالله، وصدقوا المرسلين» (1).

وفى القرآن الكريم مصداق هذا فى قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا عَرْضُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (الحديد: 21).

نظرة على أرض الجنة

وتحت هذا العنوان قلت فى رسالتى المشار إليها آنفاً:

«ما تظن أخى القارئ فى أرض الجنة؟

هل هى من تراب أبيض أو أحمر؟

وهل حصباؤها من حجارة ملونة جميلة؟

وهل جدران مبانيها من لبن فى غاية الحسن والجمال؟

وهل الطين الذى يوضع بين اللبنة لرصفها وإحكامها من مزيج الرمل الأبيض، و (الأسمنت) (2) الأزرق الناعم؟

اعلم أخى القارئ أنه لا يستطيع أحد أن يجيبك عن هذه التساؤلات كلها إلا أحد شاهدها، وعاش ساعة فيها كرسول الله محمد ﷺ وها هو ذا يسأله أحد أصحابه عنها فيقول له: «إنها لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها» (3) المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وترابها الزعفران، من يدخلها ينعم ولا يبأس، ويخلد لا يموت، ولا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم» (4).

(1) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (2/ 288)، والبخارى (4/ 145)، ومسلم (8/ 145).

(2) الأسمنت: كلمة معربة لعل عريبتها الجير أو الجص أو نوع منهما يخالفهما فى القوة والشكل لا فى الماهية والذات. (3) الملاط: الطين.

(4) رواه الترمذى (جنة/ 2)، والدارمى (رقاق/ 100)، وأحمد (1/ 305، 445)، وقال عبد القادر الأرناؤوط فى تعليقه على جامع الأصول (10/ 497)، وابن حبان فى صحيحه، والطبرانى فى الأوسط.

جنة عدن بين الجنان

لجنة عدن بين سائر الجنات ميزة خاصة لم تكن لغيرها، ألا وهي أن إيجادها تم بخلق الله تعالى المباشر لها؛ إذ ثبت أن النبي ﷺ أخبر أن الله تعالى قد خلق جنة عدن بيده، فقد أخرج ابن أبي الدنيا والطبراني عنه ﷺ قوله: «خلق الله جنة عدن بيده لبنة من درة بيضاء، ولبنة من ياقوتة حمراء، ولبنة من زبرجدة خضراء، وملاطها مسك، وحشيشها الزعفران، حصباؤها اللؤلؤ، ترابها العنبر، ثم قال لها: انطقي، قالت: قد أفلح المؤمنون...» (1).

تنبيه:

نحن نعلم أن الله تعالى هو خالق كل شيء، وليس في الكون كله علويه وسفليه إلا خالق واحد هو الله رب العالمين، وإله الأولين والآخرين، وليس ثم غيره أبداً.

فعندما نذكر أنه تعالى خلق كذا بيده؛ لإخباره تعالى بذلك كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدِي﴾ (ص: 75). أو لإخبار رسوله ﷺ بذلك كما في الحديث السابق الدال على خلق الله تعالى لجنة عدن بيده سبحانه وتعالى، فإننا نعني أن هذا الخلق قد تم على خلاف سنة الله تعالى في خلق الكائنات، وأن ما أخبر تعالى عنه بأنه خلقه بيده يكون له مزيد شرف ورفعته بذلك الخلق الخاص وهو الخلق المباشر.

ومن باب تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان نقول: إنه عندما يأمر الملك أو ذو السلطان ببناء قصر مثلاً فيبني، فإنه يقال: بنى الملك القصر، وإن لم يباشر البناء بيده، وذلك لأن البناء قد تم بأمره، وبسبب الإمكانيات التي وضعها تحت تصرف بانيه، كما أنه إذا تناول الملك حجراً ووضع بيده في زاوية من زوايا جدار القصر، يقال: وضع الملك حجر الأساس بيده، ومعنى ذلك أنه باشر وضعه بيده حقاً وصدقاً وليس من باب المجاز المرسل الذي علاقته السببية في شيء.

ومن هنا قلنا: إن خلق الله تعالى لآدم بيده هو خلق مباشر، وحقيقة لا ينبغي إنكارها. ومثل خلق آدم: خلق جنة عدن، وكل ما ورد في الكتاب والسنة أن الله تعالى خلقه بيديه هو من باب الحقيقة، ولا معنى لذكر المجاز في ذلك ولا فائدة منه.

(1) الترغيب والترهيب (4/ 513، 514).

الخيام والأسواق في دار السلام

بما أن الجنة فيها - بإخبار الله تعالى - ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين، ولأصحابها فيها كل ما يدعون ويطلبون، وفيها من النعيم المقيم العظيم ما لم تره عين، أو تسمع به أذن، أو يخطر لبشر على قلب، كما جاء ذلك في الصحيحين في قوله تعالى على لسان نبيه محمد ﷺ «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»⁽¹⁾، وفي قوله تعالى من كتابه العزيز: ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (الزخرف: 68-72). وفي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلْنَا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (فصلت: 30-31).

أقول بما أن الجنة حاوية لكل أوجه النعيم الروحاني والجسماني، مشتملة على كل ضروب السعادة، وصنوف النعيم لا يستنكر أن يكون فيها خيام، ولا يستبعد أن يكون فيها أسواق؛ إذ في الخيام متعة، وفي الأسواق سرور وحبور، وسنكتفي بعرض هذه الحقيقة، وتأكيدا بذكر كلمات قليلة جاءت في رسالتي «الجنة دار الأبرار» تحت عنوان جانبي صغير:

في الخيام - حيث قلت: في الجنة خيام قطعاً، وكيف لا؟ وخالقها عز وجل يقول: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ (الرحمن: 72).

والسؤال هو ما شكل تلك الخيام؟ ما نوعها؟ ما هي مادة تكوينها؟ وما مدى حسناتها وجمالها؟

والإجابة الصحيحة عن هذه التساؤلات لا تتلقى إلا من فم النبوة الطاهر برهاناً ساطعاً، وحقاً قاطعاً؛ إذ يقول فداه أبي وأمي: «إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة، طولها

(1) رواه مسلم (8/143). والبخاري (4/143)، واللؤلؤ والمرجان (3/286).

(فى السماء) ستون ميلاً (وعرضها ستون ميلاً)، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً»⁽¹⁾.

وقلت: ومن الخيام إلى السوق، سبحان الله؟ ! وهل فى الجنة أسواق؟ وكيف لا يكون ذلك والله تعالى يقول لعباده من أهل الإيمان والاستقامة: ﴿نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾ (فصلت: 31).

إنه ليس من المستغرب أبداً أن تتوق نفس المؤمن فى الجنة إلى دخول سوق من الأسواق وخاصة المؤمنين الذين تعودوا الضرب فى الأسواق، والأرباح الطائلة، كعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وأمثاله ممن كانوا يتعاطون التجارة فى صدق وأمانة، ويربحون أعظم الأرباح، فقد تتوق نفس أحدهم إلى ذلك وهو فى دار السلام فيطلبه ويدعيه فيخلق الله تعالى لهم أسواقاً يدخلونها إتماماً للإنعام فى دار السلام.

وهذا مسلم يخرج لنا حديث السوق فى الجنة فيقول: إن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم فيزدادون حسناً وجمالاً، فيرجعون إلى أهلهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً، فيقول لهم أهلهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً»⁽²⁾.



(1) رواه مسلم (8/148، 149)، وأما ما بين القوسين من الزيادات فهى فى مسلم أيضاً فى نفس الموضع ولكنها من أحاديث أخرى، ورواه البخارى أيضاً فى بدء الخلق باب صفة الجنة (4/143)، راجع اللؤلؤ والمرجان (3/289).

(2) مسلم (8/145).

أنهار الجنة وأشجارها

تحت هذا العنوان من رسالة «الجنة دار الأبرار» قلت: يا أخى القارئ هات يدك نتجول قليلاً بين أنهار الجنة وتحت أشجارها، ونمتع النفس ساعة قبل يوم الساعة!

هيا بنا إلى ذلك النعيم المقيم، هيا بنا إلى الأنهار الأربعة التى هى أصل كل أنهار الجنة، إنها نهر الماء، ونهر اللبن، ونهر الخمر، ونهر العسل كما جاء فى قول الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ (محمد: 15).

إن من بين هذه الأنهار العظيمة نهر الكوثر، وما أدراك ما الكوثر!؟

إن الله سبحانه وتعالى خص به نبينا محمداً ﷺ وأمته، وهو أعظم أنهار الجنة، وأحسنها، جاء الوعد به فى كتاب الله تعالى القرآن الكريم حيث قال: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ (١) فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ﴾ (الكوثر: 1، 2).

ولنستمع إلى صاحبه ﷺ يصفه لنا فنمتع سمعنا بذلك، روى البخارى عنه ﷺ مرفوعاً قوله: «بينما أنا أسير فى الجنة؛ إذ أنا بنهر حافتاه قباب الدر المجوف، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هو الكوثر الذى أعطاك ربك. قال: فضرب الملك بيده فإذا طينه مسك أذفر» (١) كما روى الترمذى بسند صحيح عنه ﷺ قوله: «الكوثر نهر فى الجنة، حافتاه من ذهب، ومجرراه على الدر والياقوت، تربته أطيب من المسك، وماؤه أحلى من العسل وأبيض من الثلج» (٢).

قلت: ومن الأنهار إلى الأشجار. فلنصغ إلى البخارى يروى لنا طرفاً من أخبار الأشجار، فإنه أصح رواية، وأدق عبارة فى هذا الشأن. قال: قال أبو هريرة رضى الله عنه: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، وأقرأوا إن شئتم: ﴿وَزَلَّ الْمَمْدُودُ﴾ (٣٠) وَمَاءٌ مُسْكُوبٌ (٣١) وَفَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ (٣٢) لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفَرْشٌ مَرْفُوعَةٌ (٣٤)﴾ (الواقعة: 30 - 34).

ويحدث ابن عباس عن هذا الظل فيقول: «الظل الممدود» شجرة فى الجنة على ساق قدر ما يسير الراكب المجد فى ظلها مائة عام فى كل نواحيها، فيخرج أهل الجنة - أهل الغرف وغيرهم - فيتحدثون فى ظلها، فيشتمى بعضهم ويذكر لهو الدنيا، فيرسل الله تعالى ريحاً من الجنة فتحرك

(١) البخارى (149/8).

(٢) ذكر هذين الحديتين المنذرى فى الترغيب والترهيب (517/4)، راجع الترمذى (84/6).

(٣) رواه البخارى فى (183/6)، ومسلم فى (144/8)، واللوئذ والمرجان (287/3)، وراجع الترمذى (209/7).

تلك الشجرة بكل لهُو كان فى الدنيا⁽¹⁾. ويقول: «نخل الجنة جذعها من زمرد خضر، وكربها ذهب أحمر، وسعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم وحللهم، وثمرها أمثال القلال والدلاء أشد بياضاً من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، ليس فيها عجم»⁽²⁾.

المطاعم والمشارب فى الجنة

لقد ضل قوم من الفلاسفة والنصارى فزعموا أن نعيم الجنة روحانى بحت، لا شىء فيه من النعيم للجسم بالمرّة، وهذا المعتقد خطأ محض، وباطل لا شك فى بطلانه عند من يعرف عن الله تعالى وعن رسله عليهم السلام.

وهذه حجج عقلية وسمعية نوردها على صحة هذا المعتقد الحيوى الخطير فنقول:

أولاً: إن الأرواح التى يراد لها النعيم لا يتم لها التنعم الحقيقى إلا إذا كانت حالة فى أجسام ثلاثيها، وتستقر فيها، وتقوم بها، ولذا فإنه لما أريد إنعام الشهداء وتكريمهم خلق الله لأرواحهم أجساماً خاصة ثلاثيها فتحل فيها، فتم لها التنعم بما أعد لها من نعيم طيلة حياتها فى البرزخ، فقد أخبر الرسول ﷺ: «أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترعى فى الجنة، وتأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش»⁽³⁾، ومصدق هذا فى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) **فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴿آل عمران: ١٦٩، ١٧٠﴾.

وثانياً: أن القدرة الكافية التى خلقت الإنسان اليوم ورزقه، وخلقت له ضرورياً من النعيم الدنيوى - كأطيب المطاعم، وألذ المشارب، وأجمل الملابس، وأحسن المساكن، وأفره المراكب - قادرة على إيجاد ذلك فى الملكوت الأعلى وتوفيره بصورة أجل وأكرم.

وثالثاً: تفضيل الحياة الدنيا (التي وجدت على أساس الفناء) على الآخرة (التي وجدت على أساس البقاء) وتفضيل ما يفنى على ما يبقى مردود عقلاً، ومن هنا كان من غير المعقول أن يكون النعيم فى الحياة الدنيا جثمانياً روحياً ينال الجسم والروح معاً مع أن الدار دار كدر، وتغيص، وفناء، كل ما فيها وجد على مبدأ الزمان المؤقت، والأجل المحدود، ويكون النعيم فى الآخرة وهى الحياة

(1) رواه الترمذى وحسنه، الترغيب والترهيب (4/ 520).

(2) رواه الحاكم وصححه، وذكره المنذرى فى الترغيب والترهيب (4/ 523)، والحاكم (2/ 76)، إلا أن فى الحاكم لفظ: «كرانفها» بدل «كربها» وكلاهما بمعنى: أصل السعفة الغليظة العريضة.

(3) معنى الحديث مخرج فى الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبي (2/ 297، 298)، وقد رواه مسلم بقريب من هذا اللفظ (6/ 38، 39).

الباقية الخالدة روحياً بحتاً لا وجود للأجسام، ولا علاقة للأرواح بها، فى حين أن الحياة فى البرزخ وهو الفترة ما بين موت الإنسان إلى يوم أن يبعث لم تنقطع فيها علاقة الروح بالجسد، وإن فنى وكان تراباً، إذ سيقى للروح تعلق بالقبر كامل، فيكون القبر لها أشبه بمحطة اللاسلكى متى أرادت الاتصال به اتصلت، ولهذا ورد أن الميت إذا سلم عليه زائره فى قبره عرفه ورد عليه السلام. (1)

هذا وكل ما ذكرنا من هذه الأدلة العقلية على أن النعيم فى الآخرة جثمانياً روحياً معاً ليس بشئ إلى جانب الأدلة السمعية الدينية الشرعية التى هى أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ، إذ لا أعلم بالخلق من الخالق، ولا من الرائي بما رأى وشاهد. فالله تعالى يقول مخبراً عما سينعم به على عباده المسلمين الذين آمنوا وكانوا يتقون: ﴿يَا عِبَادَ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ (١٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (١٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٢٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿ (الزخرف: 68 - 73).

والرسول ﷺ يحدث عن نعيم أهل الجنة، ويصفه كما رآه وعرفه فيقول: «أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون». قالوا: فما بال الطعام؟ قال: «جُشاءٌ ورشحٌ كرشح المسك، يُلهَمُونَ التسبيح والتحميد كما تُلهَمُونَ النفس» (2). ويقول: «إن أسفل أهل الجنة أجمعين درجة لمن يقوم على رأسه عشرة آلاف خادم، مع كل خادم صحفتان: واحدة من ذهب، والأخرى من فضة، فى كل واحدة لون ليس فى الأخرى مثله، يأكل من آخرها مثل ما يأكل من أولها، يجد لآخرها من الطيب واللذة مثل ما يجد لأولها، ثم يكون ذلك ربح المسك الأذفر لا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون» (3).

وما ذكرناه لم يعد أن يكون شاهداً فقط، وإلا فإن هناك عشرات الآيات، والأحاديث الصحاح تصرح بنعيم أهل الجنة، وأنه روحانى جثمانى، وأنه ليس مقصوراً على المطاعم والمشارب بل يتعداه إلى لبس الحلل، والتحلى بالخلى، والجلوس على الأرائك، والتمتع بالنساء والطرب، وركوب الخيل، والزيارات الكريمة، واللقاءات الحبيبة.

(1) ورد هذا فى الحديث الذى صححه ابن عبد البر عن النبى ﷺ أنه قال: «ما من رجل يمر بقبر الرجل الذى

كان يعرفه فى الدنيا فيسلم عليه إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام» عن أضواء البيان (6/ 426).

(2) رواه مسلم (8/ 147)، وفى البخارى معناه (4/ 43).

(3) رواه ابن أبى الدنيا والطبرانى، قال المنذرى: رواه ثقات. الترغيب والترهيب (4/ 508).

وهذه أخبار الله تعالى، وأخبار رسوله ﷺ تحدث بذلك فلنستمع إليها وهي تقول عن الحلى والخلل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهَدُّوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ (الحج: 23 - 24).

وعن الأرائك والأسرة:

تقول: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ (١٥) مُتَكِنِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ﴾ (الواقعة: 10 - 16). وتقول: ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةَ وَحَرِيرٍ (١٢) مُتَكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا (١٣) وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلَّتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ (الإنسان: 12 - 14).

وعن النساء:

تقول: ﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ﴾ (الصفات: 48، 49). وتقول: «ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملاأت ما بينها ريحاً، ولأضاءت ما بينها، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»⁽¹⁾. وتقول: «لو امرأة من نساء أهل الجنة أشرفت لملاأت الأرض ريح مسك، ولذهب ضوء الشمس والقمر»⁽²⁾.

وعن الطرب:

تقول: «إن في الجنة لمجتمعاً للحوار العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق بمثلهما يقلن: نحن الخالدات، فلا نبید. ونحنُ الناعماتُ، فلا نبأسُ. ونحنُ الراضياتُ، فلا نخطُ. طوبى لمن كان لنا وكنا له»⁽³⁾. وتقول: «إن في الجنة نهراً طول الجنة، حافتاه العذارى قيامٌ متقابلاتٌ يُغنين بأحسن أصوات

(1) البخارى بقريب من هذا اللفظ (4/ 20-21).

(2) رواه الطبرانى والبخارى وإسناده حسن. الترغيب والترهيب (4/ 523).

(3) رواه البيهقى والترمذى ووسمه بالغرابة. الترغيب والترهيب (4/ 537).

يسمعوها الخلائق، حتى ما يرون في الجنة مثلها»، قيل لأبى هريرة (راوى هذا الخبر): ما ذاك الغناء؟ قال: «إن شاء الله: التسبيح، والتحميد، والتقديس، والثناء على الرب عز وجل». (1)

وعن الخيل وركوبها:

تقول: قال عبد الرحمن بن ساعدة رضي الله عنه: كنت رجلاً أحب الخيل فقلت: يا رسول الله، هل في الجنة خيل؟ فقال: «إن أدخلك الله الجنة يا عبد الرحمن كان لك فيها فرسٌ من الياقوت له جناحان يطيرُ بك حيث شئت». (2)

وتقول:

«إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حُلٌّ، ومن أسفلها خيلٌ من ذهب مسرجةٌ ملجمةٌ من درٍّ وياقوت، لا تروث ولا تبول، لها أجنحةٌ خطوها مدُّ البصر، فيركبها أهل الجنة، تطيرُ بهم حيث شاءوا». (3)

وعن تزاورهم:

تقول: «إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاقُ الإخوان بعضهم إلى بعض، فيسير سرير هذا إلى سرير هذا، ويسير سرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا جميعاً، فيتكئ هذا ويتكئ هذا، فيقول أحدهم لصاحبه: أتعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كذا، في الموضع كذا، فدعونا الله تعالى فغفر لنا». (4)

وعن أعظم نعيم روحاني يتم لهم في دار السلام:

تقول: «إذا سكن أهل الجنة الجنة أتاهم ملكٌ يقول لهم: إن الله تعالى يأمركم أن تزوروه، فيجتمعون، فيأمر الله تعالى داود عليه الصلاة والسلام فيرفع صوته بالتسبيح والتهليل، ثم توضعُ مائدةُ الخلد» قيل: يا رسول الله، وما مائدةُ الخلد؟ قال: «زاوية من زواياها أوسع مما بين المشرق والمغرب، فيطعمون، ثم يكسون، فيقولون: لم يبق إلا النظر إلى وجه ربنا عز وجل فيتجلى لهم فيخرون سُجداً، فيقال: لستم في دار عمل إنما أنتم في دار جزاء» (5)، وتقول: «بينما

(1) رواه البيهقي موقوفاً، الترغيب والترهيب (4/538، 539).

(2) رواه الطبراني ورواته ثقات. الترغيب والترهيب (4/545).

(3) رواه ابن أبي الدنيا وسكت عنه المنذرى. الترغيب والترهيب (5/544).

(4) رواه ابن أبي الدنيا والبخاري وسكت عنه المنذرى والترغيب والترهيب (4/543).

(5) رواه أبو نعيم وسكت عنه المنذرى، وسكوت المنذرى معناه موافقة منه على سلامة الرواية. الترغيب والترهيب (4/546).

أهل الجنة في نعيمهم إذ سَطَعَ لهم نورٌ، فرفعوا رؤوسهم، فإذا الرب جل جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم، فقال: السلام عليكم يا أهل الجنة، فلا يلتفتون إلى شيء مما هم فيه من النعيم ما داموا ينظرون إليه تعالى حتى يحتجب عنهم، وتبقى فيهم بركته ونوره»⁽¹⁾.

وتقول: «إن الله يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك. فيقول: هل رضيتم؟ يقولون: وما لنا لا نرضى يا رب وقد أعطيتنا ما لم تُعْطِ أحداً من خلقك؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً»⁽²⁾.

دار البوار

إن دار البوار هي نار جهنم مأوى الكافرين⁽³⁾، كما أن دار السلام هي الجنة دار المؤمنين المتقين⁽⁴⁾ وقد تقدم لنا أنه من إتمام البحث لعقيدة المؤمن في اليوم الآخر، أو البعث والجزاء أن يخص كل من دار السلام ودار البوار بعرض خاص يجلى حقيقة كل منهما بما يبعث على الرغبة في الفوز بدار السلام، وعلى الرهبة من دار البوار، فتطلب دار السلام بالإيمان والتقوى، وتطلب النجاة من دار البوار باجتنباب الشرك، وترك المعاصي، وقد استعرضنا الجنة دار السلام استعراضاً كافياً - والحمد لله - حتى لكأن القارئ عندما يُنهي آخر خبر عنها قد رآها بأَم عينه، وعاش فيها بنفسه وبدنه، وها نحن نستعرض دار البوار - أعاذنا الله منها، وزحزحنا عنها - لننجو من عذابها، ونفوز بالجنة ونعيمها فنقول: إن الحديث عن دار البوار ليس كالحديث عن دار الأبرار، فإذا حسن الإطناب في الحديث هناك فإنه يحسن الاقتضاب في الحديث هنا، إذ النفس تنبسط عند سماع النعيم، وترتاح له، وتلد، وتنقبض عند سماع الشقاء، وترتاح له، وترهبه. ولذا فسنسرع في العرض لدار البوار، ونوجز فيه ما أمكن الإيجاز على خلاف استعراضنا لدار السلام، وما فيها من نعيم مقيم، وهذا هو العرض:

(1) رواه ابن ماجه وغيره وسكت عنه المنذرى (4/ 553).

(2) البخارى ومسلم واللفظ له (8/ 144)، واللؤلؤ والمرجان (3/ 287)، والبخارى (8/ 142).

(3) يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ (إبراهيم: 28-29).

(4) قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ (يونس: 25)، وقال عز من قائل: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ (الأنعام: 127).

مَجِيءُ جَهَنَّمَ لِلنَّاسِ فِي الْمَوْقِفِ

وها هي ذى جهنم قد جىء بها، وبرزت للناس فى عرصات القيامة قال تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ (الفجر: 23). وقال: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (الشعراء: 91).

إن الانقلاب الكونى الذى يتم، وتتبدل فيه الأرض غير الأرض، والسموات غير السموات، ويبرز للناس فيه الله الواحد القهار، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبُرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (إبراهيم: 48).

يفاجأ فيه الناس من أهل الموقف بظاهرة غريبة وهى بروز جهنم لهم، ورؤيتهم لها، حيث يجاء بها تُجَرُّ بالأزمة كما تجر القاطرة، ولها تغيظ وزفير كما قال الله تعالى: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: 23، 24).

وكقوله تعالى: ﴿وَبُرِزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَبَّيْوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ (الشعراء: 91-95).

وقوله ﷺ فى الصحيح: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام، سبعون ألف ملك يجرونها» (1).

أَبْوَابُ جَهَنَّمَ :

إن دار البوار وهى عبارة عن عالم الشقاء ذات دركات، دركة تحت الأخرى إلى نهايتها، وهى سبع متفاوت فى شدة عذابها، أخفها عذاباً أعلاها، وأشدّها أسفلها، ولكل دركة اسمها الخاص بها، وبابها الخاص، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣) لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ (الحجر: 43، 44). وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ (النساء: 145).

وقد وردت أسماء دركات دار البوار فى القرآن الكريم، غير أنها وردت مفرقة فى عدة سور، ومذكورة فى عشرات الآيات بحسب سياق الحديث عنها، وقد يكون ترتيبها كالتالى: نار جهنم، لظى، الحطمة، السعير، سقر، الجحيم، والهاوية. هذه هى السبع الدركات، اللهم أجرنّا منها، واصرف عنا عذابها ﴿إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ (الفرقان: 65، 66).

(1) رواه مسلم (8/149)، ورواه الترمذى كتاب صفة جهنم (1).

كيف يدخلونها؟

إنه يؤتى بأهل النار يساقون إليها أفواجاً متتابعة، فوجاً بعد آخر، وزمراً متداركة زمرة بعد أخرى، وقد برزت لهم، كما قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ (الزمر: 71). وما إن تراه من مكان بعيد حتى سمعوا لها تغيظاً وزفيراً، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ (الفرقان: 12).

ثم يخرج منها عنق فيلتهم من شاء الله أن يلتهمهم من أهل الموقف من الجبارين والمشركين، فقد جاء هذا واضحاً في رواية الترمذي، إذ يقول ﷺ: «يخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر، وبالمصورين، وتساق تلك الزمر إلى جهنم حتى إذا وصلوها وجدوا أبوابها مغلقة، فتفتح لهم، ويدفعون إليها دفعاً عنيفاً، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٤) أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ (١٥) أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور: 13-16).

ثم يلقون منها في أماكن ضيقة وهم مقيدون في الأصفاد، مكبلون بالسلاسل والأغلال كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضِيقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان: 13)، وكما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُمْ مِّن قَطَرَانٍ وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ (إبراهيم: 49، 50).

هذا طرف من بعض أحوال أهل النار عند دخولهم لها، ذكرناه بياناً لجانب من جوانب الحديث عن دار البوار، وسنواصل العرض والحديث في اقتضاب وإيجاز وفاء بما وعدنا والله المستعان.

عذابهم فيها وتلاومهم

وما إن تستقر تلك الجماعات الهالكة، والزمر الخاسرة في جهنم بعد أن ألقوا فيها مهانين، حقيرين، ذليلين حتى ينزل بهم عذاب نفساني أليم، مهين، ذلك هو عذاب التوبيخ، والتقريع، والتأنيب الذي يتلقونه من ملائكة العذاب الموكلين بهم مثل قولهم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ (الملك: 8). ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ﴾ (الزمر: 71). ﴿هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ (الطور: 14). ﴿أَصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الطور: 16). ﴿فَذُوقُوا فَلَن نُّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ (النبا: 30).

كل هذا التوبيخ والتقريع والتأنيب جاء بيانه في كتاب الله عز وجل، وما ذكرناه قليل من كثير.

وأما تلاومهم فحدث ولا حرج، ويكفي أن نصغى إلى بعض الآيات القرآنية التي سجلت تلاومهم بأمانة وصدق، فلنسمع خاشعين إلى قول الله تعالى وهو يخبر عنهم فيقول: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونا فَأَتَاهُمُ عَذَابًا ضَعُفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضَعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (الأعراف: ٣٨، ٣٩). ويقول: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنْحَنُ صِدْدُنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (سبا: ٣١ - ٣٣).

ويقول: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣)﴾ (الصافات: ٢٧ - ٣٣). ويقول: ﴿هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَأْبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلُونَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ (٥٧) وَآخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَمَّمْتُمْ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضَعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) أَتُخَذُنَاهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (ص: ٥٥ - ٦٤).

خطبة إبليس في أهل النار

ومن أغرب ما يعرف عن أهل النار من أحوال في غاية العجب أن يخطب فيهم إبليس خطبة من أبلغ الخطب، وأفصحها، وأشدّها أثراً ووقوعاً في نفوس سامعيها - أقمأهم الله وإياه سواء الخاطب والمخطوب -، فقد يُنصب لإبليس منبر من نار فيرقاه فيخطب أهل النار عليه، فيزيدهم في كربهم، وطول محزنهم، وشدة إيلاسهم، وذلك لما يكسبهم خطابه من الندامة الممضة، والحسرة القاتلة، وقد سجل القرآن الكريم هذه الخطبة الإبلسية فلنستمع إليها كما جاءت من سورة إبراهيم عليه السلام: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (إبراهيم: ٢٢).

درجة الحرارة في جهنم

إن حر نار جهنم لشدته قد يصهر كل ما يلقي فيه، وإن الاستعار والتأجج في جهنم يزداد باستمرار، لقوله تعالى: ﴿مَّا وَاهُمْ جَهَنَّمَ كُلًّا خَبَتْ زُدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ ﴿ (الإسراء: 97 - 99).

ولهذا فلن نستطيع أن نقدر حر نار جهنم بأية نسبة من النسب التي يعرفها الناس اليوم عندما يقيسون حرارة أى جسم حرارى، سواء كان مغلياً، أو ناراً ملتهبة، بيد أننا إذا أخذنا فى اعتبارنا حديث الصحيحين والذي يقول فيه رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التى يؤقَدُ بنو آدم جزءً من سبعين جزءاً من حر جهنم. قالوا: إن كانت لكافية يا رسول الله، قال: فإنها فضّلتُ عليها بتسعة وستين جزءاً كلها مثل حرها»⁽¹⁾. وإذا عرفنا درجة حرارة النار اليوم وضربناها فى النسب المذكورة فى الحديث أمكننا حينئذ أن نعرف درجة حرارة نار جهنم على وجه التقريب والمقايضة فقط.

لون نار جهنم

إننا نعرف أن النار جسم حرارى ملتهب مضىء، كما نشاهده عندما نوقد أى نار، ونضرمها لحاجتنا إليها، ولكن نار جهنم ليست معلومة عندنا، ولا يمكننا أن نعرف أى شىء عنها إلا من طريق الوحي فقط، فلو سُئلنا عن لونها لما أمكننا أن نجيب بشىء مقنع ما لم يكن لدينا وحي فنجيب له، غير أن مالكا رحمه الله تعالى قد روى لنا فى موطنه حديثاً شريفاً صحيحاً أمكننا به أن نعرف لون نار جهنم، وأنه أسود، أشد سواداً من القار، لقوله ﷺ فى رواية مالك المشار إليها آنفاً: «أترونها - نار جهنم - حمراء كناركم هذه؟ لهى أسود من القار»⁽²⁾. ويروى لنا الترمذى فى جامعته عن أبى هريرة رضي الله عنه أن النبى ﷺ قال: «أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت فهى سوداء مظلمة»⁽³⁾. فمن خلال هذا الوحي عرفنا لون نار جهنم، وبلغنى وأنا أكتب هذا البحث أن

(1) متفق عليه، واللفظ لمسلم (8/ 149، 150)، واللؤلؤ والمرجان (2/ 110)، والبخارى (4/ 147)، والموطأ (3/ 155-156).

(2) القار: الزفت المعروف. راجع الموطأ (3/ 156).

(3) الترمذى (صفة جهنم / الباب الثامن) وابن ماجه (الزهد / الباب الثامن والثلاثين)، وقال الترمذى فيه: «حديث أبى هريرة فى هذا موقف أصح» وذكره عنه المنذرى فى الترغيب والترهيب (1/ 464)، قلت: ولكن هذا الكلام مما لا مجال للرأى فيه فهو فى حكم المرفوع.

علماء الكون اليوم قد أقروا هذه الحقيقة للون النار حسب مشاهداتهم للشموس الهائلة في هذا الفضاء الكبير والذي هو دون السماء الدنيا.

عمق جهنم وبُعد غورها

إن جهنم وهي إحدى دركات دار البوار ليس من الممكن بغير الوحي الإلهي أن نعرف مدى عمقها، ولا بعد غورها بحال من الأحوال؛ لأنها لا تقاس بفرن من أفران الدنيا اليوم مهما كان عظيماً، وحتى في عصر أفران الذرة والهيدروجين، وذلك لاختلاف ما بين الدنيا والآخرة، وبُعد ما بين طبيعتهما، وللفرق الهائل الكبير بين صنع الخالق عز وجل وصنع المخلوق الضعيف.

ولكى نعرف على وجه التقريب عمق جهنم، وبُعد غورها نورد قول رسول الله ﷺ «إن الصخرة لتلقى من شفير جهنم فتهوى سبعين عاماً وما تفضي إلى قرارها»⁽¹⁾. وقوله ﷺ في صحيح مسلم من رواية أبي هريرة قال: «كنا مع رسول الله ﷺ إذ سمع وجبة»⁽²⁾، فقال النبي ﷺ: «تدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا حجر رمى به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوى في النار الآن حتى انتهى إلى قعرها»⁽³⁾. ومما يؤثر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يقول في خطبه: «أكثرُوا ذكر النار، فإن حرها شديد، وإن قعرها بعيد، وإن مقامها حديد»⁽⁴⁾.

أودية جهنم

إن دار البوار لعالم كبير، لا يعرف له مدى ولا منتهى، غير أننا لو أردنا أن نستشف منه وسعه وكبره لأمكننا ذلك من خلال ما صح عن النبي ﷺ: «من أن ناب الكافر في جهنم يكون كجبل أحد الذي يزيد طوله عن خمسة أميال، وارتفاعه عن ميل كامل»⁽⁵⁾.

إن عالم الشقاء: - دار البوار - لاشك أنه مكون من أودية وجبال: لورود الوحي بذلك، ففي التنزيل الكريم وردت ألفاظ مقرونة بما يدل على أنها ألوان من العذاب، وفسرها في الجملة كثير من السلف بأنها أودية في جهنم، ومن ذلك: ﴿الغى﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (مريم: 59). و﴿الْأَثَامُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ (الفرقان: 68). و﴿الْوِيلُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ (المطففين: 1).

(1) رواه الترمذی (جهنم/ 2) وأحمد (3/ 174).

(2) صوت سقوط الحجر.

(3) مسلم (8/ 150).

(4) رواه الترمذی فی صفة جهنم، الباب الثاني.

(5) رواه مسلم بلفظ: «ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث» (5/ 153، 154).

﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾ (إبراهيم: 2). كما قد صح عن النبي ﷺ: «تفسير الويل بواد في جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفاً قبل أن يبلغ قعره»⁽¹⁾.

سلاسل جهنم وأغلالها

إن من لوازم العذاب الشديد عادةً السلاسل والأغلال، والكبول والأنكال⁽²⁾، حتى إنه قد لا يتصور عذاب أليم لا يغل فيه صاحبه ولا يكبل، أو لا يوضع في سلسلة.

ومن هنا كان في جهنم السلاسل والأغلال، والكبول والأنكال، وقد جاء ذلك وبيانه في كتاب الله عز وجل مفرقاً في عدة سور منه كقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾ (الإنسان: 4). وقوله: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنْكَالاً وَجَحِيمًا﴾ (١٢) وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿ (المزمل: 12، 13). وقوله: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٠) إِذِ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسلُ يُسْحَبُونَ ﴿ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿ (غافر: 70 - 72). وقوله: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوه﴾ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمِ صَلُّوه ﴿ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿ (٣٣) وَلَا يَحِضُّ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ ﴿ (الحاقة: 30 - 34) (3).

وقد روى بأسانيد جياد عن كثير من السلف أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر، وتخرج من دبره، فينظم فيها كما تنظم السمسم في الخيط، والخرزة في السلك.

الحيات والعقارب في جهنم

إذا كانت جهنم - أجازنا الله تعالى منها - هي دار العذاب، وعالم الشقاء، كان العذاب أنواعاً متنوعة، وصنوفاً مصنفة حتى في عالمنا الأرضي هذا، وحياتنا الدنيا هذه، فما بالناس بعالم الشقاء، ودار البوار !! إن فيها من صنوف العذاب، وضروب الشقاء ما لم تره عين، ولم تسمعه أذن، ومن هنا فلا يستغرب أبداً وجود حيات ناهشة، ولا عقارب لاذعة مميتة في جهنم، يعذب بنهشها ولسعها أهل دار العذاب وكيف، وقد فسر الخبر ابن عباس رضي الله عنهما، قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ (النحل: 88).

فسر زيادة العذاب بأنها عقارب تلسعهم، العقرب كالبغلة الموكفة⁽⁴⁾. ولا يبعد أن يكون هذا

(1) رواه الترمذی (تفسير سورة الأنبياء) وأحمد (3/ 475)، والحاكم وصححه (4/ 596).

(2) الكبول: جمع كبل: القيد الشديد، وكذا النكل الذي جمعه أنكال.

(3) راجع ابن جرير الطبري في تفسيره (11/ 63).

(4) راجع ابن جرير في تفسير سورة النحل (6/ 160). والموكفة: الضخمة الغزيرة اللبن.

التفسير من ابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ لا سيما وقد روى الحاكم وصححه عن النبي ﷺ قوله «إن في النار حيات كأمثال أعناق البخت»⁽¹⁾، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حرها سبعين خريفاً، وإن في النار عقارب كأمثال البغال الموكفة، تلسع إحداهن اللسعة فيجد حموتها⁽²⁾ أربعين سنة»⁽³⁾.

طعام أهل النار

هل لأهل النار من طعام؟ وهل حياتهم تمكنهم من أن يأكلوا أو يشربوا؟

نعم، إن لأهل النار مطاعم كثيرة ومشارب؛ إذ الطعام والشراب من لوازم الحياة، وأهل النار أحياء فيها لا يموتون؛ إذ لو ماتوا لاستراحوا من العناء والعذاب، ولكنهم لا يموتون كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ (النساء: 56).

وقد يسألون الموت بالفعل، ويطلبونه ولكن لا يستجاب لهم، جاء طلبهم الموت في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَأْكُونٌ﴾ (الزخرف: 77).

وقد أخبر تعالى عن عدم موتهم بقوله: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ (فاطر: 36).

كما أخبر تعالى أن من يصلي النار الكبرى لا يموت فيها ولا يحيا، جاء ذلك في قوله: ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى (١١) الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى (١٢) ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (١٣)﴾ (الأعلى: 11-13).

بعض أنواع طعامهم:

١- الزقوم:

هو ثمر يخرج من شجرة تنبت في أصل الجحيم، مذاقه مر شديد المرارة، يغص في الحلق فلا يسوغ إلا بالماء الحميم، ومن خواصه أنه يغلي في البطن غليان الماء فهو شبيه بالجير، الذي إن صب عليه الماء فار وغلا، قال تعالى في بيانه: ﴿أَذْلِكَ خَيْرٌ نَزْلًا أَمْ شَجَرَةُ الزُّقُومِ (٦٢) إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤) طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَإِنَّهُمْ لَا كُلُونَ مِنْهَا فَمَا لُتُونِ مِنْهَا الْبُطُونَ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧)﴾ (الصافات: 62، 67). وقال: ﴿إِنَّ شَجَرَتِ الزُّقُومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (٤٤) كَالْمُهْلِ (٤٥) يُغْلَى فِي الْبُطُونِ (٤٥) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (٤٥)﴾ (الدخان: 43، 46).

(1) البخت: الإبل الخراسانية. (2) الحموة: سَوْرَة وشدة الألم.

(3) الحاكم وقال فيه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي (4/593).

(4) المهل: الزيت العكر أو الرصاص أو الفضة إذا أذيت.

وقرأ النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: 102).

وقال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم، فكيف بمن يكون طعامهم؟» (1).

٢- الغسلين:

وهو ما تجمع من عصارة أهل النار من قيح وصيد وعرق، وما يخرج من فروج الزناة، وما يسيل من لعاب شاربي الخمر، والمغتائب، والكذابين، وقائلي الباطل، وشاهدي الزور.

ورد ذكر الغسلين في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ﴾ (٣٥) وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَسْلِينَ (٣٦) لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ (الحاقة: 35-37).

والمراد من الخاطئين الذين كسبوا السيئات فأحاطت بهم خطاياهم فدخلوا النار بذلك، قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (البقرة: 81).

٣- الضريع:

وهو شوك مر متناه في المرارة، ينشب في الحلق، يسيغه الأكل بالحميم، فيسبب له إسهالاً فظيعاً، فلذا هو لا يسمن آكله، ولا يغنيه من جوع، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيعٍ﴾ (٦) لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ (الغاشية: 6، 7).

بعض أنواع مشاربهم:

الشراب لازم لكل ذى كبد رطبة، وأهل النار ذوو أكباد، فلا بد لهم من ماء يشربون، كما لا بد لهم من طعام يأكلون؛ إذ الأكل والشرب ضروريان لبقاء الحياة، واستمرار ثنائها، وقد قدر لأهل النار البقاء فيها، فلذا هم يأكلون ويشربون ولم يكن الأكل والشرب ليدفع عنهم غائلة الجوع والعطش، ولكن ليزيد في محنتهم وطول عذابهم، وقد سبق بيان بعض مآكلهم، وهذا بيان بعض مشاربهم:

(١) رواه الترمذى وصححه (صفة جهنم / 4)، وابن ماجه (زهدي / 38)، وأحمد (1/ 301، 338).

١- الحميم :

وهو ماء حار يجرى من عين آنية^(١)، ومن خواصه أنه يصهر به ما في بطونهم، ويقطع أمعاءهم، قال الله تعالى: ﴿وَجُودَ يَوْمَندِ خَاشِعَةً (٢) عَامِلَةً نَاصِبَةً (٣) تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً (٤) تَسْقَى مِنْ عَيْنِ آنِيَةٍ﴾ (الغاشية: 2 - 5). وقال تعالى: ﴿وَسَقُوا مَاءَ حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (محمد: 15). وقال تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهِرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (الحج: 19 - 22).

٢- ماء الصديد:

وهو ماء كدر، يحوى كميات من الصديد، يُغص به شارب به حتى لا يكاد يسيغه، يعانى شارب به منه ألا ما لا يعلم مداها إلا الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَحَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مَنْ وَرَاءَهُ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦) يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَاءِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ (إبراهيم: 15 - 17).

٣- ماء المهل:

وهو ماء ثخين حار حتى لكأنه النحاس المذاب بحيث إذا أدناه أحدهم من فمه ليشربه، شوت حرارته جلدة وجهه، قال تعالى فيه: ﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يَغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ (الكهف: 29).

٤- ماء نهر الغوطة:

وهو ماء متجمع مما يسيل من فروج الزواني من النساء فقد روى أحمد بسند صحيح أن النبي ﷺ سئل عنه فقال: «نهر يجرى من فروج المومسات يؤذى أهل النار ريح فروجهم»^(٢)، هذا ونهى الكلام على مطاعم أهل النار ومشاربهم بحديث تفصيلي رواه الترمذى موقوفاً عن أبى الدرداء رضي الله عنه، حيث قد استعرضت فيه أحوال أهل النار بصورة وافية عجيبة، يقول: «يلقى على أهل النار الجوع، فيعدل ما هم فيه من العذاب، فيستغيثون فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع، فيستغيثون فيغاثون بطعام ذى غصة، فيتذكرون أنهم يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب، فيستغيثون بالشراب، فيدفع إليهم بكلايب من الحديد، فإذا دنت

(١) آنية: أى درجة حرارة الماء قد انتهت إلى ما لا مزيد عليه أبداً.

(٢) أول هذا الحديث: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر، ومن مات مدمن الخمر سقاه الله جل وعلا من نهر الغوطة، قيل: وما نهر الغوطة؟ قال: نهر .. الخ»، أحمد (4/ 399).

من وجوههم شوت وجوههم، فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم، فيقولون: ادعوا خزنة جهنم، فيقولون: ألم تك تأتيكم رسلكم بالبينات؟ قالوا: بلى، قالوا: فادعوا، وما دعاء الكافرين إلا فى ضلال قال: «فيقولون: ادعوا مالكا، فيقولون: ﴿يَا مَالِكُ لَبِضْ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾ (الزخرف: 77)، !! قال: الأعمش: نبئت أن بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام، قال: فيقولون: ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم، فيقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ (المؤمنون: 106-107)، قال: «فيجيئهم: ﴿اخْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا﴾ (المؤمنون: 108)، قال: فعند ذلك يؤسوا من كل خير، وعند ذلك يأخذون فى الزفير، والحسرة، والويل» (1).

فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم

ماذا عسى أن نقول فى فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم؟ وهل فى الإمكان تصور ذلك فى الذهن، أو تصويره للناس ليدركوه، ويفهموا حقيقته لولا أن الوحي الإلهي الذى نطق به رسول الله ﷺ قد رسم لنا صورة واضحة نستشف من خلالها مدى فحش أجسام أهل النار وقبح منظرهم؟ ولنستمع إلى كل من الشيخين يروى لنا حديثاً فى هذا الشأن يقول البخارى ومسلم فى صحيحه يقول الرسول ﷺ: «ما بين منكبي الكافر مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع» (2) ويقول مسلم: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث» (3). ويقول أحمد بن حنبل فى مسنده: قال رسول الله ﷺ: «ضرس الكافر مثل أحد، وفخذه مثل البيضاء» (4)، ومقعده من النار كما بين قديد ومكة، وكثافة جسده اثنان وأربعون ذراعاً بذراع الجبار..» (5)، ويروى لنا أحمد وغيره بسند لا بأس به: «أن الكافر ليحجر لسانه يوم القيامة وراءه قدر فرسخين يتوطؤه الناس» (6).

وما أحسب أن هناك منظرأ أقبح من هذا المنظر، لولا ما أخبر به الله تبارك وتعالى عن كلوح أهل النار كقوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ (المؤمنون: 104).

(1) الترمذى صفة جهنم (5).

(2) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 293)، والبخارى (8/ 142)، ومسلم (8/ 154).

(3) مسلم (8/ 153، 154). (4) البيضاء: جبل.

(5) الجبار: ملك من ملوك اليمن له ذراع معروف المقدار، والحديث فى أحمد (1/ 334، 537).

(6) أحمد (2/ 92)، ورواه الترمذى (صفة جهنم/ 3) بلفظ: «إن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس».

حيث فسر الرسول ﷺ ذلك بقوله: «تقلص شفة الكافر العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرتة» روى هذا التفسير للكلوح عن رسول الله ﷺ أحمد والترمذى والحاكم رحمهم الله تعالى أجمعين⁽¹⁾.

تفاوت عذاب أهل النار

إن تفاوت العذاب بين أهل النار في دار البوار ثابت مقطوع به، صرحت بذلك الأحاديث النبوية الصحاح، وهو تابع لتفاوت أعمالهم، وما كسبوا من خير وشر في هذه الحياة الدنيا، كما هو مقتضى العدل الإلهي القاضى بأن تُجزى كل نفس بما عملت، لها ما كسبت من خير، وعليها ما اكتسبت من شر، وها هي ذى الأحاديث المصرحة بتفاوت أهل النار في العذاب بحسب كسبهم الإرادى الاختيارى في الحياة الدنيا، روى مسلم في صحيحه أن النبى ﷺ قال: «أهون أهل النار عذاباً أبو طالب، وهو منتعل بنعلين يغلى منهما دماغه»⁽²⁾، وخف عذاب أبى طالب إلى هذه الدرجة من أجل ما قدمه من خدمات للإسلام فى شخص نبيه محمد رسول الله ﷺ، كما روى البخارى قوله ﷺ: «إن أهون أهل النار عذاباً رجل على أخصم قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه كما يغلى الرجل بالقمقم»⁽³⁾. كما روى مسلم أيضاً قوله ﷺ: «منهم - من أهل النار - من تأخذه النار إلى كعبيه، ومنهم من تأخذه النار إلى ركبتيه، ومنهم من تأخذه النار إلى حُجْزَتِهِ، ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه، ومنهم من تأخذه النار إلى ترقوته»⁽⁴⁾. وفى هذا أظهر دليل وأوضحه على تفاوت العذاب بين أهل النار.

بكاء أهل النار وعويلهم

إن العويل والبكاء من لوازم معاناة المخاوف والآلام، ومقاساة الشدائد والأهوال، ودار البوار وسكانها لا يبرحون يتجرعون الغصص ويتذوقون مر العذاب، حزنهم دائم، وعذابهم لا ينقطع ولا يخف، ومن هنا لا يستغرب منهم البكاء والعويل، ولا يستنكر عليهم الصياح والنواح، فهم يتضاغون فيها، ويصطرخون، يدعون بالويل، والحسرة، والثبور.

(1) الترمذى (جهنم/ 5)، أحمد (88/ 3).

(2) مسلم (135/ 1).

(3) متفق عليه، واللفظ للبخارى (8/ 144)، واللؤلؤ والمرجان (1/ 53)، ومسلم (135/ 1، 136).

(4) رواه مسلم (8/ 150)، إلا أن قوله: «ومنهم من تأخذه النار إلى عنقه» ليس فى هذه الرواية إنما هو فى أخرى لمسلم أيضاً فى نفس الجزء والصفحة.

وهذا القرآن الكريم يقص علينا بالحق ما سوف يدعون به ويقولون، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ (الفرقان: 13).

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ (فاطر: 37). وقال تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ (الأنبياء: 100). وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ﴾ (الزمر: 55، 56). وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا﴾ (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (الفرقان: 27 - 29).

وأخيراً فقد روى الحاكم بسند صححه عن النبي ﷺ قوله: «إن أهل النار يكون حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، وإنهم ليكون الدم - يعني مكان الدمع -»^(١). فاللهم قنا عذابك يوم تبعث عبادك، وأجرنا من النار وأدخلنا الجنة مع الأبرار.

البرزخ

تعريف:

البرزخ في عرف اللغة: ما حجز بين شيئين، أو ما فصل بين ماهيتين، كالياس من الأرض يكون بين بحرين، أو نهريين فاصلاً بينهما، وقد يكون فاصلاً بين ماهيتين كالحدا الفاصل بين ماهية الإنسان والحيوان، وهو النطق أو الكلام مثلاً، وقد يكون حتى بين الشك واليقين. وفي عرف الدين: البرزخ هو الحياة المجردة عن النعيم أو الشقاء الجثمانى التى تستقل فيها الروح عن الجسد، إذ الحيات ثلاث:

الأولى: الحياة الدنيا، التى تسعد أو تشقى فيها الأرواح مع الأجساد القائمة بها، والحالة فيها.

الثانية: حياة البرزخ، وهى الحياة التى تنفصل فيها الأرواح عن أجسادها التى كانت تعمرها، ويستقل فيها الروح عن الجسد بالنعيم أو العذاب، وسواء وجد لها فى العالم العلوى هياكل تناسبها فتحلّ فيها مؤقتاً، أو لا يوجد لها ذلك^(٢).

(١) الترغيب والترهيب (4/ 493)، والحاكم وقال: صحيح الإسناد. ولم يخرجاه ووافقه الذهبى (4/ 593).

(٢) فى هذه العبارة إشارة إلى ما صح عن النبى ﷺ وقد سئل عن حياة الشهداء التى أثبتها لهم القرآن فقال: «أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة فى العرش، تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل...» مسلم (6/ 38، 39).

والثالثة: الحياة الآخرة، وهى التى تعود فيها الأرواح إلى أجسادها التى كانت لها فى الحياة الأولى، وانفصلت عنها بالموت، فالحياة الثانية بين الأولى والثالثة هى حياة البرزخ؛ إذ هى حد فاصل بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، وهى عبارة عن عملية تربص وانتظار، والغرض منها: اجتماع الأرواح، وتكاملها استعداداً للدخول فى الحياة الآخرة، وذلك أن الحياة الأولى قامت على أساس الإيجاد المتلاحق، فيخلق الله تعالى الجسد والروح على طريقة معينة فى الخلق، فيعيش ذلك المخلوق عاملاً بما خلق له زمناً معيناً، ثم تجرى له عملية انفصال الروح عن الجسد وهى ما يسمى بالموت فيموت، ويحفظ له عمله فى ديوان خاص ليجزى به فى الحياة الآخرة إن كان قد مكن من العمل ببلوغه من حياته زمن التكليف وهو سن الرشد ببلوغه عاقلاً وسميعاً، بصيراً، ولما كان الخلق فى الحياة الدنيا يأتى متلاحقاً جيلاً بعد جيل، هذا يُوجد وذاك يعدم إلى أن ينتهى الخلق الذى قدر الله خلقه وإيجاده فى الحياة الدنيا، ويومها يحدث الانقلاب الكونى العظيم الذى تنتهى فيه حياة، وتبتدى فيه أخرى.

أقول: إنه لما كان الخلق يجرى على ما ذكر، كان لابد من وجود حياة وسط بين الحياتين، تجتمع فيها الأرواح بعد انتهاء مهماتها التى خلقت لها فى الحياة الدنيا، وعندما يتكامل جمعها يعيد الله تعالى لها أجسادها التى كانت لها، ويبعثها فيها لتتلقى جزاءها فى الحياة الآخرة من نعيم أو جحيم. فالحياة الدنيا إذاً هى حياة عمل، والحياة الآخرة هى حياة جزاء، والحياة الوسط بين الحياتين هى حياة البرزخ، وهى حياة تربص وانتظار، قال الله تعالى تقريراً لمبدأ أن الحياة الأولى حياة عمل لا جزاء، وأن الحياة الآخرة حياة جزاء لا حياة عمل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (آل عمران: 185).

والسؤال الآن هو: هل فى حياة البرزخ - وهى حياة علمنا أنها تستقل فيها الأرواح عن الأبدان - من نعيم يجرى على الروح فتسعد به فترة تربصها، أو عذاب تشقى به مدة حبسها وانتظارها؟؟

والجواب: نعم، وهذا بيانه مفصلاً.

مراحل جريان النعيم أو العذاب

على الروح فى البرزخ

المرحلة الأولى عند الموت ونزع الروح:

إن نعيماً أو عذاباً يتم للروح عند نزاعها بواسطة ملائكة رحمة أو عذاب كما جاءت الأخبار الصادقة الصحيحة بذلك فى القرآن الكريم يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ٥٠ ﴾ ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿ (الأنفال: 50، 51). ويقول عز وجل: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرَجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ٩٣ ﴾ ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وصل عنكم ما كنتم ترغمون ﴿ (الأنعام: 93، 94). فقلوه: ﴿ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ ﴾ دال على أن الملائكة تعذب المحتضر الكافر أو الفاجر بضربه على وجهه وظهره، كما هو صريح قوله تعالى فى آية الأنفال المتقدمة: ﴿ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴾ هذا العذاب عند الموت، وحال النزاع هو بالنسبة إلى ذى الروح الخبيث من أهل الكفر والإجرام، وأما بالنسبة إلى ذى الروح الطيبة الطاهرة من المؤمنين المتقين فقد قال الرسول ﷺ: «إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ويحىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها الروح الطيبة اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء»..... الحديث.

وأما ذى الروح الخبيثة من الكافرين والمنافقين فقال عنه رسول الله ﷺ: «وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر، ثم يحىء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجى إلى سخط من الله وغضبه، فتفرق فى جسده، فيتنزعها كما يتنزع السفود من الصوف المبلول».. الحديث (1).

(1) رواه أحمد، قال المنذرى: رواه محتج بهم فى الصحيح، الترغيب والترهيب (4/366، 367)، وأحمد (4/288، 396، 5/136)، والفتح الربانى (7/74، 78)، ورواه النسائى بلفظ قريب من هذا (4/7، 8)، ومعنى حنوط: طيب، وفى السقاء: فم القربة، والمسوح: ثياب خشنة، والسفود: الحديدة التى يشوى بها =

المرحلة الثانية: النعيم في القبر أو العذاب:

القبر أول منازل الحياة الثانية وهو العتبة للدار الآخرة، ويجرى فيه النعيم والعذاب على الروح والجسد معاً في الساعات الأولى منه، ثم تستقل الروح بهما دون الجسد، إن نعيم القبر أو عذابه ثابت بالدليلين العقلي القياسي، والنقلي الشرعي الديني، فالدليل العقلي هو عدم استحالته، وما لم يكن مستحيلاً فهو جائز؛ إذ ثبوت النعيم أو العذاب للميت في القبر لا يوجب تصوره تناقضاً عقلياً. وثانياً: ما علمه كل إنسان، وعرفه من نفسه المرات العديدة من رؤية منامية يرى فيها نفسه في نعيم كامل لا يؤسفه إلا أن ينقطع عنه بالاستيقاظ. أو عذاب شديد لا ينهي عنه إلا استيقاظه، بل يبقى أثر الرؤيا في نفس المرء فترة من الزمن خيراً كان أو شراً.

وأما الدليل النقلى الدينى فقد صح عن النبى ﷺ: «إن ملك الموت إذا أخذ روح العبد المؤمن لم تدعها الملائكة فى يد ملك الموت طرفة عين حتى يأخذوها، ويضعوها فى ذلك الكفن، وذلك الحنوط (تقدم الحديث عنهما) ويخرج منه كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض»، ثم قال: «فيصعدون بها فلا يمرون على ملا من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل: اكتبوا عبدى فى عليين (فى أعلى درجة فى الجنة)، وأعيدوه إلى الأرض فى جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربى الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذى بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، وآمنت به، وصدقته، فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له باباً فى الجنة، قال: فيأتيه من روحها ورائحتها وطيبها، ويفسح له فى قبره مد بصره». قال: «ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب، طيب الريح فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنت توعده... فيقول: من أنت؟! فوجهك الوجه الحسن يجىء بالخير. فيقول: أنا عمك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى»⁽¹⁾.

= اللحم، والمراد من سيل الروح كسيل القطرة من فى السقاء: كناية عن سهولة خروجها من جسد المؤمن. والمقصود بنزعها كما ينزع السفود من الصوف المبلول: كناية عن شدة وصعوبة خروجها من جسد الكافر والفاجر، والمراد من تفرق روح الكافر فى جسده: كناية عن شدة الخوف والفرع وكأنها تريد الهرب عند سماعها ذلك الكلام. والله أعلم.

(1) هذا اللفظ الذى سبق كلاهما حديث واحد، وقد تقدم أنه أخرجه أبو داود وأحمد، وأن رواة أحمد كلهم محتج بهم فى الصحيح كما قال الحافظ المنذرى. راجع ص (413).

وفيه أيضاً أنه قال: «إن ملك الموت إذا أخذ روح العبد الكافر لم تدعها الملائكة في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح⁽¹⁾». وتخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الخبيثة؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له. وقرأ رسول الله ﷺ: ﴿لَا تُفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: 40).

فيقول الله عز وجل اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، ثم تطرح روحه طرْحاً، ثم قرأ ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: 31).

فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه⁽²⁾ لا أدري، قال: فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، قال: فيقولان له: ما هذا الرجل الذي يبعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادى مناد من السماء أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول له: أبشر⁽³⁾ بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده فيقول: من أنت فوجهك الوجه القبيح يجيء بالشر؟ فيقول: أنا عمملك الخبيث. فيقول: رب لا تقم الساعة، ثم يقيض له أعمى، أصم، أبكم في يده مرزبة لو ضرب بها جبل كان تراباً، فيضربه ضربة فيصير تراباً، ثم يعيده الله كما كان، فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين». قال البراء: «ثم يفتح له باب من النار، ويمهد له من فرش النار». وصح عنه ﷺ أن اسم أحد الملكين يقال له: منكر، وأن اسم الثاني يقال له: نكير، وأنهما يثيران الأرض بأنيابهما، ويلجفان⁽⁴⁾ الأرض بشفاهما، أصواتهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيجلسانه.. الحديث⁽⁵⁾.

(1) المسوح: جمع مسح بكسر فسكون ثوب من شعر غليظ.

(2) كلمة (هاه، هاه) في صوت الضاحك وهي هنا التوجع والحيرة لعدم علمه بما يقول.

(3) كلمة «أبشر» هنا المراد بها التهكم والتوبيخ والتقريع والتهديد.

(4) يلجفان: يضربان الأرض بشفاهما، ويحفرانها بهما.

(5) رواه أحمد، وقال الحافظ المنذرى: إسناده حسن. الترغيب والترهيب (4/369).

المرحلة الثالثة:

نعيم الروح أو عذابها وهو في برزخ

بعيد عن القبر، متصل به

إنه بعد انتهاء فترة القبر التي تتم فيها فتنه الإنسان، وبها ينكشف أمره، وتظهر حاله، فيسعد أو يشقى نتيجة لما يجيب به عن سؤال الملكين، حيث يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، ويضل الله الظالمين.

بعد انتهاء الفترة هذه تودع الروح البشرية في مستودع للرحمة أو العذاب في عليين، أو في سجين، وتبقى هكذا مرهونة محبوسة في ذلك المستودع إلى يوم يبعثون، حيث يعيد الله تعالى الأجسام بعد فنائها ويأذن للأرواح أن تدخلها.

بيد أن للأرواح - سواء كانت في عليين مستودع الأخيار، أو في سجين مستودع الأشرار - اتصالاً مباشراً بالقبر الذي ضم رفات: صاحبها، وأودعت جثته فيه، وهو اتصال مباشر شبيه بالاتصال اللاسلكي الذي يتم اليوم بين محطات الإرسال والاستقبال. وبذلك يتم معرفة الزائر للقبر، والمسلم على صاحبه⁽¹⁾، بل ذلك الاتصال تجد الروح معه لذة النعيم، أو ألم الجحيم في القبر، ولا يستثنى من هذه الحقيقة إلا أرواح الشهداء، فإن القرآن والسنة قد صرحا بأن أرواح الشهداء تكون بعد الاستشهاد في حواصل طير خضر ترعى في الجنة، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴿ (آل عمران: 169، 170).

وقال رسوله ﷺ: «أرواحهم - الشهداء - في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوى إلى تلك القناديل. فاطلع إليهم ربهم اطلاعاً - فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أى شئ نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسامنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»⁽²⁾.

(1) روى ابن عبد البر وصححه عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أحد يمر بقبر أخيه المسلم كان يعرفه في الدنيا فيسلم عليه إلا رد عليه روحه حتى يرد عليه السلام»، وقد مر في المطاعم والمشارب في الجنة فليرجع إليه.

(2) مسلم (6/38، 39).

الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن

الإيمان بالقضاء والقدر

إنه ما تزال العقيدة الإسلامية منذ إحداثها في العالم ذلك الانقلاب العظيم، وهزتها العنيفة لأركانها المتداعية، وخلخلتها للكيان البشرى المهزوز، منذ ذلك الانقلاب الهائل العظيم الذى أطاح بصروح الباطل ودك عروش الشر والكفر والفساد، ما تزال العقيدة الإسلامية، تُستهدف للطعن الشديد، وتعرض للنقد القاسى المرير من خصومها الألداء، وأعدائها الأشداء من يهود ونصارى، ومجوس وملحدين على حد سواء، علماً منهم أن سر ذلك الانقلاب العظيم الذى وقع فى الكون على أيدي أصحاب رسول الله ﷺ، وأتباعهم من التابعين المؤمنين المحسنين إنما كان فى العقيدة الإسلامية، فلهذا لم يبرح أولئك الخصوم يشككون فيها، ويطعنون حتى زلزلوها فى نفوس أكثر المسلمين، ويومها فقط تسنى لهم⁽¹⁾ أن يوقفوا تيارها، ويقطعوا أسلاك أنوارها؛ فتعود الظلمة إلى العالم الإنسانى، وتصاب البشرية بنكسة كبيرة أدت بها إلى مهاوى الردى، وأسقطتها فى جحيم لا يطاق.

ولندكر فى هذا وعلى سبيل المثال فقط أن عقيدة القضاء والقدر وهى أحد أجزاء العقيدة الإسلامية، وليست كلها أبداً قد تعرضت لطعن عنيف، وتشكيك سخي، بصورة تدعو إلى العجب والاستغراب، إنه لم تكد تذهب آثار شمس النور المحمدى المتخلف مع البقية الباقية من أصحاب رسول الله ﷺ حتى ظهر فى المسلمين مبدأ نفى القدر، والقول بالجبر، ومذهب الاعتزال، والتشيع، ونجم⁽²⁾ الشر واستطار، وطرق كل الأقطار، وتعرضت أمة الإسلام بعقائدها، وبلادها، وبكل وجودها إلى أعنف الهزات التى زلزلت كيانها، تنهاوى تحت ضربات الحانقين، وطعنات الناقمين.

ولما هوى ذلك النجم الذى أضاء المعمورة، وغمر الحياة بالهدى والخير قال الذين كفروا -تشفياً من الإسلام، وإمعاناً فى الإجرام-: إن ما أصاب المسلمين من الانهيار والسقوط، بعد التفكك والضعف الكبير، كان نتيجة بعض العقائد عندهم، وخصوا بالذكر عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، وكان ذلك منهم إفكاً⁽³⁾ مفترى، وكذباً مقلوباً، مشوهاً للحقيقة؛ إذ الواقع هو

(1) تسنى: تهيأ وتيسر.

(2) نجم: ظهر.

(3) الإفك: الكذب المقلوب وهو أسوأ الكذب.

أن الذى أحل بالمسلمين ما أحل بهم من ضعف وهوان ودون لم يكن نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على الوجه الصحيح المطلوب، وإنما كان نتيجة إيمانهم بالقضاء والقدر على وجه غير صحيح ولا مطلوب، وذلك بما دس فيها الأعداء، وما شوهوها به من تأويل باطل، وتحريف سخيف قضى عليها، وأماتها فى نفوسهم أو كاد.

وهذا من أشد ما يملأ النفس أسى وحزناً، إن أعداء المسلمين ما زالوا يفسدون عليهم عقائدهم، ويشككونهم فيها حتى تخلوا عنها، فضعفوا لذلك، وهانوا، ثم انبرى أولئك الأعداء يقولون: إن ضعف المسلمين كان من جراء عقائدهم التى يعيشون عليها معتقدينها، منفعلين بها، مستجيبين لها، ومن المؤسف حقاً أن أكثر المسلمين ما زالوا إلى اليوم لم يصرفوا داءهم، ولا ما كادهم به أعداؤهم؛ إذ إننا نرى كثيراً منهم يلوك بلسانه عقيدة القضاء والقدر، ويحتج بها مرة على فسقه وتهربه من مسئولياته، ومرة يتجنى بها على الله تعالى ربه وخالقه ومدبر أمره، وميسره إلى ما خلقه له. فينسب إليه تعالى الظلم، ويعترض عليه فى قضائه، ومجارى أقداره، وعادل أحكامه.

ومن هنا رأيت العناية ببحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن واجبة، لما عسى أن ينفع الله به من يقرؤه أو يسمعه ممن هم فى بلبلة فكر، واضطراب نفسى من عقيدة القضاء والقدر، فينقطع بلبال أفكارهم، ويزول اضطراب نفوسهم، فيؤمنون ويرضون، ويعملون بطاعة الله ورسوله فينجون ويسعدون.

وبين يدي بحث هذا الجزء من عقيدة المؤمن وهو القضاء والقدر أقدم ثلاث كلمات تمهيدية قد تساعد على فهم هذا المعتقد، وتسهل الوصول إلى إدراك حقيقته.



الكون ومظاهر التنظيم فيه

إن كلمة الكون تعنى هذا الوجود من العوالم العلوية والسفلية كالأرض والسماء وما فيهما وما بينهما، وهو كون هائل عظيم يحوى عوالم كثيرة لا تحصى عدداً ولا يحاط بها حداً، كل عالم منها يقف العقل البشرى أمامه حائراً مشدوهاً، ففى سمائنا الدنيا هذه وحدها بلايين الكواكب والنجوم، تختلف فى أحجامها وأبعادها وقوانين سيرها، كما تختلف فى أجرامها، ومحتوياتها، وخصائصها.

وفى أرضنا هذه التى نعيش عليها عوالم لا تقل عظمة وروعة عن العوالم العلوية. ففى عالم الإنسان، كعالم الحيوان، كعالم النبات عجائب كثيرة فى الخلق، وعجائب فى العدد والكثرة، وعجائب فى الخصائص والطباع.

وكل هذا الكون الضخم العجيب قد ربطت بين أجزائه كلها العلوية والسفلية أنظمة من السنن الإلهية الدقيقة المدهشة، فسار الكون كله متحداً متناسقاً إلى غاية لم ينته إليها بعد، إذا ما وصلها يكون قد استنفد طاقته وانتهى. قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجْلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ (الأنعام: 2).

هذا الكون المدهش المحير تجرى فيه حوادث هائلة عظيمة، كل حادثة منها لها عواملها، وأسبابها، ومقتضياتها الخاصة بها، فدورة الأفلاك، وسير الكواكب، وهبوب الرياح، واختلافها، وتراكم السحب، وسقوط الأمطار، ونبات الزروع، وتوالد الإنسان والحيوان، وما يتجدد من موت وحياة - كل هذا خاضع لسنن تحكمه فتقوده لحكم عالية، وأغراض صالحة سامية، فليس بين هذه الأحداث والحوادث الجارية فى الكون ما هو عار عن حكمة متوخاة ولا ما هو جار على غير قانون ثابت يربطه بكل أجزاء الحياة.

ومن أجل هذا التنظيم السارى فى كل أجزاء هذا الكون ما شك الذين أوتوا العلم فى أن رب هذا الكون جل جلاله وعظم سلطانه قيد علمه قبل خلقه كلاً وتفصيلاً، ووضع هذا النظام الذى يحكمه قبل وجوده، ثم ربطه به بعد أن أوجده فهو يسير فيه، لا يتخلف عنه ولا يخرج، وهذا النظام هو سر اطراد الحياة الدنيا، وبقائها إلى أجلها الذى تنتهى إليه - وهو بالتالى نظام القضاء والقدر الذى دعت رسل الله جميعاً إلى الإيمان به والرضى بكل مجاريه خيره وشره على حد سواء.

الثانية: كيف كان الكون موجوداً ؟

الوجود قائم لا معنى لإنكاره، ولا حاجة إلى إقامة الدليل على وجوده، وإنما المسألة التي شغلت أذهان الباحثين فيه قديماً وحديثاً هي مسألة قدم العالم وحدوثه، أى هل الوجود قديم أزلى أو حادث سبقه عدم، وطراً عليه وجود ؟

إن أكثر علماء البشر قد أطبقوا على حدوث العالم ؛ وذلك لعدة التغير، والكون أو الوجود متغير فهو إذاً حادث غير أزلى قطعاً، هكذا كان استدلال العلماء على حدوث العالم، واستمر كما هو إلى القرن التاسع عشر الميلادي، وحتى اكتشاف قانون الطاقة المتاحة والذي أثبت بما لا مجال للشك فيه - كما يقول علماء الكون اليوم - أن العالم لم يكن أزلياً أبداً وإنما هو حادث مخلوق كما لم يكن أبدياً بل لابد له من نهاية حتماً، وسر ذلك أن الطاقة الحرارية المتاحة تنتقل دائماً من جسم حرارى إلى آخر على خلافه، ولا يمكن أن يكون العكس، فهذه الطاقة المتاحة لابد وأن يكون هناك من أتاحها أولاً ؛ إذ العدم السابق لا ينتج شيئاً فتعين أن يكون خالقه أزلياً، وبهذا يبطل أن يكون الوجود أزلياً كما ادعى بعض الفلاسفة الملحدون ولزم أن يكون حادثاً له بداية، ولما كان له بداية كان له نهاية حتماً.

وعند تقرير هذه الحقيقة العلمية يقول أحد علماء الغرب: وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله ؛ لأن كل شيء ذى بداية لا يمكن أن يتبدى بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى المبدئ الأول وهو الإله الخالق سبحانه وتعالى، وفي القرآن الكريم مصداق هذا حيث جاء فيه قول الله تعالى: ﴿ سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمُ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت: 53).

بحكم هذا القانون السابق الذكر وهو انتقال الطاقة من الأجسام الحرارية إلى غيرها، وهى عملية مستمرة فإن هذه الطاقة ستنفد فى يوم من الأيام وعندها تنتهى هذه الحياة، هكذا يقول علماء الكون، وهى نظرية سليمة، غير أن نهاية الحياة أخبر عنها خالقها بأنها تكون عند نهاية الأجل المسمى لها، ولا تكون بفقد الطاقة الحرارية، ولكن باختلال الأفلاك، كما قال تعالى فى كتابه العزيز: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لَوْفَعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (٤) وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا (٥) فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًا ﴾ (الواقعة: 1 - 6). و ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢) وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴾ (التكوير: 1 - 3). و ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ ﴾ (الانفطار: 1، 2). بيد أن أولئك العلماء حسبهم أنهم قد أثبتوا بطريقتهم

العلمية الخاصة حدوث العالم، وعدم أبديته، وأنه لا بد من فناءه، ونهاية هذه الحياة الدنيا. وبعد هذا فإن السؤال الملح هو كيف كان بدء الوجود؟ أو كيف كان هذا الكون؟ وعند الجواب عن هذا السؤال انقطعت ألسنة الماديين من كونييين ومن غيرهم، فلم يحاروا جواباً، وأتى لهم أن يجيبوا بشيء سوى الهوس، والتخمين، والحدس، أو الظن، والكذب، والخرص، ومن تلك الظنون والتخرصات قول بعضهم: إن الأرض قد انفصلت عن الشمس شرارة ملتهبة، ثم بردت بعد ملايين السنين، وتحجرت، وأصبحت ذات قشرة ترابية، فتهيأت بذلك للخلق، والحياة عليها.

وأما الحياة فإنهم يقولون: إنها بدأت خلية بسيطة، ثم أخذت تتطور وتتكاثر حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن، ثم لو سئلوا وقيل لهم: إذا كانت الأرض قد انفصلت عن الشمس، والشمس وسائر الكواكب والنجوم - وهي ملايين بتقدير اتكم أنفسكم - عم كان انفصالها؟

وحلية الحياة، وهم يقولون: إنه لا يبعد أن تكون قد جاءت في شكل جرثومة من بعض الكواكب الأخرى، لم لا تكون خلية أخرى إذا قد وقعت على كوكب آخر كالقمر مثلاً، وغت فيه كما نمت على الأرض، وأصبح في ذلك الكوكب عالم من الأحياء كعالمنا هذا؟ مع أنهم يقولون: إن القمر خال من الحياة تماماً بناء على ما ادعوه من مشاهدة سطح القمر عند نزولهم على سطحه كما يزعمون!! والحمد لله القائل: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتَ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ (الكهف: 51).

فقد أغنى الله سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن هذه الهواجس، والوساوس، والظنون، والتخرصات حيث أخبر تعالى وهو الخالق عن كيفية خلق الكون، وكفى بمن خلق مخبراً وكيف لا يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير؟ إذ يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٠) وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (الأنبياء: 30 - 33). وقال: ﴿قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ

سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿فصلت: 9-12﴾.

هذا خبره تعالى عن خلق الكون، وأما عن خلق الإنسان، والجان، والحيوان، والنبات فيقول تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ﴾ (الرحمن: 14، 15). ويقول: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦) وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر: 26، 27). ويقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: 45). ويقول: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبَا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَعَامِلَكُمْ﴾ (عبس: 24-32).

أين هذا الإيمان الواقى، والقول الشافى، والنبأ اليقين فى خلق الإنسان والكون، من ذلك الهراء الخواء، والخرص والتخمين، بل الكذب والإفك المبين؟؟ إن ما بينهما كما بين الوجود والعدم، والسمع والصمم!!

وأين هؤلاء من أولئك؟!!

هؤلاء هُدُوا بإيمانهم لمعرفة الحق فعرفوه، وقبلوه، وسكنت له نفوسهم، وآثروه، وأولئك ضلوا بكفرهم، فآثروا العمى على الهدى، فعارضوا العلم الحق بالشبهات، وردوا اليقين بالشك والمبين⁽¹⁾.

المؤمنون أضاء لهم نور الوحي المبين، فأروا فى نوره أهل الظلمات فى آرائهم يعمهون، وفى ضلالتهم يتهوكون⁽²⁾، وفى ربهم يترددون. والكافرون لاح لهم فى بیداء الهوى سراب، فجزوا وراءه ظانين أنه الحكمة وفصل الخطاب، ولما انتهوا إليه بعد كلال، وجدوه خيبة آمال وسوء مآل، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَاءَ حِسَابِهِ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾ (النور: 39، 40).

(1) المين بفتح الميم، وسكون الياء: الكذب، ومنه قولهم: أكثر الظنون ميون.

(2) العمه والتهوك: كلاهما بمعنى التحير والتردد.

الثالثة:

لقد أصبح معلوماً بالضرورة لدى العالمين بأحوال الكون أن الكون كله علويه وسفليه مربوط بنظام دقيق هو غاية في الدقة، فمن أكبر حجم فيه - كوكب الشمس مثلاً - إلى أصغر شيء - كنواة الذرة - الكل مشدود بقوانين عجيبة، ومحكوم بسنن ثابتة لا تتبدل ولا تتغير، كما صرح بذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: 43).

ولو فرض أن سنة من تلك السنن التي تربط الكون قد اختلت لخرب العالم أجمع.

ففى العالم العلوى مثلاً لو أن خللاً طرأ على النظام الشمسى بخروج بعض الكواكب عن مسارها، واصطدامها ببعض الكواكب الأخرى لكانت نهاية العالم حتماً، ولو أن حرارة الشمس زادت نسبتها على ما هى عليه الآن بعض الزيادة، أو نقصت على ما هى عليه بعض النقصان لما أمكن الحياة على الأرض للاحتراق الذى يصيبها فى الحالة الأولى، أو التجمد الذى يصيبها فى الحالة الثانية.

هذا فى العالم العلوى، وفى العالم السفلى لو أن نسبة الأكسجين وهى واحد وعشرون فى المائة (21%) زادت على نسبة الهواء فكانت خمسين مثلاً لاحترق كل شيء قابل للاحتراق.

كما أنها لو نقصت عن هذه النسبة المحددة لاختنق البشر، وهلك الناس، هذا مجرد مثال سقناه للأنظمة العامة التى أوجدها الله سبحانه وتعالى فى هذا الكون وربط بها الحياة، وجعلها متوقفة عليها. وأما النظام الخاص والموضوع لكل كائن فى الحياة فهو نظام مدهش جداً، إنه يوجد لكل كائن سنن خاصة به فى وجوده ونشأته، وتطور حياته، وفى طرق معاشه، واكتساب رزقه، وسنن تناسله، وحفظ نوعه، وكيفية موته وفنائه، وأكثر هذه السنن الخاصة بالأحياء معلومة لمن تأملها، وفكر فيها. ومن هذه السنن أذكر على سبيل المثال ثلاث سنن من سنن اللقاح فى الإنسان والحيوان، والنبات، فأقول:

إن الميل الفطرى الذى يعجده الرجل إلى امرأته، والمرأة إلى زوجها، وذلك الغشيان الخاص للنسل، وحفظ النوع عمل يتم وفق سنة موضوعة للإنسان لحفظ نوعه.

ومن أجل تحقيق تعاون بين الزوجين ينتج عنه حفظ الأولاد، وتربيتهم توجد الظاهرة التالية، وهى أن الرجل يبقى فى حاجة إلى غشيان المرأة حتى فى حال حبليها، بخلاف الحيوان؛ فإنه إذا حبلت أنثاه عافها وتركها مما يدل على أنه مفطور على إتيانها لا لغريزة الشهوة المركبة فيه كما هو الظاهر فقط، وإنما للنسل، والذى بواسطته يتوفر للإنسان غذاؤه من اللحم، واللبن

ومشتقاته، والصوف والوبر، والشعر لفراشه ولباسه، فى حين أن الحيوان ينصرف عن أنثاه فى حال حبها، وتنقطع المودة بينهما، وذلك لعدم الحاجة إلى التعاون بينهما على تربية الولد، وحفظه كما هى الحال فى الإنسان فى تربية أولاده وحفظهم، ولعل هذه الظاهرة قد توجد فى الحيوان الذى يفتقر إليه ولده فى تربيته وحفظه إلى أمد معين، فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، هذا فى الإنسان والحيوان، وإنه ل يبدو معقولا، مقبولا. أما فى النبات فإنه لم يأخذنى العجب من شىء فى ظواهر هذا الكون كما أخذنى من ظاهرة كيفية عملية لقاح شجر التين، وحقاً إنها لظاهرة جد عجيبة، تأخذ بلب المتأمل فيها، وبكل مشاعر الناظر إليها:

إنه يوجد فى نوع شجر التين شجر منه يعرف بذكر التين، وفى أوساط الربيع وبعدما يورق كل من ذكره وأنثاه يُخرج كل منهما حباً صغيراً هو ثمره المعتاد، غير أن الملاحظ فى ذلك أن حب الذكر يكبر بسرعة حتى إذا ما تهيأت الأنثى للقاح حسب سنة الله تعالى فيه كان حب الذكر قد ينع، فيأخذ الفلاح ثمرة الذكر الياقة فيعلقها بأغصان الشجرة الأنثى، فيخرج من حبة الذكر المعلقة ذباب صغير فى غاية الصغر، ويعرف ذلك الذباب طريقه إلى حبة الأنثى فيدخل فى مكان على سطحها قد أعد لذلك هو أشبه ما يكون بفرج حيوان، فيدخل ذلك الذباب حاملاً معه مادة بيضاء قد علقته بجسمه الصغير ثم يخرج منها بعد أن يكون أتم عملية التلقيح، ليدخل فى حبة أخرى ليلقحها وهكذا حتى يلقيح عدداً كثيراً من حبات التين الصغيرة المهيأة للتلقيح، وبعدها يموت ذلك الذباب وقد أتم مهمته التى خلقه الله تعالى لها، هكذا تتم هذه العملية المعقدة العجيبة التى هى من أقوى البراهين على وجود الله تعالى، وقدرته، وعلمه، وتديره، فسبحان من أعطى كل شىء خلقه ثم هدى، لا إله إلا هو ولا رب سواه.

والآن ونحن فى غاية التأثر والإعجاب بهذه الظاهرة الكونية فى لقاح شجر التين لا يسعنا إلا أن نسجل كلمة نستودعها الله تبارك وتعالى ليردها علينا يوم القيامة فينفعنا بها وهى أن ظاهرة كهذه فى لقاح هذا الشجر الطيب المبارك يستحيل أن تتم بالضرورة، أو الصدفة، أو الطبيعة كما يقول الملاحدة والطبيعيون، وإنما تتم بخلق وتقدير، وتدير خلاق عليم، مدبر حكيم، هو الله رب العالمين، رب السموات والأرض وما بينهما، ورب كل شىء ومليكه الذى أشهد شهادة علم ويقين: أنه الله الذى لا إله إلا هو القائم بالقسط، العزيز الحكيم. اللهم إنا نستودعك هذه الشهادة فهى لنا عندك وديعة تردها علينا يوم القيامة. وأخيراً فهذا النظام فى الكون كله علويه وسفليه لم يكن إلا نتيجة قدر وعلم سبقاه، فكان كل شىء فى هذا الكون يتم على مقتضى ذلك التقدير الأزلئ القديم الذى هو القضاء والقدر، والذى لا يتم إيمان عبد إلا به والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

القضاء والقدر

ولكى يسهل علينا معرفة القضاء والقدر ينبغي أن نرجع بالذاكرة إلى تلك الكلمات الثلاث التي قدمناها تمهيداً لبحث القضاء والقدر، وما أوردنا فيها من كلام في خلق الكون والنظام الذي رُبط به، والسنن التي تحكم كل أجزائه وما وقفنا عليه من عجيب الخلق والتدبير في هذا الكون كله: في الإنسان، والحيوان في النبات والجمادات، لقد رأينا أن النظام الشمسي في غاية الدقة إذ لكل كوكب بل لكل نجم من النجوم - وهي بلايين - مساره الذي يسير فيه، ومداره الذي يدور عليه، وذلك على مر هذه الحياة الطويلة، ولم يقع أن خرج كوكب عن مداره الذي يدور عليه، ولا نجم عن مساره الذي يسير فيه، إذ لو وقع ذلك لانتهى العالم من الوجود.

كما رأينا سنن الله تعالى في حياة الإنسان، والحيوان، والنبات نشوءاً، وتطوراً، ونماء، وبقاء، وفناء، وأن ذلك مربوط بسنن لا تتبدل، وبذلك انتظمت الحياة فهي تسير إلى غاياتها المحدودة لها، وعرفنا أن هذا هو سر القدر وتفسيره.

ومن هنا صح لنا أن نُعرف القدر والقضاء بأنهما: علم الله تعالى الأزلى بكل ما أراد إيجاده من العوالم، والخلائق، والأحداث، والأشياء، وتقدير ذلك الخلق، وكتابته في الذكر الذي هو اللوح المحفوظ، كما هو حين يقضى بوجوده في كميته، وكيفيته، وصفته، وزمانه، ومكانه، وأسبابه، ومقدماته، ونتائجه بحيث لا يتأخر شيء من ذلك عن إبانته⁽¹⁾، ولا يتقدم عما حدد له من زمان، ولا يتبدل في كميته بزيادة أو نقصان، ولا يتغير في هيئة ولا صفة بحال من الأحوال، وذلك:

أولاً: لسعة علم الله تعالى الذي علم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، وعظيم قدرته عز وجل التي لا يحدها شيء، ولا يعجزها آخر، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وثانياً: لربطه تعالى الوجود كله بقانون السنن الذي يحكم كل أجزاء الكون علويه وسفليه على حد سواء، هذان هما القضاء والقدر اللذان لا ينكرهما إلا مكابر مجاحد، أو جاهل معاند، إذ هما يتجليان في شكل قوانين ثابتة تشمل كل كائن في هذا الوجود من الفلك إلى النور والحلك، ومن الإنسان إلى الحيوان، ومن النباتات إلى الجمادات.

ولنستمع بأذان صاغية إلى الخلاق العليم، والصانع الحكيم سبحانه وتعالى وهو يخبر عن قدرته وحكمته فيه⁽²⁾، ومشيتته له، وقضائه به: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ

(1) الإبان: بتشديد الباء الموحدة التحتية: الوقت والزمن الذي يوجد فيه الشيء.

(2) الضمير في «فيه» عائد إلى القدر.

إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ (الحديد: 22). ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾﴾ (الحجر: 19-21)، ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ (القمر: 49). ﴿ثُمَّ جِئْت عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ طه: 40﴾. ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ (الفرقان: 2)، ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ (الأحزاب: 38). ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾﴾ (الأعلى: 1-3).

هذا ولم ينكر القدر؟ والإنسان المخلوق المحكوم بقوانين القدر التي لا يستطيع أن يخرج عنها بحال من الأحوال، لا ينكر عليه إذا أراد أن يبنى منزلاً أن يرسم له صورة كاملة على ورقة صغيرة، ثم يأخذ في بنائه، فيخرجه إن كان ذا قدرة وعلم كافيين، صورة طبق الأصل، فلا يختلف شيء مما قدره فيه، ولا يختلف فيه شيء عما رسمه له.

إذا كان الإنسان على ضعفه وعجزه لا يُستغرب منه ذلك، بل يُحمد عليه، ويثنى عليه به، فكيف يستغرب مثل ذلك من الله الخلاق العليم ذي القوة المتين!!؟

وإذا فكيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نذكر هنا أن القدر قد ران: قدر سلمه، وآمن به كل المؤمنين بالله تعالى، ولم ينكره أحد، أو يمار فيه آخر، وهذا النوع من القدر هو ما كان مثل خلق العالم، وما فيه من سنن، وما يجري فيه من أحداث كالحياة والموت، والقحط والجذب، وما ينزل بالإنسان من مصائب لم يتسبب هو فيها، ولم يكن له قدرة بحال على دفعها، وذلك ككونه يولد جميلاً أو دميماً، وطويلاً أو قصيراً، وفي زمن كذا دون غيره من الأزمنة، وفي بلد كذا دون غيره من البلاد مثلاً.

وككون القضاء مضى بسعادة المرء أو شقائه، كما مضى بتحديد رزقه وأجله، فهذا النوع من القدر هو من مراد قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِّن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ (الحديد: 22).

وقول الرسول ﷺ لابن عباس رضيهما «واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف»^(١) وهذا النوع من القدر كما يجب الإيمان به،

(١) رواه الترمذی (قیامة/ 59)، وأحمد (1/ 293)، وابن أبي عاصم فی کتاب السنة.

يجب الرضى به، والتسليم لله تعالى فيه - فإنه على وفق رضى الله تعالى، وبناء على مشيئته وحكمته وواقع على أساس تدبيره للملكه وخلقه، وإنه ما من حادثة تحدث فى الكون إلا والله تعالى فيها حكمة، عالية مقصودة، ومن هنا قبح بالمرء أن يتبرم من هذه الأحداث المقدرة له، كما جمل به أن يقابلها بكامل الرضى، ومطلق التسليم.

ثمرة الرضا بالقضاء

وللرضا بهذا القضاء نتائج سارة، وثمرات طيبة، ومن تلك النتائج السارة والثمرات الطيبة أنه يكسب صاحبه قوة الشكيمة، ومضاء العزيمة؛ إذ من اطمأنت نفسه إلى أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه - خلت أعماله من الحيرة والتردد، وانتفى من حياته القلق والاضطراب؛ لأنه بمجرد ما يترجح لديه الإقدام على أمر ما أقدم عليه فى غير ما خوف، ولا هيبة، ولا تردد، ومن هنا فإنه لا يحزن على ماض، ولا يغتم لحاضر، ولا يؤلمه هم المستقبل، وبذلك يكون أسعد الناس حالاً وأطيبهم نفساً، وأصلحهم بالاً، وأهدأهم خاطراً، ومنها أيضاً أنه يكون من أشجع الناس عقلاً وقلباً، وأكرمهم قولاً ونفساً؛ إذ من عرف أن أجله محدود، ورزقه معدود فلا الجبن يزيد فى عمره، ولا الشح يزيد فى رزقه، نافس فى البطولات وسابق فى المكرمات.

وما لاشك فيه أن هذه الصفات قد تجلت واضحة فى هذه الأمة، أمة الإسلام أيام كانت عقيدة القضاء والقدر واضحة فى نفوسهم، قوية فى قلوبهم فقد فاقوا الناس شجاعة وكرماً، وصبراً وحلماً، ومعرفة وعلماً، الأمر الذى تمكنوا به من سيادة العالم وقيادته مدة من الزمن طويلة غير قصيرة.

والآن يحسن بنا أن نحيب عن السؤال الذى أرجأنا الإجابة عنه وهو: كيف وجد من ينكر القدر ويجادل فيه؟ فنقول: لقد علمنا من الكلمة التى استطردناها هنا عند إرجائنا الإجابة عن هذا السؤال أن القدر الذى وجد بين المسلمين من ينكره ويجادل فيه ليس هو القدر العام الذى يشمل الكون كله وما يجرى فيه من أحداث لا يد للإنسان فيها، ولا قدرة له على دفعها أو تغييرها؛ إذ هى جارية على نظام السنن التى يقول الله تعالى فيها: ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ (فاطر: 43). وإنما هو القدر الخاص المتعلق بأفعال العباد، حسننها وسيئها، صالحها وفاسدها، وأول ما ظهر القول فيه على عهد عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الراشد، وذلك فى حدود المائة الأولى من الهجرة، قال به وأظهره ودعا إليه غيلان الدمشقى حتى قتله هشام بن عبد الملك، وهذا لا ينافى ما روى من أن القول بنفى القدر كان فى أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم؛

إذ ما قيل في تلك الأيام لم يعد كونه مجرد قول قاله فرد، أو أفراد فأنكره عليهم من وجد من أصحاب رسول الله ﷺ كابن عمر، وابن عباس رضيهما الله عنهما حتى قضوا عليه، وأحمدوا نار فتنته إلى حين. ونفى أولئك النفر للقدر معناه: أن الأمور المتعلقة بأفعال العباد لم تقض أزلاً، ولم تكتب في كتاب المقادير⁽¹⁾ ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها، ويبدو أن الطائفة التي قالت بنفى القدر بهذا المعنى قد دحضت حجتها، وذهب باطلها وانتهت نهائياً من الوجود؛ لأن نصوص الكتاب والسنة في إثبات القدر الخاص والعام متكاثرة متضافرة بحيث يُعد منكرها كافراً لا مقام له بين المسلمين، وها نحن نورد تلك النصوص تسجيلاً لها في هذا المقام بهذه المناسبة ليرتادها القلب كلما رانت عليه آثار الشبه التي لا تبرح تمر بالقلب، وتوجد حوله للإغواء والفتنة، ومن تلك النصوص قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر: 49). وقوله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان: 2). وقوله: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسُوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَرَ فَهَدَى (٣)﴾ (الأعلى: 1 - 3). وقوله: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: 22).

وقول الرسول ﷺ في رواية لمسلم: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشه على الماء»⁽²⁾، وقوله ﷺ في رواية للبخاري: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض، وكتب في الذكر كل شيء»⁽³⁾ وقوله ﷺ في رواية أبي داود: «أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب. فقال: رب ماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»⁽⁴⁾، وقوله ﷺ لبعض أهل بيته وقد لاموا أنساً في بعض تقصيره في إحضار شيء طلبوه منه: «دعوه فلو قضى شيء لكان»⁽⁵⁾ وقول ابن عمر رضيهما الله عنهما في صحيح مسلم وقد أخبر بأن ناساً يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف⁽⁶⁾، قوله لمن أخبره بذلك: «إذا لقيت هؤلاء فأخبرهم أني برىء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفق في سبيل الله ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»⁽⁷⁾، وقد

(1) المراد من كتاب المقادير: اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شيء.

(2) مسلم (51/8). (3) البخاري (152/9)، والمراد بالذكر اللوح المحفوظ.

(4) أبو داود (527/2، 528)، وكذا رواه الترمذي (قدر/17)، وأحمد (317/5).

(5) هذه الرواية ذكرها ابن القيم في كتاب القدر وهي ضعيفة سنداً، والحديث رواه أحمد (231/3)، عن أنس رضي الله عنه بلفظ: «خدمت النبي ﷺ عشرين سنة فما أمرني بأمر فتوانيت عنه أو ضيعته فلامني فإن

لامني أحد من أهله إلا قال: «دعوه فلو قدر - أو قال: قضى - أن يكون كان».

(6) الأنف: المستجد الذي لم يسبق به علم الله ولا قدره. (7) مسلم (28/1).

تقدم حديث ابن عباس عند الترمذى وفيه قوله ﷺ: «رفعت الأقاليم، وجفت الصحف». غير أنه قد وجد فيما بعد من يقول بنفى القدر عن أفعال العباد، فزعم أن العبد يخلق أفعاله بنفسه، وأن الله تعالى لا دخل له فى ذلك، ولا عمل، وأن أفعال العباد لم تقدر ولم يعلمها الله تعالى قبل وجودها، وقالوا: كيف يفعل الله القبيح وهو ينهى عنه ويحرمه، وهذا هو أساس شبهتهم التى بنوا عليها مذهبهم فى كون الله تعالى لم يخلق أفعال العباد ولم يقدرها لهم أو عليهم، وإنما العبد وحده هو الخالق لأفعاله. وأضافوا إلى شبهتهم هذه شبهة أخرى وهى قولهم: كيف يخلق الله أفعال العباد ثم يعاقبهم عليها؟ وأصبحوا بهذا يعرفون بالقدرية، أى نفاة القدر، ولزمهم أن العبد ما دام يستقل بخلق أفعاله فقد أصبح رباً يخلق ما أراد أن يخلق من الأفعال، وبطل بذلك التوحيد الذى هو أصل الدين وأساسه، ومن هنا سموا بمجوس هذه الأمة؛ لتعدد الخالقين بحسب مذهبهم فى أن الإنسان خالق أفعاله بمقتضى قدرته وعلمه لا بمقتضى قدرة الله وعلمه.

الجبر وحقيقته

وعلى العكس من نفاة القدر كانت طائفة الجبرية من المعتزلة، وأول من ظهر منهم الجعد بن درهم، وكان قد تلقى مذهب الجبر من يهودى من يهود الشام، وتلقاه عنه الجهم بن صفوان رئيس الطائفة الجهمية نفاة الصفات المعطلين.

ومما تجدر الإشارة إليه أن مذهب القدر كمذهب الجبر كليهما من صنع اليهود، لإفساد عقيدة المسلمين؛ إذ سبق أن ذكرنا أن أول من قال بنفى القدر غيلان الدمشقى الذى قتله هشام بن عبد الملك فلا يبعد أن يكون غيلان هذا قد تلقاه من يهود الشام أيضاً.

وحقيقة الجبر: أن الإنسان لا يخلق أفعاله، ولا ينبغى أن تنسب إليه إلا على سبيل المجاز؛ فهى نسبة فعل لا نسبة إرادة واختيار؛ إذ هى أفعال الله تعالى، أجراها على يد العبد بدون إرادة من العبد؛ ولا اختيار؛ ولزم هذه العقيدة أن العبد غير مؤاخذ على أفعاله، وأنه لا يعاب منه فعل، ولا يلام عليه، ولو كان فى غاية القبح والفساد، ولذا كان هذا المذهب أفسد وأشدّ شراً من سابقه الذى هو مذهب القدريّة والذى ينبغى الإشارة إليه هنا هو أن عقيدة الجبر بالرغم من كونها أكثر ضرراً وفساداً من عقيدة نفى القدر فقد ظلت ظاهرة فى المسلمين، سارية فيهم وبدون إرادة منهم لها، ولا رغبة فيها، ولعل السبب يعود فى ذلك إلى أن عقيدة الجبر هذه تلقى

التبعة عن العبد فيما يرتكب من المعاصي، وفيما يقارف من الذنوب، وتجعله معذوراً أمام نفسه، حتى قال بعض ضحايا هذا المعتقد الخطير:

أصبحتُ منفعلاً لما يختاره منى ففعلنى كلُّه طاعاتُ

وكم قعد هذا المعتقد الخاطئ الفاسد بكثير من المسلمين عن العمل الجاد النافع فضعفوا، وهانوا، وأصيبوا بكل قاصمة للظهر، حتى أصبحوا المثل في العجز والكسل، والتخلف في ميادين العمل والإنتاج. ووجد - بسببهم - العدو الكافر مجالاً للطعن في عقيدة الإسلام والاحتجاج على المسلمين فيما أصابهم. ونزل بهم سلوك هؤلاء الذين قتلهم مذهب الجبر، وأفسد عليهم دينهم ودنياهم، فأصبحوا يرون أحياءهم أمواتاً ويبررون موتهم وقعودهم عن كل خير يكسبه غيرهم، ويسعد به في حياته يبررونه بمثل قول شاعرهم:

جرى قلمُ القضاء بما يكون فسيان⁽¹⁾ الترحُّلُ والسكونُ

جنون بك أن تسعى لرزقك ويرزق في غيابه⁽²⁾ الجنين

فلننظر كيف تحول مذهب الجبر إلى مذهب معطل قاتل، لا يقود أهله إلا إلى خسران الدنيا والآخرة. أرايت لو أخذ الناس كلهم بهذا المذهب ماذا كان يحدث للحياة؟ كانت تنتهى وكفى!!

فسبحان الله! ماذا يفعل التضليل بالناس! وهذا شأن كل المذاهب الهدامة التي هبطت بالإنسان إلى منزلة الحيوان، وبالتأمل يظهر لنا أن جميع المذاهب الهدامة، المدمرة في العالم كانت من صنع اليهود الحاقدين على البشرية، الناقمين عليها، ومن هنا فإنى لا أشك أن مذهب الجبر كمذهب القدر، كمذهب التشيع كأكثر طرق التصوف الكل طبخ في مطابخ اليهود، وقدم طعاماً مسموماً للمسلمين ليموتوا به، ويهلكوا عليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والآن حان لنا أن نعرض عقيدة القدر والقضاء عرضاً أكثر وضوحاً وتحديداً من ذى قبل وتحت عنوان:

(1) سيان: بمعنى مُستَو.

(2) غيابه: ظلمة الرحم.

لا جبر ولا نفي للقدر

الإنسان فاعل مختار

والله خالق الإنسان وخالق أفعاله

إنه قد صعب على غير الموفقين من الناس التوفيق بين كون الإنسان فاعلاً لأفعاله، مريداً لها، مختاراً فيها، مهياً للثواب عليها إن كانت خيراً، وللعقاب عليها إن كانت شراً، وبين كون الله تعالى هو خالقه وخالق أفعاله خيرها وشرها، مع اعتقاد الله، وتنزيهه عن الظلم.

ومن هنا انقسموا فرقاً فقالت فرقة منهم: إن العبد هو خالق أفعاله بنفسه، وليس لله تعالى فيها دخل البتة، واعتذروا بكون أفعال الإنسان منها ما هو شر وقبيح يُنزه الله تعالى عنه، ولا تجوز نسبته إليه، فالتزموا بناء على هذا المذهب بمبدأ نفي القدر عن أفعال العباد، أى لم يعلمها الله تعالى أزلاً، ولم يقدرها، ولم تكتب في الذكر (كتاب المقادير)؛ ولزمهم في معتقدهم هذا أن يكون للكون غير خالق واحد، وهو رد صريح لقول الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ (الأعراف: 54). وقوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الصافات: 96). وقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: 102).

فكانوا بهذا مجوساً لإثباتهم خالقين مع الله تعالى في الكون، وقد روى أحمد وأبو داود بسند حسن أن النبي ﷺ قال: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»⁽¹⁾.

وقالت فرقة أخرى بعكس ما قالت الأولى، فكانوا على النقيض معهم: إذ قالوا:-

إن العبد لا إرادة له في أفعاله ولا اختيار، وليس هو بالفاعل على الحقيقة أبداً، وإنما الفاعل هو الله عز وجل. وما ورد في القرآن من نسبة الفعل إلى العبد كقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ (البقرة: 197). وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ (النحل: 91). إلى غير ذلك من الآيات التي تسند الفعل إلى العبد خيراً كان أو شراً، إنما هي نسبة مجازية علاقتها السببية ولم تكن نسبة حقيقية أبداً. إن هي إلا أفعال الله تعالى أجراها على يد العبد، والعبد مجبور عليها، غير مريد لها. ولا اختيار له في فعلها أو تركها. ولزمهم بذلك أن لا يكون في فعل العبد حسن ولا قبح، ولا خير ولا شر، وبالتالي فلا حساب عليها ولا عقاب. وبناء على مذهبهم هذا فإنه

(1) أبو داود (2/ 24، 25)، وأحمد (2/ 86، 125)، والفتح الرباني (1/ 140، 141)، وابن ماجه (مقدمة/ 10).

لم يبق من معنى لبعثة الرسل، وإنزال الكتب، ووضع الشرائع، ومن هنا كان هذا المذهب - الجبر والتعطيل - أسوأ، وأفسد، وأقبح من القدرية «نفاة القدر».

وقال فريق ثالث: إنه ما دام الله تبارك وتعالى قد نفى الظلم عن نفسه في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا﴾ (النساء: 40).

وحرمه على نفسه وعلى عباده في قوله في حديث مسلم القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا» (1).

فكيف يجوز إذاً عقلاً أن يكتب على العبد أزلاً أعماله ليقوم بها حتماً، ثم يؤاخذ به عليها؟ بل ذهبوا إلى أكثر من هذا القول بشاعة وقبحاً فقالوا: ما دام الله تعالى قد علم مصير العبد، وقرره، حيث قدره بكتابته في كتاب المقادير العام (اللوحة المحفوظ)، وأصبح العبد لا محالة صائراً إليه شاء أم أبى، أحب أم كره، فكيف يؤمر العبد إذاً وينهى، ويُطالب بفعل الطاعات، وترك المعاصي، والأمر قد بُت فيه، وفرغ منه، إنما يؤمر وينهى من لم يحدد له مصير، وتقرر له نهاية، فمثل هذا يؤمر وينهى ليتقرر مصيره بحسب استجابته لما أمر به ونُهي عنه، وعدمها.

(الإبليسية)

هذا ملخص هذا المذهب الثالث، وإنه يبدو أن أصحابه مترددون بين إثبات القدر ونفيه، والقول بالجبر وعدمه، ولزمهم في مذهبهم هذا ما أصبحوا به شرّاً من إبليس ألا وهو الاعتراض على الله تعالى، ونسبة الظلم إليه وهو المنزه عن الظلم، البعيد عن كل نقص سبحانه لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وأخيراً ينبغي أن تسمى هذه الفرقة الحيرى المترددة (بالإبليسية) وإن كانت شرّاً من إبليس. وهدى الله أهل الإيمان والتقوى إلى الحق الذي اختلفت فيه تلك الفرق فضلت عنه وجانبتة، وعاشت بعيدة عنه، وهى ما بين مجوسية نافية لأقدار الله تعالى، مثبتة باطلاً خالقين متعددين في العالم، في حين أنه لا خالق إلا الله سبحانه وتعالى.

وبين جبرية معطلة للشرع، منكرة للعقل، وبين إبليسية معترضة على الله تعالى في قدره، نافية لمشيئته، وحكمته شاكة في عدله ورحمة قضائه.

هداهم - أهل الإيمان والتقوى - إلى الحق بإذنه فأمنوا بقضاء الله وقدره، وعدله ورحمته،

وإرادته ومشئته، وحكمته وحسن تدبيره، وقالوا لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن بقدر الله تعالى .
 ذلك القدر الذى هو سر نظام الحياة، وهو علم الله الأزلى، وتقديره لكل شىء، وكتابته فى اللوح المحفوظ، والمعبر عنه أحياناً بالإمام المبين كقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ (يس: 12).
 فلا يزيد شىء عما كتب ولا ينقص، الأحداث الصغار التى تجرى فى هذا الكون كالأحداث الكبار، والأعراض والصفات كالأجسام والذوات، كل شىء كان منذ كان الكون أو سيكون إلى انقراض الكون، قد جرى به العلم، ومضى فيه التقدير، وكتب فى الذكر حتى عجز الخاملين ؛ وكيس النابهين. روى مسلم فى صحيحه عن النبى ﷺ قوله: «كل شىء يقدر حتى العجز والكيس»⁽¹⁾، وأخرج الشيخان عن على أن النبى ﷺ قال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة». قالوا: يا رسول الله: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة». ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى﴾ (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ (الليل: 5-6) الآيات⁽²⁾ كما روى البخارى أن النبى ﷺ قال لأبى هريرة: «جف القلم بما أنت لاق فاخص على ذلك أو ذر»⁽³⁾.

آمن هؤلاء الموفقون بالقضاء والقدر، والعدل والإرادة، والمشئنة والحكمة، ولم يصعب عليهم كما صعب على غيرهم التوفيق بين كون فعل العبد قد قدره الله تعالى، وكتبه عليه، وسبق به علمه قبل التقدير والقضاء، وبين كون العبد فاعلاً لفعله مريداً له، مختاراً فى فعله وفى تركه، يحاسب به، ويجزى عليه. ولا بين كون العبد فاعلاً لفعله، وبين كون الله خالقاً للعبد وخالقاً لفعله. ولا بين كون الله يقضى للعبد ما شاء من قضاء، ثم يأمره وينهاه، ويجزيه حسب عمله الذى قُدر له، وكتبه له أو عليه، فقالوا: إن الله تعالى لما قدر ما للعبد وما عليه من خير أو شر، وسعادة أو شقاء قد قدره مربوطاً بأسبابه، فللخير أسبابه، وللشر أسبابه، كما قدر أن العبد يأتى تلك الأسباب، ويعمل بها بمحض إرادته التى قدرها له، وحرية اختياره الذى قضى له به، فلا يصل العبد إلى ما كتب عليه وقُدر له من سعادة أو شقاء إلا بواسطة تلك الأسباب التى يفعلها غير مكره عليها. ولا مجبور على فعلها، والحجة فى ذلك قول الرسول ﷺ: «إن الله إذا

(1) مسلم (8/ 51، 52).

(2) متفق عليه بمعناه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 209)، والآيات من سورة الليل (5، 6).

(3) البخارى (5/ 7).

خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة، حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة، فيدخله ربه الجنة، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار، حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار، فيدخله ربه النار»⁽¹⁾. ودلالة هذا الحديث الصحيح ظاهرة في أن الله تعالى إذا كتب على العبد أزلاً السعادة، أو الشقاء كتب له كذلك أنه يعمل بالأسباب التي تسعد أو تُشقى لتتم السعادة أو الشقاء على أساس نظام الأسباب، كما أن الاستدلال بنظام الكون العام له وجه أيضاً؛ إذ الإنسان جزء من الكون كله، والكون جميعه مربوط بسنن وقوانين تحكمه إلى نهاية أجله فلم لا يكون إذا الإنسان كذلك مبدؤه، وسعيه، ومصيره مربوط كذلك بسنن تحكمه لا يمكنه الخروج عنها بحال من الأحوال، وتلك هي نظام القضاء والقدر؛ إذ أنه لا فرق بين الإنسان والكون إلا أن الإنسان منظور في سعيه إلى إحدى غايتين: السعادة أو الشقاء، فهو واصل بسعيه إلى إحداهما لا محالة، فلذا اختلف سعيه عن سعي غيره من سائر الخلق، ومن أجل هذا أعطى قدرًا زائداً عن سائر الخلق وهو الإرادة والاختيار في سعيه، فالكون من غير الإنسان يسعى مسعا الذي قدر له لا يخرج عنه لأنه غير منظور في سعيه إلى إحدى الغايتين وإنما إلى غاية واحدة لا تتخلف فلذا لم يعط إرادة ولا اختياراً، وكان بعكسه الإنسان الذي أعطى الإرادة والاختيار فتحمل بهما الأمانة بعد أن رفضها الكون كله وأبأها قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ (الأحزاب: 72).

زيادة إيضاح:

ولمزيد التوضيح لهذه الحقيقة نقول: إن الإنسان مخلوق لله تعالى، مربوط له كسائر الخلق كالشمس، والقمر والنبات والحيوان يقوم بفعله كما تقوم سائر المخلوقات بما أناط بها ربها تعالى من أفعال تقوم بها، وإنما الفرق بين الإنسان وسائر الخلق أن الإنسان أعطى إرادة واختياراً لعله التكليف والجزاء عليه بخلاف غيره⁽²⁾؛ فإنه لا جزاء له على عمله الذي يقوم به لعدم منحه إرادة حرة، واختياراً كاملاً بحيث يكون إن شاء فعل وإن شاء ترك، فيصل إلى إحدى غايتيه بما أراده من عمله، واختاره لنفسه بمحض إرادته واختياره، ومن هنا لو أن العبد أكره على عمله، وأجبر عليه لم يترتب عليه حساب ولا جزاء بثواب أو عقاب لعله فقدته الإرادة الحرة، والاختيار التام.

(1) أخرجه مالك في الموطأ (92/3، 93)، وأبو داود في سننه (2/529)، والترمذي في تفسيره سورة الأعراف (2)، وأحمد (1/45).

(2) ومن هنا كان المجنون والصبي والنائم والمكره والناسي لا مؤاخذه عليهم في أفعالهم، لعدم وجود الإرادة والاختيار عندهم.

بهذا تم لأولئك الموفقين التوفيق بين كون فعل العبد قد قضاه الله تعالى أزلاً على العبد فهو فاعله لا محالة، وبين كون العبد مريداً لفعله مختاراً له يثاب على حسنه ويعاقب على سيئه.

ولبيان حقيقة كون العبد فاعلاً لفعله قائماً به، والله خالقه، وخالق فعله نقول: إن الكون كله مخلوق لله تعالى، وليس ثم من خالق غيره سبحانه وتعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ (غافر: 62).

والإنسان من جملة أجزاء الكون المخلوق؛ فهو إذاً مخلوق، والله خالقه وخالق الكون كله، وهل المخلوق يخلق؟ اللهم، لا.

إن الأفلاك تدور والكواكب تسير، والشجر ينمو، والحيوان يعمل عمله فيأكل، ويشرب، ويتوالد، فهل يقال لهذه المخلوقات من الكون إنها خالقة لأفعالها؟ أم الله هو الذى خلقها وخلق أفعالها؟ وإذا كان الجواب واحداً وهو أن الله تعالى هو الذى خلقها وخلق أفعالها، فبأى منطق تخرج أفعال العباد من هذا الحكم العام؟ والإنسان من جملة أجزاء الكون مربوط بنفس السنن التى تربط الكون! أمن أجل كون الإنسان مريداً لأفعاله، مختاراً لها؟ فإن ذلك مُنَحَ دون سائر الخلق لعله أن يثاب على فعله، أو يعاقب فقط، فليس ذلك بمخرجه عن كونه عبداً لله مريباً له، الله خالقه، وخالق أفعاله بالقوة التى أودعها فيه، وأقدره على الفعل بها، كما خلق غيره وخلق أفعاله، وكما خلق سائر المخلوقات فى الأرض والسموات بسنن الخلق والتكوين التى أودعها الكون، وربطه بها، فسبحانه من إله خلاق عليم!!

بهذا قد تقرر هذه الحقيقة وثبتت ناصعة وهى أن الإنسان فاعل لأفعاله ليس خالقاً لها. والله جل جلاله خالق للإنسان، وخالق لأفعاله.

ونزيد الأمر توضيحاً، والحقيقة تقريراً فنقول: أليس الإنسان ينطق، ويسمع، ويبصر ويعقل، والله هو الذى جعله كذلك؟.

أليس الإنسان يذهب ويجىء، ويأخذ ويعطى والله هو الذى أقدره على ذلك؟ أليس الإنسان يحب ويكره، ويريد ويشاء ويختار، والله هو الذى هياه لذلك؟ إذاً فما دام الله تعالى هو الذى جعله وأقدره، وهياه لكل أفعاله تلك فهو خالقه، وخالق أفعاله بلا جدل ولا نزاع. وكل ما فى الأمر أن الإنسان مريد لأفعاله الإرادية، مختار لها، والله هو الذى جعله كذلك لعله الابتلاء والجزاء.

وهنا يقال للذى لا تنتهى وساوسه فى هذا الباب: يا عبد الله اخسأ، ولا تعدُّ قدرك! ولا تعترض على ربك، إنك تسأل ولا يُسأل، خلقتك، ولم تخلقه، كنت به ولم يكن بك، وكان ولم تكن.

وقال أولئك الموفقون في كون الله تعالى قدر للعبد أزلاً ما شاء من قدر، وقضى به عليه، ثم هو يأمره، وينهاه، ويجزيه بحسب استجابته لأمره ونهيهِ، وعدمها قالوا:

أولاً: إن الله تعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، له الملك، وله الحمد، ولا يُسأل عما يفعل، وذلك لكمال علمه، وعدله، وحكمته، ورحمته.

وثانياً: أن فعل الله تعالى، وتقديره، وحكمه كله عدل وخير، فليس في أفعال الله تعالى، ولا تقديراته، ولا أحكامه ظلم أو شر قط. قضى بهذا العقل، وصح به النقل، فهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء: 40). ويقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: 46).

ورسوله ﷺ يقول وهو يقرر هذه الحقيقة التي قدمنا: «والخير كله في يدك، والشر ليس إليك» (1).

إن الظلم والشر، وإرادتهما لم تكن إلا من صفات المحدثين، وسمات المخلوقين. أما ذو العرش المجيد الفعال لما يريد، الغنى عن العبيد فقد تنزه عن الظلم وفعل الشر. وكيف وهو الأمر بالعدل في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ (النحل: 90).

وهو الناهي عن الظلم، المحرم له في قوله: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً؛ فلا تظالموا» (2). والمرغب في فعل الخير بقوله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ﴾ (البقرة: 197). وقوله: ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (الحج: 77).

وثالثاً: ما هو الظلم، وما هو الشر؟ أليس في مفهوم كل العقلاء هو وضع الشيء في غير موضعه، وأن الشر هو كل فعل خلا من نفع، أو زاد ضرره عن نفعه؟ بلى، وإذا، فهل تعذيب عاصٍ متمرد على ربه، فاسق باختياره وإرادته عن أمر مولاه، عازم على مواصلة الفسق، مصمم على المعصية ولو عاش دهر الدهارير، وآباد الأبدین، ولم يحدث نفسه بالتوبة، ولم يردّها، وهو قادر عليها بما وهبه الله من قدرة، وما منحه من إرادة.

فهل يا معشر العقلاء تعذيب هذا الإنسان يعد ظملاً وشرّاً؟ اللهم، لا.

(2) رواه مسلم (17/8).

(1) رواه مسلم (2/185).

رابعاً: إنه بحكم ملكية الله تعالى لعباده بخلقه إياهم، ورزقه لهم، وتدبيره لأموالهم؛ كان له الحق المطلق في أن يتصرف فيهم بما شاء، فلو عذبهم أجمعين لما كان ظالماً لهم، ولو رحمهم أجمعين لكانت رحمته خيراً من عملهم. وبهذا صح الخبر، إذ روى أحمد وأبو داود وابن ماجه بسند لا بأس به عن زيد بن ثابت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: «لو أن الله عز وجل عذب أهل السموات والأرض عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً في سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لدخلت النار»⁽¹⁾.

خامساً: إن الله تعالى لما قدر مقادير العباد من أعمار وأرزاق، وسعادة وشقاء قدر ذلك مع موجباته وأسبابه بحيث لا ينفك قدر مهما كان عن سببه - إلا أن يشاء الله - كما هي الحال بالنسبة إلى سائر أجزاء الكون؛ إذ الكل مربوط بنظام السنن، محكوم بقوانينها من أكبر جرم إلى أصغره كخلية النواة.

ويشهد لهذه الحقيقة مثل قول الرسول ﷺ: «إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها»⁽²⁾. والشاهد من هذا الحديث الصحيح إثبات نظام الأسباب؛ فإنه لما كان لدخول الجنة أسباب ولدخول النار أسباب، فإن العبد مهما عمل من أعمال تخالف أسباب سعادته أو شقائه فإنه لا بد في النهاية أن يعمل مريداً بأسباب ما كتب له أو عليه في كتاب المقادير ليوافق علم الله وتقديره، وهو في نفس الوقت مريد مختار لم يُكره على فعل ما فعل، ولم يجبر على ترك ما ترك.

إن هذه الحقيقة المدهشة حريّة بالوقوف عندها، والتفكير فيها. إنني لا أشك في أن عبداً يدرك كنه هذه الحقيقة إدراكاً صحيحاً سليماً، ثم لا يتصدع أمام عظمة الله تعالى، ولا يختر ساجداً بين يديه سبحانه وتعالى.

(1) أبو داود (527/2)، وابن ماجه (مقدمة / 10). وأحمد (182/5، 185، 189).

(2) متفق عليه، واللفظ لمسلم (44/8)، واللؤلؤ والمرجان (3/207، 208)، والبخارى (4/135).

وبيان هذه الحقيقة: أن الله تبارك وتعالى قبل أن يخلق الكون بخمسين ألف سنة⁽¹⁾ علم أنه سيخلق في يوم كذا، وتاريخ كذا، في مكان كذا عبد اسمه كذا، ووصفه كذا وكذا، وعلمه الذي سيختاره وبمحض إرادته واختياره هو كذا وكذا ليتحقق له به كذا وكذا من خير أو شر، من سعادة أو شقاء. وكتب ذلك كله في كتاب عنده. وفي نفس الوقت المعين، والمكان المحدد يوجد ذلك العبد، ويربّه إلى غاية بلوغه أشده وهو صحيح، سليم الحواس، صحيح العقل، ثم تعرض له - العبد - أمور متعددة، وأحوال مختلفة فيختار منها ما يراه لنفسه وهو بعيد عن كل إكراه، أو إجبار. فيفعل الذي اختاره لنفسه بكامل حريته واختياره؛ ثم يجد نفسه بالتالي قد وافق ما كتب الله له في ذلك الكتاب الأزلي القديم، ولم يخالفه في شيء، ولم يخطئه في قليل أو كثير. فسبحان ذي العز والجبروت، سبحان ذي الملك والملكوت سبحان الحي الذي لا يموت.



(1) روى مسلم رحمه الله عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء» (8/51).

إرادة الله تعالى ومشيتته

إن مما له صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر مسألة الإرادة والمشيتة
فلنسمع كلمة في هذا الموضوع تبين لنا وجه الحق فيه، وتهدينا للتى هى أقوم وأحسن فى
هذه المسألة الخطيرة من مسائل عقيدة المؤمن.

والكلمة فى هذا الموضوع تدور حول شيئين:

الأول: إثبات إرادة الله تعالى ومشيتته بالبرهانين النقلى والعقلى.

الثانى: هو أن إساءة فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى هو الذى أوقعهم فى ضلال مبين،
وخطأ وشر عظيمين.

أما إثبات إرادة الله تعالى ومشيتته فإنه يكفى فى ذلك سرد الأدلة السمعية وهى أخباره
تعالى، وأخبار رسوله ﷺ. ومنها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾
(البقرة: 185). وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل: 40).

هذا فى إرادته تعالى، وأما مشيتته فيقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾
(الأنعام: 112). وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: 29).

ويقول ﷺ فى إثبات إرادة الله تعالى: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين»⁽¹⁾.

ويقول فى إثبات إرادة مشيتته تعالى: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز،
وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛
فإن لو تفتح عمل الشيطان»⁽²⁾.

إن فيما ذكرنا من أخباره تعالى، وأقوال رسوله ﷺ وهو قليل من كثير للدليل كافياً فى
إثبات إرادة الله تعالى ومشيتته سبحانه وتعالى، ولنشفع هذا الدليل السمعى بالدليل العقلى
فنقول: إن الله تعالى بكونه خالق كل شئ، وربّه، ومليكه مستلزم لإرادته تعالى ومشيتته؛ إذ
لو لم يكن مريداً لكان مكرهاً، ولو كان مكرهاً لما تأتى له إيجاد العوالم، والتصرف فيها، والتدبير
لها بمقتضى المصلحة والحكمة، كما أن كون الإنسان مريداً شائياً نقض لإرادة الله تعالى ومشيتته،

(1) رواه البخارى (4/ 103، 9/ 125)، ومسلم (3/ 95، 6/ 53، 54)، واللوئز والمرجان (1/ 218، 219).

(2) رواه مسلم (8/ 56)، وقوله فى آخر الحديث: «ولكن قل: قدر الله» روى بلفظ: قدر، بالبدال المهملة
المفتوحة بدون شدة، وروى بتشديد الدال.

إذ من غير المعقول أن يكون المخلوق مريداً شائئاً، ويكون خالقه لا إرادة له ولا مشيئة، بل إن العقل يقضى بإثبات إرادة للخالق ومشية أعظم من إرادة الإنسان ومشية المخلوقتين منه. فلذا ما أراد المخلوق شيئاً ولا شاء إلا وقد أراده الخالق وشاء ذلك وإلا لزم أن يكون المخلوق أقوى من الخالق، مستقلاً بالأمر عنه وهو محال عقلاً وشرعاً قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ (النحل: 17). وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: 29).

هذا في إثبات إرادة الله تعالى ومشية. وأما عن إساءة فهم كثير من الناس لهما، وما ترتب على ذلك من ضلال، وشر، وفساد، فإننا نقول:

إنه من غير المجازفة في الكلام إن قلنا: إنه ليس هنا في المؤمنين من ينفي إرادة الله تعالى ومشية، وإنما هناك سوء فهم لهما ترتب عليه ضلال لا يقل خطورة عن ضلال أهل الجبر، ونفاة القدر.

وهذه المسألة أيضاً الناس فيها طرفان ووسط، فهي نظير مسألة القضاء والقدر، وقد تقدم بيانها بما فيه كفاية لمن أخذ الله بيده فحماه من زيغ القلوب!

فالوسط نجا هنا كما نجا هناك، والطرفان ضلاً هنا كما ضلاً هناك، والله المستعان.

وهذا بيان ضلال القوم: إن الطرفين منهما مفرط، ومنهما مفرط، فالطرف المفرط هو من زعم أن لا إرادة يخضع لها، ولا مشيئة إلا إرادته هو ومشية، فجميع أفعاله في زعمه لا تخضع إلا لإرادته وحده، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يستثنى من ذلك إلا ما أكره على قوله، أو فعله بقوة سلطان قاهر له، ألجأه بالقوة المادية إلى قول ما لا يريد، أو فعله، وما عدا ذلك من تصرفاته فهو لا يخضع فيها إلا لإرادته ومشية فقط. وهذا الضلال في هذه المسألة هو ضلال الملاحدة الذين لا يؤمنون بوجود الله تبارك وتعالى، ولا بسلطانه على خلقه، وحكمه فيهم.

بيد أنه شاركهم فيه طائفتان من المؤمنين! إحداهما تقول: إن الله تعالى منزّه عن أن يريد ضلال ضال، أو كفر كافر، أو يشاء فعل الفواحش، أو ارتكاب القبائح. فنفوا بهذا إرادة الله تعالى، ومشية في أكثر حوادث العالم الجارية فيه، ولازم هذا المعتقد أن الله تعالى قد يقع في ملكه ما لا يريد، وأن هناك مشاركاً في خلق الحوادث، وإيجادها بإرادة مستقلة عن إرادة الله تعالى. وهذا قطعاً ضلال وشرك، يتبرأ منهما، ويستعاذ من مثلهما.

وقالت الأخرى وهي ممن لا رأى لهم في هذا الموضوع ولا علم، وإنما هي مجموعة جهلة المسلمين ومقلداتهم، وأكثرهم من مثقفة المستغربين، قالوا:

إنه لا دخل لمشية الله تعالى في أفعالنا، وإنما مرد أفعالنا إلى إرادتنا الخاصة، ومشيتنا، فما

شئنا فعله فعلناه، وما لم نشأ فعله لم نفعله، ولهذا تراهم ينكرون بشدة على من يقول سأفعل كذا غداً إن شاء الله تعالى، ويردون عليه في غضب وزمجرة: لا تقل إن شاء الله قل سأفعل فقط. لا تقل لنا إن شاء الله، هذه الكلمة خلها جانباً، وقل سأفعل كذا وكفى !!!

ومن مظاهر ضلالهم هذا أن أحدهم يتكلم بأخبار مستقبله خالصة للاستقبال، ولا يقيد خبراً واحداً منها بمشيئة الله تعالى، فيخبر أنه سيسافر، أو يبيع، أو يشتري، أو يبنى، أو يهدم، أو يأخذ، أو يعطي، ولا يقيد من ذلك بمشيئة الله تعالى شيئاً أبداً، بل يطلق أقواله إطلاقاً من لا يؤمن بغير إرادته ومشيئته. ولا أدل على ذلك من أن مذبعي النشرات الجوية في أغلب الإذاعات، والتلفازات الإسلامية من عربية وعجمية يطلقون أقوالهم جازمين بوقوع مدلولاتها كأن الأمر لهم وحدهم، وليس لهم فيه مشارك. فيقول أحدهم ستهب الرياح غداً شرقية، أو غربية، وستنزل أمطار غزيرة أو ضعيفة في منطقة كذا، وستراكم السحب على كذا، أو تنزل ضخات مطر خفيفة على كذا إلى آخر ما يتنبؤون به ويقولون في نشراتهم الجوية اليومية، ولم يقيدوا منها بمشيئة الله تعالى ولا إرادته ولا إذنه شيئاً، فدل ذلك على عدم إيمانهم بمشيئة الله تعالى، ولا إرادته، ولا أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن كان بينهم يؤمن بإرادة الله ومشيئته فإنه يترك الاستثناء بمشيئة الله تعالى خوفاً من الملاحدة حوله، أو مجاملة لهم فيصبح قريباً لهم في الشرك والضلال، هذه حال الطرف المفرط.

وأما الطرف المفرط وهو لا يقل ضلالاً وباطلاً عن مقابله، فإنه يهدر ما منح الله تعالى عباده من إرادة، وما وهبهم من مشيئة تليق بآدميتهم، وتتفق مع ما هيأهم الله له من التكاليف التي يتقرر بها مصير العبد في الحياتين. كما سبق بيانه عند الكلام على القضاء والقدر. فقالوا: إنه لا إرادة للعبد ولا مشيئة البتة وإنما الإرادة والمشيئة لله تعالى وحده، وأنكروا أن يكون للعبد إرادة أو مشيئة، فساقهم هذا المعتقد الفاسد إلى ضلال لا حد له، ولا حصر، حتى أصبحوا به معطلة أسوأ حالاً من الملاحدة الذين لا يؤمنون بالله تعالى، ولا بشرعه، ولا بلاقائه.

وانعكست عندهم الأمور، واختلطت الأشياء فأصبح القبيح عندهم حسناً والحسن قبيحاً، والكفر كالإيمان، والفسق والفجور كالطاعة والبرور ! فكل عامل عندهم هو مطيع لله سواء عمل بطاعته، أو عمل بمعصيته ؛ فالعامل بالمعصية مبرأ من تبعة عمله، وجريرة فعله فلا ذنب ولا وزر، وبالتالي فلا عذاب ولا عقاب، وذلك لأن كل عامل في نظرهم هو يعمل بإرادة الله تعالى ومشيئته لا بإرادة نفسه ومشيئته، إذ العبد عندهم لا إرادة له ولا مشيئة !

ولنستمع لأحدهم وهو يترجم هذا المذهب الفاسد القبيح فى بيت واحد من الشعر فيقول:

أصبحت منفعلاً لما يختاره منى ففعلى كله طاعات

ومبنى هذا المذهب الباطل -الذى أهدر ما وهب الله تعالى عبده من إرادة ومشیئة، وأهدر بالتالى كل القيم والشرائع- مبناه على قاعدة تقول: العبد مطيع للإرادة موافق للمراد، يريدون إرادة الله تعالى ومراده. وعليه فلم يبق ذنب ولا مذنب على وجه الأرض؛ إذ الناحر للإنسان مطيع للديان، والصائم الظمان موافق لمрад الرحمن، فهما إذًا فى هذا المذهب سيان.

ودون هذه الطائفة طائفة أخرى أخذت كذلك مبدأً ألا إرادة للإنسان، ولا مشیئة، ولكن ما قالوا هذا عن علم لهم، وفهم لديهم، وإنما قالوه اتباعاً للهوى، وجرياً وراء الشهوات.

إذ أن أحدهم يأتى ما يأتى من الباطل، ويرتكب ما يرتكب من المنكر والذنوب وإن قيل له فى ذلك قال: هذه إرادة الله حكمت بهذا، ومشیئته اقتضته، ولو شاء الله ما فعلت، وإنما أنا عبد لا أخرج عن إرادة الله ومشیئته، وهذه حال كثير من المسلمين اليوم، وقبل اليوم، منذ أن فشا الفساد فى عقائد الأمة، وانتشر الزيغ فى صفوفها نتيجة عمل يد الهدم والتخريب التى ما برحت تطعن فى جسم أمة الإسلام حنقاً عليها، وحسداً لها.

ولو كان هذا القول منهم نابعاً من اعتقاد صحيح، وهو أنهم خاضعون لمشیئة الله تعالى وأقداره فيهم لكان حسناً منهم، وصح لهم ولكنه لا صلة لله بقلوبهم البتة، وإنما هو مجرد قول يلوكونه بالسنتهم لدفع المذمة عنهم، والملامة عليهم، فكان شأنهم شأن المشركين الذين حكى القرآن قولهم: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ﴾ (الأنعام: 148).

فإنهم لما دُعوا إلى عبادة الله وحده، وإلى ترك التحريم لما أحل الله تعالى من بحائر الإبل وسوائبها⁽¹⁾ احتجوا مبررين شركهم وافتراءهم على الله بمشيئة الله تعالى، وأنه لو شاء الله عدم شركهم ما أشركوا؛ ولو شاء عدم تحريمهم لما حرموا ما حرموه، ولم يكن هذا منهم إلا دفاعاً عن باطلهم وضلالهم؛ ولم يكن أبداً عن اعتقاد صحيح بأنهم خاضعون حقيقة لأقدار الله تعالى، عاملين بمراده، طالبيين لرضاه، نازلين عن مشيئتهم لمشيئته؛ إذ لو كان هذا هو المراد من قولهم لكانوا به مؤمنين صادقين، وكان من السهل إقناعهم بترك الشرك بالله، والافتراء

(1) البحائر جمع بحيرة: وهى الناقة تنتج وتلد خمسة أبطن أو سبعة فتشق أذننها ويخلى سبيلها فلا يركب ظهرها، ولا يجز وبرها، ولا يشرب لبنها، ولا يؤكل لحمها، والسوائب جمع سائبة: وهى الناقة التى يحرمها صاحبها ويتركها تقرباً للآلهة وأحكامها كأحكام البحيرة عندهم!!!

عليه ؛ لأن الله تعالى حرم ذلك، ونهى عنه، ولو كان مراداً له محبوباً لديه لما نهى عنه، وحرمه في كتابه، وعلى لسان رسوله محمد ﷺ.

وهنا يحسن التذكير بقاعدة جليلة، وحكمة ثمينة وضعها الهداة المهتدون من فرقة الوسط الناجون وهي: أنه لا يحتج بإرادة الله وقدره على المعائب ؛ ولكن يحتج بهما على المصائب، فالمعائب وهي الذنوب والمعاصي ما دام الله تعالى قد حرمها على عباده، وكرهها لهم ومنهم وأنزل بذلك كتبه، وبعث رسله، فإن العبد إذا غشيها مريداً لها ؛ وتلبس بها مختاراً غير مكره عليها، لا يصح عقلاً أن يحتج بالقدر الذي هو علم الله، وتقديره لأحداث الكون خيرها وشرها وكتابته لها في كتاب المقادير (اللوح المحفوظ) بخلاف المصائب التي تصيب المرء ولم يكن قد تسبب فيها بترك طاعة ؛ أو مخالفة سنة من سنن الله تعالى الشرعية أو الكونية ؛ فإنه إن قيل له في ذلك صح منه الاحتجاج بالقدر بل بالإرادة الكونية ؛ إذ لم يكن بإرادة منه ولا اختيار، كالرجل يسقط عليه جدار، أو تلسعه حية، أو تنقلب به سيارة ولم يكن قد علم بتصدع الجدار وجلس تحته، ولا بوجود الحية ونام عليها، ولا تجاوز حد السرعة المعتادة لسيره.

أما إن تسبب في هذا فلا حق له في الاحتجاج بالقدر، بل عليه أن يتحمل نتائج معصيته، ومعاقبة ربه تعالى له لمخالفته سننه، وإهماله الأسباب المشرفة لسلامته.

وبالمناسبة يُذكر هنا احتجاج آدم وموسى عليهما السلام، قال موسى عليه السلام لآدم لائماً له: «أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة»، فرد عليه آدم عليه السلام محتجاً على المصيبة التي شكاهها موسى، وهي الخروج من الجنة قائلاً: «أتلومني على أمر قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فحج آدم موسى» وغلبه في الحجة ؛ لأن المصائب يحتج فيها بالقدر، بخلاف المعائب ؛ لأن المصيبة لم يُردّها الإنسان، ولم يأتها مختاراً لها مؤثراً إياها، وإنما تقع عليه بدون علم منه، ولا إرادة ولا اختيار، فيحسن الاحتجاج عليها بالقدر تخفيفاً من آلامها؛ وثقل وطأتها على النفس المصابة.

أما المعائب أي الذنوب فإن العبد يأتيتها مريداً لها، وهو يعلم أن الله تعالى، قد حرّمها وكرهها، فإذا فعلها لم يصح منه عقلاً ولا شرعاً أن يحتج عليها بإرادة الله تعالى، وقدره بحال من الأحوال.

وقد يكون من اللائق هنا رواية حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام لسماع نصه كاملاً كما رواه الشيخان ؛ إذ جاء فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله: قال رسول الله ﷺ: (احتج آدم وموسى، فقال موسى: «يا آدم أنت أبونا خيبتنا، وأخرجتنا من الجنة! فقال آدم: أنت موسى،

اصطفاك الله بكلامه، وكتب لك التوراة بيده، أثلومني على أمر قدره الله علىّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟» فقال النبي ﷺ: «فحج آدم موسى»⁽¹⁾، وقد روى هذا الحديث بألفاظ أخرى نكتفى بهذا اللفظ منها. والله المستعان.

سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى

أوقعهم في الحيرة والخطأ

لقد ثبت بالتجربة والملاحظة أن خلافاً بسيطاً يقع في جهاز ضخّم كطائرة (الكونكورد) الفرنسية البريطانية، أو كبنية كبرى كناطحات السحاب الأمريكية قد يفسده ويدمره فيحمله إلى خراب ودمار. وكذلك الحال بالنسبة إلى عقيدة القضاء والقدر، والإرادة والمشيئة إذا وقع فيها أدنى انحراف، وبأى وجه، أو صورة أوقع صاحبه في ضلال وخطأ لا حد لهما.

إن أكثر الذين تبلبلت أفكارهم، واضطربت نفوسهم في عقيدة الإرادة والمشيئة من المسلمين كانوا ممن غفلوا عن كون القدر هو نظام الحياة الذي يحكمها من نواتها إلى نهايتها، وأنه يجب أن يمضي كما علم وكتب، وأن تغيير شيء منه معناه خراب الحياة بكاملها.

ولذا تحتم على العبد التسليم به، وله، وحرّم عليه إنكاره، والاعتراض عليه، كما لا يجوز بحال الاحتجاج به، أو الاتكال عليه، هذا هو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟؟

أو كانوا ممن جهلوا أن إرادة الله تعالى - ومشيتته منها - تنقسم إلى:

إرادة كونية قدرية، وهي تلك التي لا يناط بها تكليف الإنسان، ولا إثابته ولا معاقبته، وهي الإرادة التي كان بها القدر ونظامه. والتي لا حق للإنسان أن ينظر إليها بغير عين الرضا والتسليم، وإلا أصبح محارباً لله، معارضاً لنظامه، يدعى السمو إليه، والتعالى عليه، وهو مخلوقه الذي لا غنى به عنه⁽²⁾ حتى في أنفاسه التي يرددها، والهواء الذي يتنفس فيه، والضوء الذي يبصر به، والظلام الذي يهجع فيه.

وإلى إرادة شرعية دينية وهي التي أناط الله تعالى بها تكليف الإنسان، وثوابه أو عذابه، وهي التي يجب على العبد أن ينزل عليها، ويطيع ربه فيها، كما يحرم عليه التمرد عليها، والخروج عنها، وهي التي قد نزلت ببيانها وتفصيلها كتب الله تعالى، وبعثت للدعوة إليها، وتعليمها رسل الله عليهم السلام. وهي جميع ما شرع الله تعالى لعباده من عقائد وعبادات،

(1) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (3/ 211)، والبخاري (8/ 157)، ومسلم (8/ 49-51).

(2) الضمير في مخلوقه كالضمير في عنه كلاهما يعود إلى الله عز وجل.

وأحكام، وحدود، وآداب، ومحاسن، وأخلاق، وهى التى من أجلها منح الله تعالى العبد ما منحه من قدرة، وإرادة، ومشئته، واختيار، ليبتليه مختبراً له أيستجيب لما أَرادَه ربه منه، وشاء له من عبادته وطاعته ؟ أم يرفض الاستجابة، فلا طاعة ولا عبادة!!

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا (٢) إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: 2، 3).

وهى الإرادة التى قد يتخلف فيها مراد الله تعالى ومحبوبه، فيأمر بها عباده، وينهاهم، ومنهم من يمتثل، ومنهم من لا يمتثل. فقد أمر تعالى عباده بالإيمان به، وبرسله، وبطاعته، وطاعة رسله، وأحب لهم الطاعة، وكره لهم الكفر، والفسوق، والعصيان^(١).

وبما منحهم من القدرة، والإرادة، والمشئته أمكنهم من أن يمتثلوا أو يرفضوا بمحض إرادتهم وكامل اختيارهم، ليرتب على ذلك جزاءهم بإثابة المحسنين وعقوبة المسيئين.

هذه هى الإرادة الدينية الشرعية كما ينبغى أن تعلم.

وأما الإرادة الكونية القدرية والتى سبق بيانها: فإن الله تعالى لم يجعل للعبد قدرة على الخروج عنها، والتمرد عليها بحال من الأحوال ؛ لأنها لا تتعلق بأفعال العباد الإرادية الاختيارية التى هى التكليف والجزاء إلا من حيث إنه تعالى شاءها أن تكون أزلاً كذلك، فكانت طرداً لعموم إرادته حتى لا يخرج الكون عنها.

وزيادة فى الإيضاح للإرادة الكونية والتى لا سبيل للإنسان إلى الخروج عنها نقول: فهل يمكن للإنسان أن يرفض أن يكون ذكراً إذا كان أنثى ؛ أو العكس ؛ أو يرفض أن يكون أسود إذا كان هو أبيض، أو يرفض أن يكون قصيراً إذا كان هو طويلاً، أو يرفض أن يولد فى بلد كذا أو تاريخ كذا إذا كان هو فى بلد وزمان غير ما كان فيه ؟؟؟ والجواب فى كل هذا، لا، ولم ؟ والجواب: هو أن إرادة الله تعالى الكونية لا يعصى فيها، ولا تتخلف بحال من الأحوال، لأنها مناط نظام الكون، وآية الربوبية، وموجب الألوهية لله سبحانه وتعالى، وبخلافها الإرادة الشرعية التكليفية المتعلقة بأفعال العباد الإرادية الاختيارية، فإن الله تعالى أقدر العبد على امتثالها، ورفضها ليبتليه ثم يجزيه.

(١) قال الله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِّ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ (الحجرات: 7).

وأخيراً إنه لا يسع العبد أمام هذه العظمة الإلهية إلا أن يسجد لله هيبه وإجلالاً. وأن يذكره ويشكره اعترافاً وتقديراً، وبذلك تتم كرامته، وتكتمل إنسانيته ويستقيم في حياته استجابة لما أراد الله تعالى منه كوناً وتقديراً، وشرعاً ودينياً.

الهداية والإضلال

ومثل الخطأ في فهم الإرادة والمشيئة، الخطأ في فهم الهداية والإضلال، فقد أساء كثيرون فهم مثل قول الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (إبراهيم: 4). وقوله: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام: 108). وقوله: ﴿أَفَمَن زَيْنَ لَهُ سَوَاءُ عَمَلِهِ فَرَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ (فاطر: 8).

فقالوا: كيف يضل الله العبد ثم يعذبه؟ وكيف يزين له سوء عمله ثم يعاقبه عليه؟ وقالوا: أين العدل والرحمة في ذلك؟ فنصبوا أنفسهم بجهلهم خصوصاً لربهم، فهلكوا بجهلهم، وشقوا بسوء فهمهم. ولو وفقوا لسلموا لله تعالى في حكمه. ولم يعترضوا عليه في تدبيره لأمر خلقه؛ إذ له الخلق وله الأمر، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل، وهو العزيز الحكيم، ولكن القوم لما لم يوفقوا سلكوا مسلك إبليس في الاعتراض على الله عز وجل فأصابهم بذلك إبلاس وخذلان. ولو وفقوا - وقد عرفوا أن الله تعالى يهدي من يشاء، ويضل من يشاء - للجأوا إليه تعالى راغبين خائفين، يسألونه الهداية، ويستعينونه من الضلال؛ إذ هو مالك الملك، القادر على كل شيء. لو وفقوا لأتوا بابه سائلين، وللاذوا بجنابه محتمين، حيث لاح طريق الهدى ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِّ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ (الكهف: 17).

ولكن ما وفقوا فاتبعوا خطوات الشيطان، فباءوا بالخرمان، والذي قادهم لهذا الخسران والهوان جهلهم بربوبية الله تعالى، وسوء ظنهم في الرحمن. فجهلهم بالربوبية التي من مقتضياتها التربية والإصلاح، ومن مستلزماتها الهداية والإضلال هو الذي جعلهم يسألون كيف؟؟ وليس من حقهم أن يسألوا، وسوء ظنهم بربهم في تقديره، وحسن تدبيره جعلهم يعترضون على حكمه، ويستخفون حكمته، فهلكوا بجهلهم، وسوء ظنهم بربهم.

فما أسوأ حالهم؟! وما أخسر مآلهم!؟

والحقيقة التي قد خفيت عليهم فضلوا هي أنهم لم يعلموا أن الله تعالى إنما يضل من يضل بعد أن يُعذَّر إليه بتبيين سبل الهدى واضحة، ويمنحه القدرة الكافية على السير فيها، فإذا أثر

العبد - بعد العلم - الضلال على الهدى، ولاه الله ما تولى، فكان ذلك عدلاً منه تعالى، لا ظلم معه. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ (التوبة: 115).

إنهم لم يعلموا أن الهداية كالإضلال كل منهما يتم حسب سنن الله تعالى في خلقه، والسنة في الإضلال كالسنة في الهداية وهى الإيثار، والرغبة، والطلب، والعمل.

فمن أثر الهداية ورغب فيها، وطلبها وعمل بأسبابها تمت له. ووجد من الله تعالى عوناً له على تحصيلها وتحقيقها، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده، وفضله عليهم. ومن أثر الضلالة، ورغب فيها وطلبها، وعمل بأسبابها تمت له، ولم يجد من الله تعالى صارفاً عنها وهذا من عدل الله تعالى في عباده، وحسن تدبيره فيهم.

وجهلوا سنة الله تعالى في تزيين الأعمال لأصحابها، فأنكروا على الله تعالى ذلك، وقالوا: كيف يزين الباطل الشر لعبد حتى إذا فعله عاقبه عليه؟؟

وما علموا أن هذا التزيين إنما حسب سنة إلهية لا تتخلف، وهى أن المرء إذا أثر العمل باختياره، وأحبه من نفسه، ولازمه غير منفك عنه زمناً طويلاً أصبح ذلك العمل زيناً له، حسناً عنده، وإن كان شيئاً قبيحاً عند غيره. والعمل الفاسد كالعمل الصالح فى هذه السنة كلاهما يُزِين لفاعله بهذه الطريقة.

غير أنه من رحمة الله تعالى بعباده، وعظيم إحسانه إليهم أن حذرهم فى كتبه، وعلى السنة رسله عليهم السلام، حذرهم من استدامة العمل الفاسد، والإصرار عليه، ودعاهم إلى تركه، والتوبة منه، قبل أن يبلغ من نفوسهم حد التزين، ويصل إلى مستواه، فيزين لهم حسب سنة الله تعالى، ويومها يتعذر عليهم تركه، والإقلاع عنه.

وفى هذا يقول تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (فاطر: 8). ويقول: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لَكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ (الأنعام: 108).

فمن استجاب لتحذير الله تعالى، وترك فاسد الأعمال، وسيئها نجاً، ومن تجاهل التحذير، وواصل فى سبيل الغى السَّير هلك، ومن نجاً فقد نجاً برحمة الله وفضله، حيث هيا له أسباب النجاة، وأعانه على الأخذ بها، ومن هلك فقد هلك بعدل الله تعالى حيث نهاه عن الغى، فأثره على الرشد، ودعاه إلى التوبة، فرفضها، وأصر على خلافها حتى وصل فى عمله حد التزيين فزين له فرآه حسناً، وبذلك فقد الاستعداد لقبول دعوة الخير والهدى، ومضت فيه سنة الله فى التزيين، فهلك مع الهالكين، ولا عدوان إلا على الظالمين: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (النحل: 33).

الجزاء من ثواب وعقاب

قائم على أساس الرحمة والعدل

ومن غفلة بعض المؤمنين عن كيفية إجراء الثواب والعقاب على العباد في الدنيا والآخرة تورطوا في جدل وخصومات لا معنى لها، ولا داعى إليها في مسألة العدل والظلم.

حتى ضل منهم خلق كثير. وفتنتهم جاءت من غفلتهم عن نظام السنن الذي هو نظام القدر، ونابع منه، وداخل فيه، وليس خارجاً عنه، ولا متنافياً معه.

وهذا بيان ذلك: إن الله تعالى جعل للأعمال الإرادية الاختيارية التي يقوم بها الإنسان أثراً في نفسه، وبحسب ذلك الأثر يكون الجزاء من ثواب وعقاب.

ومن هنا كان العمل اللإرادي كعمل الناسى، والمخطئ، والمكره، والمجنون لا تأثير له على النفس، أعنى أن النفس البشرية لا تتأثر بذلك العمل حسب سنة الله تعالى في ذلك. وعليه فلا ثواب ولا عقاب.

أما ما كان من العمل إرادياً اختيارياً؛ فإنه لا محالة من تأثر النفس به، فإن كان العمل صالحاً أى من الأعمال التي شرعها الله تعالى لعباده لتزكية أرواحهم وتطهيرها، لتتأهل بذلك لمجاورته سبحانه وتعالى في الملكوت الأعلى كان التأثير والانطباع وصفاً حسناً للنفس، ويسمى ذلك الانطباع حسنة، وقد يطلق لفظ الحسنة على نفس العمل المسبب لذلك على سبيل المجاز الذي علاقته السببية.

وإن كان العمل سيئاً أى مما جعله الله تعالى حسب سنته مؤثراً في النفس بالظلمة والتدسية ليكون مؤهلاً للإنسان لمجاورة الشياطين في جهنم من عالم الشقاء كان الانطباع أو الأثر وصفاً سيئاً للنفس، ويسمى ذلك الانطباع سيئة، وجمعها سيئات. كما قد يطلق لفظ السيئة على العمل المكسب لها إطلاقاً مجازياً علاقته السببية أيضاً، وقد جاء في هذا عدة آيات قرآنية منها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩، ١٠). وقوله: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣، ١٤).

فالوصف مشعر بعلّة الحكم، فالبرور والفجور هما سبب دخول النعيم والجحيم، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ (البروج: ١١).

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (٧٤) لَا يُفْتَرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٥) وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ (الزخرف: 74 - 76).

فالإيمان والعمل الصالح سبب في تطهير النفس، والإجرام بالشرك والمعاصي سبب في تدينسها، وبحسب ذلك الأثر الطيب أو الخبيث يكون الجزاء بالشواب والعقاب. ومصدق هذا وارد في كتاب الله تعالى في قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام: 139).

إنه وإن كان للآية الكريمة معنى غير الذي أوردنا وهو أنه تعالى سيجزي المشركين بوصفهم الكذب بما حرموا من الأنعام والحرق افتراء على الله تعالى فإن المعنى الذي أردناه قائم بالآية أيضاً، وهو أن الجزاء على الأعمال الصالحة، والسيئة يكون بحسب الوصف المكتسب منها للنفس البشرية التي اقتضت سنة الله تعالى انطباعها بأفعال العبد الإرادية الاختيارية. مما جعله الله تبارك وتعالى مؤثراً في النفس، وذلك من كل ما شرع من الأعمال الصالحة، وما حرم ومنع من الأعمال الضارة الفاسدة مما يقوم به، ويعمله قلب الإنسان، وجوارحه على حد سواء.

وبناء على هذا فإن الجزاء جار على أساس من الرحمة الإلهية والعدل: فالعبد يكسب عمله بمحض إرادته واختياره، فإن كان الكسب مما يحب الله تعالى حيث شرعه لعباده، وأمرهم به، ورغبهم فيه، وأعانهم عليه، بعد ما وفقهم للقيام به ثم أثابهم عليه الحسنة بعشر أمثالها، فكان جزاء تغلب عليه الرحمة والإحسان، وإن كان الكسب مما كره الله تعالى لعباده، ونهاهم عنه، وحظره عليهم تخلى الله تعالى عن فاعله خذلاناً له؛ لأنه آثر معصيته على طاعته، وسخطه على رضاه، ثم هو إن لم يغفره له بموجب من موجبات المغفرة كالتوبة، أو العفو الإلهي، وعاقبه عليه كان العقاب بمحض العدل، السيئة بمثلها فلا حيف ولا ظلم.

وهكذا فقد تقرر ما توخيناه من إثبات هذه الحقيقة وتقريرها، وهي أن الجزاء والشواب والعقاب على كسب المرء قائم على أساس الرحمة والعدل الإلهيين، خال من كل معنى للإساءة أو الظلم. وصدق الله العظيم؛ إذ يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: 40).



الحسنة والسيئة من الله تعالى

أو من النفس

بين يدى الحديث عن الحسنة والسيئة، وهل هما من عند الله تعالى ؟ أو الحسنة من الله، والسيئة من النفس، نظراً إلى قوله تعالى: ﴿وَأَن تُصِبَّهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِن تُصِبَّهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: 78).

مع قوله عز وجل من نفس السورة، وذات السياق: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ (النساء: 79).

أقول بين يدى تحقيق هذه المسألة، والتي هى جزء هام من مسائل عقيدة المؤمن، وذات صلة وثيقة بموضوع القضاء والقدر، والجبر والاختيار، والإرادة والشيئة، والجزاء بالرحمة، والعدل، وهما ما سبق لنا القول فيه بالتفصيل، وبالقدر الذى فتح الله علينا به، ورأينا أنه كاف والحمد لله فى تحقيق المعتقد الذى يرضى الله تعالى، ويرضاه من عبده، ويرضى به عنه. أقول: إن الحسنة وهى ما يحسن لدى الإنسان مما يلائم مزاجه فيورث باطنه صفاء وطهرًا، أو جسمه نعومة ونضرة، وهى بهذا المعنى قسمان:

الأول: حسنة سببها الإيمان والعمل الصالح، أو هى حسنة الطاعة لله ورسوله محمد ﷺ.

الثانى: حسنة سببها الإنعام الإلهى على العبد بما يريح جسمه من الوصب، ونفسه من الغم والههم، وذلك بما يؤتیه من مال، وسلامة بدن، ونصر، وعز، ومجد.

والسيئة ضد الحسنة وهى ما لا يحسن لدى الإنسان مما لا يتلاءم مع مزاجه وطبعه، أو هى ما يسوءه فى باطنه، ويضره فى ظاهره، وهى بهذا المعنى قسمان أيضاً:

الأول: سيئة سببها الشرك والمعاصى؛ إذ هما حسب سنة الله تعالى يورثان النفس ظلمة وخبثًا، فتمرض لذلك وتشقى.

الثانى: سيئة سببها الانتقام الإلهى، وذلك كأمراض الجسم وعمله، وضياع المال، والهزيمة فى الحروب، وفقد الشرف، وذهاب الكرامة.

وبناء على هذا الذي تقدم فالحسنة التي هي بمعنى الطاعة لله ورسوله ﷺ يوفق العبد لفعلها، والإتيان بها على الوجه الذي شرع الله تعالى لعباده، هذه الحسنة لا تُنسب إلا إلى الله تعالى، إذ هو الذي شرعها للعبد، وعلمه إياها، وأمره بفعلها، وأعانها عليها، ووعد به حسن المثوبة عليها ترغيباً له في فعلها، كما أنه كتبها له أزلاً وقضى بها له قدراً. فهذه الحسنة نسبتها إلى غير الله تعالى خطأ فاحش لا يُقر عليه أبداً.

والسيئة التي هي بمعنى معصية الله تعالى ورسوله ﷺ، ومخالفتها في أمرهما ونهيهما، هذه السيئة إذا فعلها العبد بإرادته واختياره مؤثراً للمعصية على الطاعة، والمخالفة على الامثال، فهذه السيئة لا تُنسب إلا إلى العبد فاعلها، ولا تصح نسبتها إلى الله تعالى أبداً؛ لأن الله تعالى لم يشرعها، ولم يأمر بها، ولم يرغب فيها، بل حرّمها، وتوعد عليها منفراً منها فكيف تصح نسبتها إلى الله تعالى؟ اللهم لا، وكيف والله تعالى يقول: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ (النساء: 79).

وأما إن كانت الحسنة بمعنى النعمة والبلاء بالخير كالمال والولد، والصحة والعافية في ذلك، وكالنصر والظفر، والعز والجاه، وكانت السيئة بمعنى النقمة والابتلاء بالشر، وذلك كالتقص في المال والنفس والهزائم في الحروب، وما إلى ذلك من الشدائد والكروب فكلاهما - أي الحسنة والسيئة - من هذا النوع - كلاهما من عند الله تعالى، لأنه عز وجل هو الذي يبلو عباده امتحاناً، وانتقاماً حسب مقتضيات رحمته في تربية عباده، وتدبير شأنهم. قال تعالى: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: 35). وقال عز من قائل: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ (١٥) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ (١٦) ﴿كَلَّا بَلْ لَأُكْرِمُنَّكَ﴾ (الفجر: 15 - 17).

ومن هنا لما كان المنافقون بالمدينة ينسبون الحسنة بمعنى النعمة إلى الله تعالى، وينسبون السيئة بمعنى النقمة، والبلاء، والشر ينسبوننها إلى رسول الله ﷺ رد الله تعالى عليهم قولهم هذا، وعابه عليهم، ونسبهم إلى سوء الفهم، وقلة الإدراك، وأخبر مقررأ أن كلاً من هذين النوعين

من الحسنة والسيئة هما من عند الله تعالى. قال عز وجل: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: 78).

وبهذا زال والحمد لله الإشكال الذى كان يقف عنده كثير من المؤمنين حيارى يكادون أن يقولوا: إن بين الآيتين تناقضاً أو تعارضاً فى حين أنه لا تناقض بينهما، ولا تعارض وحاشا كتاب الله تعالى أن يضرب بعضه بعضاً تناقضاً أو تعارضاً، وكيف يكون ذلك والله منزله وهو العزيز الحكيم يقول: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِن خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (فصلت: 41 - 43).

ويحسن التنبيه هنا إلى أن العبد وإن نسبت إليه السيئة التى هى المعصية لله ولرسوله ﷺ، والتى يترتب عليها تدسية النفس وتلوينها ليس معنى ذلك أن العبد قد فعل ما لم يكن قد كتب عليه أزلاً، وقضى به عليه قدراً، لا والله، بل ما فعل العبد إلا ما كتب عليه أن يفعله، كما أن كون العبد أبى المعصية باختياره وفعله بنفسه مريداً لها، لا يدل على أنه خلق فعله فيها، بل الخالق هو الله الذى خلقه وخلق إرادته واختياره.

وإنما لم تنسب السيئة التى هى المعصية لله ورسوله ﷺ لم تنسب إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى قد حرّمها، ونهى عن فعلها، وتوعد عليها، ولم يرضها لعبده كما رضى له الطاعة، إذ قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ (الزمر: 7).

مع العلم والتسليم بأن الله تعالى لو شاء أن يحول بين العبد وبين فعله المعصية أو الطاعة لفعل، وهو على ذلك لو شاء قدير، لكنه لم يفعل، لأنه خلق هذا المخلوق ليبتليه فى هذه الحياة قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (المالك: 1، 2).

فلذا منح العبد إرادة واختياراً يتأتى لكل امرئ بهما أن يسلك أى سبيل من سبل الهدى أو الضلال، الغى أو الرشاد، وبسلوكه الذى أَرَادَهُ واختاره يصل إلى الغاية التى جعل السبيل مؤدياً إليها - سنة الله: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (فاطر: 43).

بحث مهم في المشيئة

وأخيراً إنه قد يظن البعض أن مشيئة العبد كافية في إيجاد ما يريده، ويرغب في حصوله، وهو ظن باطل خاطئ قطعاً. وذلك :-

أولاً: أنه قد ثبت بالمشاهدة والحس أن العبد كثيراً ما يريد الشيء، ويرغب في تحصيله، ويبذل كل وسيلة من شأنها أن تحقق الشيء المطلوب، ثم يخيب العبد في سعيه، ولا يفوز بمراده.

وثانياً: أن القدر قد سبق في كل ما هو كائن إلى يوم القيامة فلم يكن في الكون إلا ما كتب أزلاً، وقدر أن يكون. وبهذا يعلم أن مشيئة العبد التي يتحقق بها المراد هي نفسها مكتوبة أزلاً، ومحكوم بوجودها في إبانها ليتحقق بها ذلك الفعل الذي أراد العبد أن يفعله، وأثر فعله واختاره على غيره وفي هذا يُقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: 29).

وتوضيح ذلك أن العبد ليس له أن يشاء إلا ما سبق به الكتاب فإذا سبق كتاب المقادير بشيء يقع على يد العبد أوجد الله تعالى للعبد مشيئة تدفعه إلى إتيان العمل وخلق له اختياراً في نفسه يرجح به الفعل على الترك فيكون ذلك المقدور.

وبهذا تتأكد الحقيقة العظمى وهي أن الرب غير العبد، وأن العبد غير الرب سبحانه وتعالى، ويتبع ذلك أن لا تكون للعبد مشيئة مستقلة عن مشيئة الرب، وسابقة لها، وأن لا يكون للعبد من حق أن يسأل الرب تبارك وتعالى: لم فعل كذا؟ أو لم لم يفعل كذا، قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: 23).



الزائفة

وأخيراً إن الإيمان بجميع أركانه، وإن كان مطلوباً لذاته كما هو ظاهر نصوص الكتاب والسنة المطالبة بذلك كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (النساء: 136).

وكقول الرسول ﷺ في جواب من سأله عن الإيمان: «الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسوله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره»⁽¹⁾.

فإنه بالنظر إلى ما يترتب عليه من حب الله تعالى، وتعظيمه، وخشيته، والإنابة إليه، وطاعته بفعل محابه، وترك مكارهه، وحب رسوله، وتعظيمه وطاعته والتأسي به، ومتابعته، هو وسيلة لا غاية، ذلك أن الباعث النفسى على طاعة الله تعالى بالاستقامة على شريعته هو الإيمان بالله تعالى بصادق وعده ووعدته، إذ لو لا ذلك ما تمت الاستقامة لأحد على طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ. لهذا صح أن ينظر إلى الإيمان على أنه وسيلة لا بد من تحقيقها، وذلك لتوقف الاستقامة عليه. وهذا بيان ذلك: -

١- الإيمان بالله تعالى وسيلة لطلب معرفته بأسمائه وصفاته، وحبّه وتعظيمه، وطاعته وخشيته، والتقرب إليه بفعل محابه، واجتناب محارمه، يشهد لهذا، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: 1). إذ علق تعالى حصول ما طلبه منهم على إيمانهم.

٢- الإيمان بالملائكة وسيلة إلى الاعتبار بطاعتهم؛ لأنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم: 6).

ووسيلة إلى الاستحياء منهم، والاستئناس بهم لعلم المرء بأن الكرام الكاتبين عن يمينه وشماله لا يفارقونه، كما أنه وسيلة إلى معرفة عظمة الله تعالى فيهم⁽²⁾، وقدرته عليهم؛ إذ يقول تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: 50).

٣- الإيمان بالكتب وسيلة إلى الإيمان بالله تعالى، ومعرفة علمه، وأسمائه، ووعدته ووعدته، كما هو وسيلة إلى تصديق الرسل الذين أرسلوا بها، وأنزلت عليهم، ووسيلة أيضاً

(1) رواه مسلم (31/1).

(2) جاء فى الصحيحين: أن الرسول ﷺ رأى جبريل وله ستمائة جناح. اللؤلؤ والمرجان (41/1)، والبخارى (140/4)، ومسلم (109/1).

إلى معرفة شرائع الله تعالى، وجميع ما يحبه الله، ويرضاه، أو يكرهه ويسخطه من المعتقدات، والأقوال، والأفعال، وإلى معرفة الغيب وأحوال الدار الآخرة.

٤- الإيمان بالرسول وسيلة إلى معرفة تطبيق شرائع الله تعالى، وبيان كيفية أداء عباداته، ووسيلة إلى محبة الرسل الباعثة على طاعتهم، واتباعهم والتزام شرائعهم.

٥- الإيمان باليوم الآخر وسيلة إلى فعل الخيرات، وترك المنكرات بما يوجد في النفس من الرغبة فيما عند الله من خيرى الدنيا والآخرة، وبما يوجد لها من خوف من عذاب الله، والرغبة من عقابه.

٦- الإيمان بالقدر وسيلة إلى ترك الحزن على ما فات من متاع الحياة، وترك الفرح الحامل على البطر والأشر بما يؤتى الإنسان من حطام الدنيا، ومتاعها الزائل. كما هو وسيلة إلى الصبر والتحمل، والطمأنينة والسكون^(١).

وبناء على كل الذى سبق فإنه يتبين بوضوح أن كل ركن من أركان الإيمان الستة المكونة لعقيدة المؤمن يثمر للمؤمن ثمرة خاصة، فالإيمان بالله تعالى يثمر محبة الله، وتعظيمه، وطاعته، وخشيته. والإيمان بالملائكة يثمر الاعتبار بطاعتهم، والاستحياء منهم، والاستئناس بهم، والإيمان بالكتب والرسول يثمر قوة الإيمان بالله تعالى، ويثمر معرفة شرائعه، وكيفية أدائها. والإيمان باليوم الآخر يثمر الرغبة في فعل الخيرات، والنفرة من الشرور، والمفاسد، والمنكرات. والإيمان بالقدر يثمر سكون النفس، ورضاها، وطمأنينة القلب، وهدوءه، وهدايته، وذلك بتخليص النفس من الفرح بالحياة الدنيا، والغم على ما فات منها، ومن الهم على ما قد يفوت المرء منها.

وبالنظر في هذا والتأمل فيه نجد أن الإيمان وسيلة للحصول على تلك الثمرات التى يثمرها كل جزء من أجزائه، كما نجد أن تلك الثمرات هى وسيلة إلى غاية من أشرف الغايات وهى كمال الإنسان الذاتى والروحى وسعادته فى الدنيا والآخرة؛ إذ كل كمال للإنسان، وسعادة له مردهما إلى طاعة الله ورسوله تلك الطاعة المزكية للنفس، والمؤهلة للإنسان لدخول دار السلام.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ (الشمس: ٩، ١٠). وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا (٦٩) ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ (النساء: ٦٩، ٧٠).

تم تحرير هذا الكتاب فى الفاتح من رمضان سنة 1396 هـ والحمد لله أولاً وآخراً والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد، وعلى آله، وصحبه، وسلم تسليماً كثيراً.

(١) قال الله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ (الحديد: ٢٢، ٢٣).

المراجع

أ - فى التفسير:

- 1 - أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن - محمد الأمين الشنقيطى، المتوفى 1393 هـ - الطبعة الأولى بمطبعة المدني.
- 2 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم - لأبى السعود - طبعة دار العصور للطباعة والنشر.
- 3 - التسهيل لعلوم التنزيل - لابن جزى، المتوفى (741 هـ) - الطبعة الثانية (1393 هـ - 1973 م) الناشر دار الكتاب العربى - بيروت.
- 4 - تفسير القرآن العظيم - لابن كثير، المتوفى (774 هـ) مطبعة عيسى البابى وشركاه.
- 5 - جامع البيان فى تفسير القرآن - لابن جرير الطبرى، المتوفى (301 هـ) الطبعة الثانية (1392 هـ - 1972 م) دار المعرفة للطباعة والنشر.
- 6 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، المتوفى (671 هـ) الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية.
- 7 - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى - للألوسى، المتوفى (1270 هـ) الطبعة الثانية المطبعة المنيرية.
- 8 - غرائب القرآن و رغائب الفرقان - لنظام الدين النيسابورى المعروف بالقمى مطبوع مع تفسير ابن جرير.
- 9 - فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى، المتوفى (1281 هـ) مطبعة الحلبي وأولاده.
- 10 - الفتوحات الإلهية على الجلالين لسليمان الجمل، المتوفى (1204 هـ) مطبعة الحلبي وشركاه.
- 11 - فى ظلال القرآن لسيد قطب - الطبعة الثانية - بمطبعة الحلبي وشركاه.
- 12 - المنار للإمامين محمد عبده ورشيد رضا، المتوفى (1354 هـ) - الطبعة الرابعة أصدرتها دار المنار بمصر (1373 هـ، 1954 م).

ب - كتب الحديث:

- 1 - تحفة الأحوذى على جامع الترمذى - للمبار كفورى، المتوفى (1373 هـ، 1954 م) مطبعة الحلبي.

- 2 - الترغيب والترهيب للمندري، المتوفى (656هـ) الطبعة الثانية (1373هـ - 1954م) مطبعة الحلبي.
- 3 - تنوير الحوالك شرح موطأ مالك للسيوطي، المتوفى (911هـ) مطبعة الحلبي.
- 4 - جامع الأصول لابن الأثير الجزري، المتوفى (606هـ) تحقيق عبد القادر الأرناؤوط الطبعة الأولى (1389هـ، 1969م) مطبعة الملاح.
- 5 - جمع الوسائل في شرح الشمائل - لعلی القاری، المتوفى (1014هـ) - الطبعة الثانية بمطبعة دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
- 6 - سبل السلام على بلوغ المرام للصنعاني، المتوفى (1182هـ) الطبعة الرابعة (1379هـ، 1960م) مطبعة الحلبي.
- 7 - السندی على سنن ابن ماجه القزوينی - السندی، المتوفى (1138هـ) الطبعة الأولى بالمطبعة التازية بمصر.
- 8 - سنن أبي داود - الطبعة الأولى (1371هـ - 1952م) مطبعة الحلبي.
- 9 - سنن الترمذی - للترمذی، المتوفى (279هـ) المطبعة الوطنية بحمص - (1385هـ، 1965م).
- 10 - سنن الدارمی - لعبد الله الدارمی، المتوفى (225هـ) بتحقيق عبد الله هاشم يمانی - شركة الطباعة الفنية المتحدة.
- 11 - السيوطی على النسائی ومعه حاشية السندی (1163) - المطبعة المصرية بالأزهر.
- 12 - شرح الموطأ للزرقانی - مطبعة مصطفى محمد (1355هـ - 1936م).
- 13 - شرح النووی على صحيح مسلم - للنووی، المتوفى (676هـ) المطبعة المصرية ومكتبتها.
- 14 - صحيح البخاری - للبخاری - مطبعة محمد على صبيح وأولاده - تسعة أجزاء، صحيح مسلم - لمسلم، المتوفى (261هـ) منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع بيروت.
- 15 - عمدة القاری شرح صحيح البخاری - للبدر العینی، المتوفى (855هـ) المطبعة المنيرية.
- 16 - عون المعبود شرح سنن أبي داود. الطبعة الثانية (1388هـ - 1968م).
- 17 - فتح الباری شرح صحيح البخاری - لابن حجر العسقلانی، المتوفى (852هـ) طبعة الحلبي (1378هـ، 1959م).

- 18 - الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني - للساعاتي - الطبعة الأولى - مطبعة الفتح الرباني.
- 19 - اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان - لمحمد فؤاد عبد الباقي - الطبعة الأولى - مطبعة الحلبي.
- 20 - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - لنور الدين الهيثمي، المتوفى (807هـ) الطبعة الثانية (1967م).
- 21 - مستدرک الحاكم على الصحيحين - للحاكم، المتوفى (405هـ) - نشر مكتبة مطابع النصر الحديثة بالرياض.
- 22 - مسند الإمام أحمد - لأحمد بن حنبل، المتوفى (241هـ) الطبعة الأولى (1389هـ) 1969م) المكتب الإسلامي دار صادر.

ج - كتب العقيدة:

- 1 - آكام اللؤلؤ والمرجان في أخبار الجان للشبلي الحنفي، المتوفى (769هـ) طبعة محمد على صبيح (1376هـ).
- 2 - الإسلام في عصر العلم للغمراوي - الطبعة الأولى (1393هـ - 1973م) مطبعة السعادة.
- 3 - الإسلام يتحدى - لوحيدين الدين خان - الطبعة الأولى (1390هـ - 1970م).
- 4 - إلى التي سألت: أين الله؟ للأستاذ أحمد بهجت.
- 5 - الإيمان - لابن تيمية، المتوفى (728هـ) المكتب الإسلامي بدمشق (1381هـ، 1961م).
- 6 - التوسل، أنواعه، وأحكامه - للألباني - الطبعة الأولى.
- 7 - تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد لسليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المتوفى (1233هـ) الطبعة الثانية (1390هـ) طبعة المكتب الإسلامي.
- 8 - شرح الطحاوية بتحقيق الألباني - الطبعة الرابعة (1391هـ) المكتب الإسلامي بيروت.
- 9 - الشرك ومظاهره - للعميلي الجزائري - الطبعة الثانية (1966م).
- 10 - العقيدة الإسلامية وأسسها - عبد الرحمن حسن حبنكة.

- 11 - قصة الإيمان - للجسر - الطبعة الثالثة (1389هـ - 1969م) المكتب الإسلامي.
- 12 - الكواشف الجليلة عن معاني الواسطية - لعبد العزيز السلطان - الطبعة الرابعة بمؤسسة مكة للطباعة والنشر دار الإعلام.
- 13 - لوايح الأنوار البهية - للسفاريني - المتوفى (1188) الطبعة الأولى.

د - كتب السيرة:

- 1 - البداية والنهاية - لابن كثير، المتوفى (774هـ) الطبعة الأولى (1966م) دار النصر للطباعة.
- 2 - سيرة ابن هشام - لابن هشام، المتوفى (218هـ) بتعليق الهراس، نشر مكتبة الجمهورية لصاحبها عبد الفتاح مراد.
- 3 - محمد المثل الكامل - لمحمد أحمد جاد المولى - الطبعة الرابعة (1371هـ، 1951م) مطبعة الاستقامة.
- 4 - مختصر سيرة الرسول. لعبد الله بن محمد بن عبد الوهاب، المتوفى (1244هـ) مطابع الحكومة بمكة.

هـ - كتب اللغة:

- 1 - دائرة معارف القرن العشرين - لفريد وجدى، المتوفى (1373هـ) - الطبعة الثالثة: (1971م) دار المعرفة للطباعة والنشر.
- 2 - القاموس المحيط - للفيروز أبادى، المتوفى (817هـ) المطبعة الحسينية المصرية.
- 3 - لسان العرب لابن منظور - دار بيروت للطباعة والنشر.
- 4 - مختار الصحاح - للرازى، المتوفى (666هـ) الطبعة الأولى (1976م).
- 5 - منجد الطلاب - لمعلوف - الطبعة السابعة عشرة.





الصفحة

الموضوع

3	المقدمة
7	■ حاجة الإنسان إلى العقيدة وضرورتها له.
	■ الإنسان - تعريفه - بدء خلق الإنسان - حقوقه - الآيات القرآنية في خلق آدم وذريته.
	الكلمات التي تلقاها آدم من ربه فتأب بها عليه - مادة خلق كل من الملائكة والجان وادم عليه السلام - إتيان الناس آدم يوم القيامة ليشفع لهم عند الله تعالى واعتذاره إليهم - احتجاج موسى على آدم عليهما السلام، وغلبة آدم في الحجة - فضل يوم الجمعة على سائر الأيام - خلق ذرية آدم كان بالخلق التدريجي وخلق آدم عليه السلام كان بالخلق المباشر - الإنسان في معتقد بعض الملاحدة وكونه متحولاً عن خلية هبطت من بعض الكواكب، ثم ارتقى إلى حيوان ردى ثم إلى حيوان أرقى ثم إلى إنسان - نظرية النشوء والارتقاء والتطور - عامل الوراثة - بم يكون الشبه في الولد - السنن الكونية هي من خلق الله تعالى، فلذا هو إن شاء أوقفها وإن شاء أمضاها - سنة التدرج في خلق بني آدم - سنن الله تعالى في الكون سماها الملاحدة بالقوانين الوضعية الطبيعية تضليلاً وتغريباً.
	■ الاعتراضات على النظرية الداروينية - نقض النظرية الداروينية في خلق الإنسان وإثبات أن آدم عليه السلام خلق بالخلق المباشر - قول أحد العلماء الغربيين في النظرية الداروينية: أنها أبوها الكفر وأمها القذارة !!
11	■ العقيدة - تعريفها بأدق معنى وأوضحه - حاجة الإنسان إلى العقيدة - إبطال فكرة الماركسية في أن الإنسان هو الذي خلق الإله - إبطال مزاعم الملاحدة في أن الإنسان اليوم قد استغنى عن الإيمان بالله تعالى وعن التدين - سر إنكار الملاحدة للدين.
15	■ بيان وجه ضرورة الدين للإنسان - إبطال دعوى أن العقل في إمكانه الاستقلال بهداية الإنسان دون الدين - بيان المراد من الدين الضروري لإكمال الإنسان والسعادة وأنه الدين الإسلامى لا غير - دعوة عقلاء العالم إلى الدين الإسلامى، إذ هو الدين الوحيد الكفيل بإسعاد الإنسان

لأنه لم يحرف ولم يبدل بخلاف غيره من الأديان فإنها فسدت بالتحريف والتبديل والنقصان والزيادة التي وقعت فيها. 19

الركن الأول من أركان عقيدة المؤمن

- الإيمان بالله رب العالمين. وبيان المسلك الصحيح في إثبات وجود الله تعالى. مثل من أنكر وجود الله وكفر به لمجرد أن عرف بعض ظواهر الطبيعة. 23
- مناقشة لكلمات الطبيعة، والضرورة، والصدفة وتعريف كل منها. لم يكفر الملاحدة بالله تعالى إلا فرارا من الطاعة والنظام. بيان معنى الصدفة. أمثلة لبطلان الصدفة. بيان معنى الضرورة التي يقول بها الملاحدة. 26
- معرفة الله جل جلاله، ومراتب المؤمنين فيها. 29
- الطريقة الأولى إلى معرفة الله سبحانه وتعالى: الهداية العقلية 31
- قانون العلة وبيانه، قانون الوجوب وبيانه. قانون الحدوث وبيانه. قانون النظام وبيانه. قانون العناية بالإنسان وبيانه 32
- مظاهر العناية بالإنسان في الكون 36
- الطريقة الثانية: الهداية الدينية وبيان كونها تجمع بين الهدايتين العقلية والشرعية 37
- مقارنة بين الإيمان بالله تعالى والإيمان بالطبيعة العمياء. أسماء الله تعالى وصفاته. ذكر مبدئين هاميين في باب الأسماء والصفات. 49
- خلاصة بحث الأسماء والصفات. براءة واعتذار 51
- التوحيد 53
- توحيد الربوبية 53
- فطرية الإقرار بالربوبية 54
- الإلحاد الشيعي. عوامل الإلحاد في العالم 55
- أوروبا الضحية الأولى للإلحاد الشيعي 56
- شرك الربوبية ومظاهره في الأمة الإسلامية 59
- توحيد الألوهية. الإيمان بالله تعالى والكفر بالطاغوت هو مدلول لا إله إلا الله. لا تكون العبادة قربة إلا إذا توافر لها العلم بها، ومعرفة كيفية أدائها وإفراد الله تعالى بها. 61

- 64 الشرك فى الألوهية، ومظاهره فى الأمة الإسلامية، وتعريف الشرك
- 65 الذات المقدسة - صفات الله تعالى وأسماءه
- 66 بيان ما يرتكبه المؤمن لصفات الله تعالى من جهل وخطأ وكفر
- 67 عبادات الله تعالى وبيانها بالتفصيل، وبيان كيف يوحد الله بها
- 67 أعمال القلوب - المحبة وبيانها
- 68 الخوف والخشية وبيان الفرق بينهما
- 69 الإنابة والتوكل
- 70 أعمال الجوارح - الدعاء
- الاستغاثة وبيانها - النذر وبيانها - ذبح القران وبيانها - الركوع والسجود - الطواف بالبيت
- وتقبيل الحجر الأسود - سائر أنواع العبادات - ترك طاعة الله ورسوله للرغبة أو الرهبة -
- 71 تعظيم الله تعالى بالحلف به
- 75 الوسيلة - تعريف الوسيلة لغة وشرعا - مبنى الوسيلة الشرعية
- على ثلاثة أمور - شروط الوسيلة النافعة ثلاثة وبيانها - بيان ما يجوز من الوسيلة وما لا
- يجوز منها مع أمثلة للوسائل المحرمة - التوسل فى الأمور الإلهية
- 78 الوسائل المشروعة - التوسل بالإيمان وبيان أنه من أشرف الوسائل
- 79 الصلاة والصيام من أشرف الوسائل وأنفعها
- التوسل بالصدقات من طيب المال ويطيب النفس - الحج والاعتماد من الوسائل المفيدة فى
- 80 الحصول على الرغائب
- 80 الجهاد والرباط وكونهما من أعظم الوسائل للفوز بالقرب من الله تعالى
- 81 تلاوة القرآن الكريم، والذكر والتسبيح من الوسائل النافعة
- 82 الصلاة على النبى ﷺ من الوسائل النافعة
- 82 الاستغفار والدعاء من الوسائل المشروعة النافعة
- 83 دعاء المؤمنين من الوسائل المجدية النافعة
- 84 التوسل بأسماء الله الحسنى - فعل الخيرات
- 85 ترك المحرمات من الوسائل النافعة جداً
- 86 الوسائل المحرمة - دعاء الصالحين - النذر لهم -

- 87 سؤال الله تعالى بجاء فلان - سؤال الله تعالى بحق فلان
- 88 تنبيه هام في ثلاث شبه وردت في أربعة أحاديث: حديث الضريس، وحديث استسقاء عمر بالعباس عليه السلام، وحديث اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك - وحديث فاطمة بنت أسد الله
- 91 الاستشفاع والشفع والشفاعة
- 92 قياس خاطئ في مسألة الشفاعة
- 94 الشفاعة في الآخرة وهي قسمان ثابتة ومنفية - شفاعات الرسول عليه السلام ومنها الشفاعة العظمى في فصل القضاء
- 97 شروط الشفاعة المثبتة
- 98 التبرك وبيان حقيقته
- 99 بم يكون التبرك ؟
- 99 كيف يكون ؟ وبيان حقائق هامة في باب التبرك
- 100 الولاية والكرامة
- 102 الفرق بين ولاية الرب للعبد وولاية العبد للرب تبارك وتعالى
- 102 الولي، معنى موالاة الله تعالى للعبد
- 103 الكرامة وهي خاصة وعامة - وبيان أحوال أهلها
- 104 مراتب الأولياء
- 105 تقارير هامة تتعلق بالأولياء والكرامات
- 107 أولياء الشيطان ومولاتهم

الركن التاسع من أركان العقيدة المؤمن

- 109 الإيمان بالملائكة - مقدمات هامة في هذا الشأن تجعل الإيمان بالملائكة يقينيا في نفس المؤمن
- 111 الأخبار
- 113 الآثار
- 113 الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية
- 114 خلق الملائكة - مادة خلقهم
- 115 تفاضل الملائكة - أعمال الملائكة

- بعض صفات الملائكة 118
- الجن والشياطين 120
- أدلة وجود الجن والشياطين 121
- وجوب الإيمان بالجن والشياطين 125
- بعض معلومات عامة عن الجن والشياطين وذلك كتوالدهم وتغذيتهم ومادة خلقهم وما إليه
- من معلومات تتعلق بهم 125
- فائدة عظيمة النفع في دفع الشيطان 133

الركن الثالث من أركان عقيدة المؤمن

- الإيمان بالكتب - تعريف الكتب - حقيقة الإيمان بالكتب 135
- ما عرف من الكتب الإلهية، وما لم يعرف 135
- على أي دليل آمن المؤمن بالكتب - أدلة وجوب الإيمان بالكتب وكونه ركن الإيمان 137
- منزلة القرآن الكريم بين كتب الله تعالى 142
- لوحة مشرقة ببيان ما في القرآن من الهدى والخير 143
- شروط الانتفاع التام بما في القرآن من الخير والهدى 145
- تقرير أخير لعقيدة المؤمن في الكتب الأربعة: القرآن، والتوراة، والإنجيل، والزيور 146

الركن الرابع من أركان عقيدة المؤمن

- الإيمان بالرسل عليهم السلام - إيمان الوحي - تعريف الوحي 149
- الوحي الإلهي وطرقه - تعريفه 150
- ضرورة الوحي وحاجة الناس إليه 152
- النبوة - تعريفها - النبي تعريفه - مؤهلات النبوة - النبوة المثالية - شرف النسب - عامل الزمن 153
- صفات الأنبياء - الصدق - الأمانة - التبليغ - الفطانة 155
- الرسل عليهم السلام - الرسل في التاريخ - عدد الرسل - زمن وجود كل منهم 157
- ديارهم - أولو العزم منهم 159
- وجوب الإيمان بالرسل عليهم السلام 160

- 162 محمد رسول الله ﷺ . التعريف به . نشأته . زواجه . أولاده ،
- 163 عناية الله تعالى به
- 164 نبوته وبعثته
- 164 بدء دعوته
- 166 مؤهلاته للنبوّة . كماله الخلقى . كماله الخلقى
- 168 رجاحة عقله
- 169 شجاعته
- 170 سياسته
- 171 رحمته
- 172 كرمه
- 173 عدله
- 173 عفوه وحلمه
- وجوب الإيمان بنبوّة محمد ﷺ . أدلة ذلك . شهادة الكتب السابقة له على نبوته . ما جاء من
- 175 البشارات بنبوته فى التوراة والإنجيل
- 176 شهادة علماء أهل الكتابين بنبوته ﷺ
- 178 شهادة بالايين المسلمين بنبوته ورسالته وإيمانهم بها . شهادة الله تعالى له بنبوته
- 179 شهادة الله قسمان : شهادة إخبار ، وشهادة معجزات . المعجزات المحمدية وذكر عدد منها
- 183 ختم النبوات بنبوّة محمد ﷺ وأدلة ذلك العقلية والسمعية الشرعية

الركن الخامس من أركان حقيقة المؤمن

- الإيمان باليوم الآخر . تعريف اليوم الآخر . إمكان الفناء وأدلتة ، إمكان المعاد وأدلتة . البعث
- 185 وأدلتة . الحكمة من المعاد ، وجوب الإيمان باليوم الآخر وأدلة ذلك من سمعية وعقلية .
- ظواهر الانقلاب الكونى أو أشراف الساعة . الآيات الصغرى ما ظهر منها وما لم يظهر منها
- إلى الآن . الآيات الكبرى ، آيات قريبة جداً من قيام الساعة ، بداية الانقلاب الحقيقى ، نشوء
- 192 الحياة الثانية بعد انتهاء الأولى
- 201 الحشر والموقف الصعب فى عرصات القيامة . تعريف الحشر

- 202 فصل القضاء والشفاعة فيه
- 203 الحساب والميزان، بعد إعطاء الناس كتبهم واختلافهم في تناولها
- 204 الجنّة والنار
- 206 دار السلام . سعتها . طيب ريحها . أبوابها . عند باب الجنّة . استقبال أهل الجنّة . قصور دار السلام وتفاضلها
- 210 نظرة على أرض الجنّة . جنة عدن
- 211 تنبيه في الخلق المباشر كآدم وجنة عدن . والغرض من ذلك
- 212 الخيام والأسواق في دار السلام
- 214 أنهار الجنّة وأشجارها
- 215 المطاعم والمشارب في الجنّة . الأرائك والسرر . نساء دار السلام وحسنهن وجمالهن . الطرب وركوب الخيل في دار السلام . أكبر نعيم روحاني لأهل دار السلام وهو النظر إلى وجه الرب تبارك وتعالى وهو آخر دار السلام وما فيها من إنعام
- 219 دار البوار . مجئ جهنم للناس في الموقف . أبوابها . كيفية الدخول من تلك الأبواب . عذاب أهلها فيها . تلاومهم . خطبة إبليس في أهل النار . درجة لحرارة في جهنم
- 223 لون نار جهنم . عمقها وبعد غورها . أوديتها . سلاسلها وألالتها . الحيات والعقارب فيها
- 226 طعام أهل النار: الزقوم . الغسلين . الضريع
- 227 مشارب أهل النار: الحميم . الصديد . المهل . ماء نهر الغوطة
- 229 فحش أجسام أهل النار . قبح منظرهم . تفاوتهم في العذاب . بكاء أهل النار وعويلهم
- 231 البرزخ . تقسيم الحياة إلى ثلاثة حيوات، وبيان كل منها
- 233 مراحل جريان النعيم أو العذاب على الروح وهي في البرزخ . عذاب القبر ونعيمه . خروج الروح بعد قبضها وردها إلى جسدها قبل الدفن . سؤال الملكين للميت في قبره
- 236 نعيم الروح أو عذابها وهو بعيد عن القبر في عليين أو سجين مع اتصال الروح بالقبر اتصالاً مباشراً دائماً وأبداً إلى يوم يبعثون

الركن السادس من أركان عقيدة المؤمن

- الإيمان بالقضاء والقدر - الكون ومظاهر التنظيم فيه - ثلاث مقدمات مهمة في التمهيد
237 لمعرفة القضاء والقدر
 - القضاء والقدر - ثمرة الرضا بالقضاء - الجبر وحقيقته - أول من قال به
245 لا جبر ولا نفي للقدر - الإنسان فاعل مختار - والله خالق الإنسان وخالق أفعاله
 - 251 الإبلسية وبيان مذهبه الفاسد
 - 252 إرادة الله تعالى ومشيتته - عدم جواز الاحتجاج بالقدر على ارتكاب المعاصي، وجواز الاحتجاج
259 به على المصائب.
 - 264 سوء فهم كثير من الناس لإرادة الله تعالى أوقعهم في الحيرة والخطأ
 - الهداية والإضلال، الجزاء من ثواب وعقاب قائم على أساس الرحمة والعدل الإلهيين.
 - 266 الحسنة والسيئة من الله تعالى أو من النفس
 - 273 بحث مهم في المشيئة
 - 275 الخاتمة في بيان المراد من أركان الإيمان
 - 277 مراجع الكتاب
 - 281 الفهرس
- تمت فهرس كتاب عقيدة المؤمن والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد

